الأمين

كتاب العربي 103
AL ARABI BOOK

كاتبات «العربي»

الجزء الأول

مقالات لنخبة من كاتبات مجلة العربي
AL-ARABI

كتاب العربي
AL ARABI BOOK

سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعا واحداً تتناوله عدة أقلام.

رئيس التحرير
د. عادل سالم العبدالجادر

عنوان الكتاب: كاتبات «العربي» (الجزء الأول)
مقالات لنخبة من كاتبات مجلة العربي
الناشر: وزارة الإعلام - مجلة العربي

العنوان:

ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - دولة الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ - شارع ٤٧ - قسيمة ٣

جميع الحقوق محفوظة للناشر

جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن فكر كاتبها.

Al -Arabi Book, 101th
Female Writers in Al-Arabi Magazine - Part 1,
Selected Essays Published in Al -Arabi Magazine

Publisher: Ministry of Information
Al-Arabi Magazine.
All rights reserved.
E.mail: arabimag@arabimag.net

كاتبات «العربي»

(الجزء الأول)

مقالات لنخبة من كاتبات مجلة العربي

كاتبات «العربي»

ســـاهمت المرأة، ولاتزال، ببناء مجد مجلة العربـــي، في الكتابة والتحرير والنقد والمراجعة والتصحيح. ومنذ بداية إصدار المجلة، استعان رؤساء التحرير بالمرأة كاتبة وأديبة وشاعرة وناقدة، لتقف جنباً إلى جنب مع الرجل في بناء صرح الثقافة العربية.

في هذا الكتاب، اخترنا للقارئ باقة من المقالات، تتعطر بمداد أقلام كاتبات، تفنّن بتسطير أفكارهن في كل الميادين الثقافية والأدبية والعلمية، التاريخ والشـــعر والقصة والنقد والتربية والتقانة. وقد أخذنا بعين الاعتبار التوالي الزمني لهذه المقالات، بحيث تبدأ من الأقدم إلى الأحدث نشراً. ولعل مثل هذا الجمع يساعد الباحثين على تتبع أدب المرأة في العالم العربي، ومن ثم تسليط الضوء على ترقي المجتمعات العربية، التي تلعب فيها المرأة دائماً دوراً مهماً وفاعلاً، بغضّ النظر عن تغير المعطيات واختلاف الظروف.

كان من المفترض أن نُقدّم ترجمة لكلّ كاتبة مقال في هذا الكتاب، إلا أنّ الأمر لم يتيسر لعدة أسباب: أولها عدم توافر السيرة الذاتية لبعض الكاتبات، وثانيها الإلحاح على سرعة إنجاز الكتاب في فترة وجيزة، وقد امتد هذا الكتاب في محتواه ليضيق عن تحمل أوراقه سفر واحد، فامتد إلى جزأين. ولعل السائل يسأل عن بعض الكاتبات اللاتي لم نأتِ على ذكر مقالاتهن، فنقول بأننا قد نشرنا بحوثهن ومقالاتهن وقصائدهن في كتب أخرى، وربما أفردنا لبعضهن كتاباً خاصاً من سلســـلة «كتاب العربي». كما يلاحظ القارئ أيضا أننا اخترنا مقالة واحدة فقط لكل كاتبة، على الرغم من أن بعضهن قد كتبن سلسلة من المقالات في أعداد مختلفة من مجلة العربي. هذا، بالإضافة إلى أننا راعينا في جمع واختيار المقالات، تلك المقالات المنشورة في الأعداد التي تقادمت، فصعب على القارئ العثور عليها في الوقت الحالي. ولعل ما يجدر ذكره في هذا المقام أنّ مجلة العربي ســـوف تخطو خطوتها القادمة نحو الفهرسة الموضوعية لمقالاتها،

بحيث توفر للقارئ والباحث كل ما يختاره تصنيفا لموضوع أو لمؤلف أو لعنوان.

ولابد لنا من الإشارة هنا إلى مواضيع المقالات المختارة، إذ يكفي القارئ أن يلقي نظرة سريعة على العناوين، ليكتشف أن أقلام الكاتبات انداحت في أرجاء عريضة وواسعة من حقول الكتابة.

ففي الجزء الأول وهو الأقدم زمنياً انصبّ اهتمام الجيل القديم من الكاتبات على الأدب (ولّادة بنت المستكفي، بودلير، الغزل الجاهلي، سيمون دي بوفوار، الجاحظ... إلخ).

وفي الجزء الثاني انصرف الاهتمام إلى الأطفال والمراهقين وأساليب التربية الحديثة لهذه الشريحة التي تعتبر خميرة المستقبل (إبداع المراهق، تربية الأبناء في المهجر، المعارضة عند الطفل، كيف نربي طفلاً ذكياً سعيداً ... إلخ).

ومهما كانت مواضيع المقالات، فكاتبات العربي كنّ في موقع المسؤولية، وكانت أقلامهن جريئة وذكية ومقتدرة ومسلحة بالمعارف الحديثة، فضلاً عما يقال عن القلم النسائي من رقة الإحساس ورهافة الشعور وليونة الكلمة وغائيتها.

في هذا العام 2016 وتزامنا مع اختيار الكويت عاصمة للثقافة الإسلامية، تصدر مجلة العربي إلكترونيا (e-magazine) لتأخذ مكانها بين المجلات العالمية، وتؤكد أن اللغة العربية لغة علم وثقافة وأدب، لغة حيّة ومتجددة، تواكب عصر التطور والتقدم العلمي. ولعلنا في خطوة أخرى متقدمة، وعلى صهوة الطموح الذي يأخذنا بعيداً، قد نوفر للقارئ نسخة إلكترونية متطورة لكتاب العربي.

د. عادل سالم العبدالجادر
رئيس تحرير مجلة العربي

ولادة بنت المستكفي غادة قرطبة... *

د. بنت الشاطئ **

استقبلتها الدنيا في بيت خامل من بيوت الأمويين بقرطبة والشمس توشك أن تغيب، والسحب تتجمع في الأفق، منذرة بإعصار مارد، فلم يكد أحد يلتفت إلى أن أميرة أموية جديدة، من سلالة عبدالرحمن الناصر، قد ولدت لمحمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر، وضاع صراخها - ساعة ولدت - وسط ضجيج المعارك التي كان يخوضها مسلمو الأندلس، من علويين وبربر وأمويين، ويرقبها عن كثب أعداء مترصدون، طال انتظارهم لذلك اليوم الذي يتمزق فيه ملك الدولة الأموية التي أرسى قواعدها بالأندلس عبدالرحمن الداخل، وأقام الناصر صرحها شامخاً مهيباً، يرد بهيبته وشموخه بصر العدو كليلاً محسوراً.

حتى أهل الوليدة أنفسهم، لم يروا فيها أكثر من طفلة سيئة الحظ، تأخر بها مولدها فلم تشهد عصر عزة أجدادها ومجد أسرتها، فجاءت بها الأيام ولم يبق من ذلك الملك الشامخ العريض

---

* العدد -16 مارس 1960

** أكاديمية من مصر.

غير ذكريات وعبَر، فكأنها وكأنهم أحلام.

وتفتَّح صباحاً وما من أحـــد يرجوها لخير أو ينتظر لها غداً، ومن أين يأتيها الخير وهي تنزع بميراث الأبوة إلى والد لم تعرف له أموية الأندلس مثيلاً في شناعة جهله وبشاعة فجوره وضعة نفسه وسقم ســـره وعلانيته؟! وأي غد يرجى لمثلها وقد خسف بنو حمود بأمراء بيتها، فلم ينجُ من محنة النفي أو التشـــرد أو الاعتقال والقتل، غير أبيها الذي أعفي من الاضطهاد احتقاراً لأمره وهواناً به على الاعتقال؟

وانزوت هناك... في البيت الفقير الخامل المنبوذ تجتر ذكريات المجد الذي راح، وتقرأ من تاريخ أجدادها ما طواه الدهر، وتصغي مبهورة إلى أصداء شجية، من تلك القصائد والأغاني التي رجَّعتها قيثارة الزمن لبني أمية بالأندلس، حين كانت الدنيا لهم، وتفر من تعاسة دنياها إلى حيث تخلو بالأطفال الحزينة التي مازالت تحوم حول الربوع المهجورة، وتطوف بأطلال المجد الغابر.

غير أن هذه الخلوة لم تكن لتسلم لها كلما أرادت، فلطالما أزعجتها عنها صيحات الثائرين وصراخ المغلوبين من أهلها، فتشدها من مكانها إلى دوامة الأحداث حتى إذا سكنت الضجة حيناً، أوت الصبية إلى مخدعها ممزقة الأعصاب مصدعة الكيان، تحاول بكل ما بقي لها من جهد أن تلم رؤاها وتخلو إلى كتبها وأطيافها، فلا تكاد تفعل، حتى تعود الضجة من جديد، فتجذبها إلى المسرح الدامي. حتى تشابه الأمر عليها، فما عادت تدري أفي يقظة هي أم تلك رؤيا منام. وفي إحدى المرات، كان المشـــهد أبشع من أن تحتمله: لقد رأت غلمان قصر الخلافة يخرجون بطشت فيه رءوس ثلاثة غارقة في الدم ولم تستطع من مرقبها النائي أن تميز ملامح الرءوس التعسة، حتى نادى المنادون أنها للخليفة سليمان الثاني، وأبيه سليمان بن عبدالرحمن الناصر وابنه عبدالرحمن، صرعهم جميعا علي بن حمود في مجلس واحد، اقتحم القصر عام 405

هجرية وصرخت الصبية المسكينة تنادي أباها، فضاعت صرختها مع الريح، دون أن تبلغ سمع أبيها الذي كان عاكفا على كأسه، قد أعفى نفسه مشقة التفكير في ما كان وما سوف يكون، وأبعد عنه أشباح أهل بيته الذين يسومهم بنو حمود سوء العذاب!

ومن أعماق يأسها هتفت: أين أنت يا عبدالرحمن، لكن صدى صوتها ارتد إليها ذبيحاً ممزقاً.

فعبدالرحمن الذي هتفت باسمه ليرد إليها قواها الضائعة، قد اختفى من قرطبة كلها والتمسه أعوان ابن حمود، فلم يقفوا له على أثر.. ولم يكن في بني أمية إذ ذاك، من يخشى ابن حمود خطره، غير ذلك الفتى الطامح الذكي، عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار الناصري، الذي عرفته قرطبة، زينة فتيانها كياسة وظرفاً وكرم نفس وعلو همة!

وهذا هو قد مضى.. بلا وداع.

ثم لاح شعاع نحيل من الضوء، كأنه مشعل حزين أضاءه الزمن في حلكة ذلك الليل، ليسجل مشهد احتضار الدولة الأموية بالأندلس.

وعلى ضوء ذلك الشعاع، شهدت قرطبة فتاها عبدالرحمن يدخلها مستخفياً بعد سنين من التشرد والاغتراب، وكان سلطان بني حمود قد وهى وآذن بزوال، فلم تك إلا أشهر معدودات، حتى بويع عبدالرحمن بن هشام بالخلافة، ودخل قصر آبائه في شهر رمضان سنة 414، في غفلة من الدهر.

وأهلّ عيد الفطر فوقفت قرطبة كلها خاشعة، ترنو مبهورة إلى الأميرة «ولادة» إذ تظهر في قصر الخلافة لأول مرة، بارعة الحسن، ساحرة الطرف، تخطف بسنا جلالها الأبصار!

وعجبوا لها! أتكون هذه بنت محمد بن عبدالرحمن؟ كيف تخلف قانون الوراثة فيها، فلم تأخذ عن أبيها غباء عقله، وضخامة جسمه، وبلادة حسه؟

ترى، هل بلغ من هوانه على قانون الوراثة نفسه أن أسقطه من حسابه، وتخطى بابنته «ولادة» إلى أجداد لها كرام عظام؟

أو أن ميراث الأمومة فيها غلـــب ميراث الأبوة، لفرط تفاهته وضآلة أثره؟!

غير أن الشعاع، سرعان ما انطفأ!

ثار الثائرون بالقصر، فاستغاث الخليفة المستظهر بالله (عبدالرحمن بن هشام) بوزرائه وجنده، فلم يغثه منهم مغيث. وأسرع إلى جواده، وهمَّ بالخروج من القصر، فحيل بينه وبين النجاة، هنالك ارتد على عقبه، وترجل عن فرسه، واختفى في مخبأ بحمام القصر، فعاث الثوار بدار الملك وسبوا نساءه، وحملوهن إلى منازلهم علانية!

وكانت «ولادة» ترقب الأحداث غير بعيدة، فما ارتابت في أن ذلك آخر العهد ببني أمية وهذا الفتى المرجو فيهم، الذي جاد به زمان بخيل، يوشك أن يلقى مصرعه!

ثم ما راعها إلا أن هتف الثوار باسم أبيها! لكنها كذبت سمعها ولم تستطع أن تصدق! فأبوها أضعف من أن يشارك في أمر جاد، وأهون من أن يطمح ببصره إلى الخلافة أو ما دون الخلافة، وما عرفت عنه - وهي أدرى الناس به - إلا التعطل والبلادة والخواء والخمول!

ولكن يا ويلها! هذا أبوها بشحمه ولحمه يمضي إلى دار الملك مبهوتاً ثقيل الخطو... ولم تكذب بصرها هذه المرة بل أصغت بكل جارحة فيها إلى النبأ المذاع: قتل المستظهر على رأس ابن عمه، وأعلنت خلافة محمد بن عبدالرحمن، ولقب بالمستكفي بالله!

وكاد القهر يقتلها، وهي ترى أباها الخليفة، يسلم أمره إلى بنت ســـكري المرورية، الغانية اللعوب، ويبيح لكل من شاء، أن يتلقب بما شاء ويأخذ ما شاء من مراكز السلطة ووظائف الخلافة كيما يفرغ هو لشهواته، ويخفف من أعباء الحكم!

ولم تعجب ولادة حين جاء أهل قرطبة، في ربيع الأول ســـنة

416، فخلعوا ذلك الخليفة المأفون الذي «لم يجلس في الإمارة أسقط منه ولا أنقص!».

وتركوه، وكأنما استكثروا عليه أن يقتل أو يعتقل.. وولوا عليهم أحد العلويين ثم خلعوه هو الآخر، وبايعوا أبابكر بن هشام بن محمد الأموي، فكان ذلك آخر عهد الأندلس ببني أمية!

طرد أبو بكر بعد عامين، ونادى المنادي (في أسواق قرطبة وأرباضها، ألا يبقى رجل من بني أمية بها، ولا يتركهم عنده أحد).

وبقيت ولادة في قرطبة وقد أعفتها أنوثتها من الإخراج والتشريد.

بقيت، لترى في ربوع الزهراء لمحة مستعارة من بهاء المجد المطوي، وذكرى حية للأسرة القرشية العريقة التي كتبت للعروبة والإسلام، تاريخاً أغرّ في ذلك المغرب البعيد.

وطوت ولادة في أعماقها ذلك السجل المشحون بالفواجع والأمجاد، وخرجت إلى المجتمع بادية الزهو بشبابها الناضر وحسنها الباهر، ونسبها العريق الكريم.

وكتمت شجوها وهي ترى قرطبة التي أشبعت أهلها قتلاً وتشريداً، تصطفيها ملكة غير متوجة.

ووقف التاريخ يرقب هذه الغادة الأموية على عرشها الفريد، تنحني لها جباه الوزراء، ويرتل لها الشعراء آيات الضراعة والولاء.

وعاد من جديد، ففتح كتاب بني أمية - وقد ظن أنه فرغ منه - ليضيف إليه صفحات غراء، لأزهى عصر أدبي في الأندلس، كانت ولادة صاحبته وصانعته وملهمته.

ومن جديد، عادت معازف قرطبة تغني لبنت المستكفي:

ودّع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن
زاد في تلك الخطا إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنى

حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلي فلكم

بت أشكو قصر الليل معك!

وعاشت غادة قرطبة حياتها الحافلة، وأمهلها الأجل طويلاً حتى أملت على التاريخ الأدبي ما شاءت أن تمليه.

ثم مضت، وتركت في سمع الزمان دوياً.

تركت قصة حياتها المثيرة، وأخبار مغامراتها الحائرة، وشعرها الجريء، وديوان ابن زيدون ورسالته الهزلية التي كتبتها إلى الوزير أبي عامر بن عبدوس، حين رنا ببصره إليها، وتطاول إلى منافسته في حبها.

وتركت طابعها، وظلها، وأثرها، في التاريخ السياسي والأدبي لقرطبة، طوال نصف قرن.

وحار المؤرخون في أمرها، وبدت لهم حيناً ممتنعة بجلال نسبها وعزة جمالها وطهرها، وآخر مبتذلة مستهترة سهلة الحجاب، مجاهرة باللذات.

وهذا ابن بسام يقول فيها: «كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر.

وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصير، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة محضرها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب، على أنها - سمح الله لها وتغمد زللها - أوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها..».

ولم يحاول أحد منهم - فيما أعرف - أن يفسر هذا التناقض في سلوكها، أو يلمح وراء ظاهرها المرح، سرها المطوي المضمر.

لم يحاول أحد، أن يربط تاريخها بمأساة أبيها ومصارع آلها، أو يجد في شخصيتها ما يلقي ضوءاً على ما بدا لهم من استهتارها وعدم مبالاتها بالأوضاع والأعراف!

ولو حاولوا، لبان لهم أن حياتها هكذا، لم تكن إلا أثراً طبيعياً محتوماً للصراع العنيف بين قوة شخصيتها وشناعة ظروفها!

لقد شهدت ما شهدت من مآس وفواجع، وقرأت ما قرأت من أمجاد أسرتها، وكانت ذكية القلب والعقل، راشدة المدارك، مرهفة الحس، واسعة الأفق، عميقة الثقافة.

لكنها كانت أنثى، والأنوثة عجز.

وكانت بنت «المستكفي» الذي بلغ من ضعة نفسه أمام خسف بني حمود بأهل بيته، أن «استجاز طلب الصدقة، وراح يطوف بالفلاحين أوان ضمهم لغلاتهم، يسألهم أن يعطوه من زكاتها!».

وما كان لمثلها أن تطمع في تاج أسرتها، وبينها وبينه أنها أنثى، وأنها بنت المستكفي الذي كانت أيامه كلها شؤماً على بيته، وعلى العرب والإسلام جميعاً!

وتحت وطأة ذلك الصدام العنيف بين أنوثتها الذكية وظروفها التعسة، كان اليأس المر يداريه المرح الظاهر والبهجة المصطنعة، والسخرية بالأوضاع اللئيمة التي ضنت عليها بكرم الأبوة ونعمة الاستقرار، ومجد الإمارة، ثم لم تبخل بقلوب العشاق، وعقول المفتونين من الكبراء والوزراء.

ويقال إنها أحبت ذا الوزارتين، أمير الشعراء أبا الوليد بن زيدون، ثم هجرته لما سجن واغترب وأحبت الوزير أبا عامر بن عبدوس، وما أحبت هذا ولا ذاك، ولا كان لها قلب يصلح للحب بعد كل الذي شهدت من فواجع وكابدت من محن، ولو كان في طاقة بشريتها أن تستبدل بقلبها المزق الجريح قلباً سليماً خالياً، لأعيا بشريتها بعد ذاك أن تجعل من هذا القلب، مأوى لابن زيدون وقد كان من أقطاب الثورة التي أطاحت بعرش آبائها، وشردت

رجالها، وروعت صباها، وسلبتها عزة حجابها!

وابن عبدوس! كيف يخطر بباله أن تستجيب لحبه، ومسامر قرطبة تتندر بكلمتها فيه، حين مرت به يوماً وقد نشر كميه ونظر في عطفيه وحشـــر أعوانه إليه، فنقلت بصرها بينه وبين بركة آسنة أمام داره، ثم قالت له أبا عامر:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا، فكلاكما بحر!

وتركته لا يحير حرفاً، ولا يرد طرفاً.

كلا.. إنما هو اليأس الكافر أغراها بأن تسخر بالأوضاع وتلهو بأقطاب العصر والأوان، وتتسلى بمرآهم وهم يتساقطون صرعى سحرها، ويتضاءلون أمام سلطانها، ويذوقون بسببها وعلى يديها بعض ما ذاق رجالها من كيد الوشاية ولؤم المؤامرة، ومحنة الاعتقال والتشريد!

وحين كان ابن زيدون يجرع في سجنه، أو في منفاه غصص القهر والحرمان، ويبعث إليها لوعة وأسى وحنيناً، كانت هي في نديها الحافل بقرطبة، تمارس لعبتها المفضلة، وتصغي - في اشتفاء - إلى جواريها وهن يغنين من شعر ابن زيدون فيها:

أضحى التنائي بديلاً من تَدانينا
ونابَ عن طيب لُقْيانا تجافينا
بنْتُمْ وبنَّا فما ابتلَّتْ جوانحنا
شوقًا إليكمْ ولا جَفَّت مآقينا
نكاد حين تُناجيكُم ضمائرُنا
يقضي علينا الأسى لَوْلا تأسّينا
حالتْ لفقدكُمُ أيامُنا فَغَدتْ
سُودا، وكانتْ بكُم بيضًا لياليا
لسْنا نُسَمّيك إجلالاً وتكرمةً
وقدرُكَ المُعتلي عن ذاك يُغنينا

يا جنَّة الخُلد أبدلْنا بسَلْسَلها
والكوثر العذْب زقُّومًا وغسلينا
إنّا قرأنا الأسى عند النَّوى سُورا
مكتوبة، وأخذنا الصَّبر تلقينا
لم نجف أفْق جمال أنت كوكبه
سالينَ عنهُ، ولم نهجره قالينا
ولا اختيارًا تَجنَّبناه عَن كثب
لكنْ عَدَتْنا على كرْهٍ عوادينا
لا أكؤس الرَّاح تُبدي من شمائلنا
سيما ارْتياح ولا الأوتارُ تُلهينا
وما استَعَضنا خليلاً عَنك يصرفُنا
ولا استفَدنا حبيبًا عنك يسلينا
ولو صَبَا نحْونا من علو مطلعهِ
بدرُ الدُّجى لم يكنْ حاشاك يَسْبينا

وبقي الصدى ملء سمع الزمان، فلم يخرس أبداً وخرجت ولادة من الدنيا، من غير أن تتزوج، وكانت في حساب التاريخ: «غادة قرطبة، التي فتنت الوزراء والشعراء بسحر جمالها وأنس محضرها، أما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها».

لكنها في حساب الحياة: بنت المستكفي وحفيدة الناصر، التي شهدت مصرع آلها واحتضار أسرتها، فجمعت أشلاء ذاتها المبعثرة، وخاضت المعركة بأنوثتها الذكية اليائسة ليصلى نارها أولئك الذين خربوا بيتها ومزقوا حجابها وشردوا رجالها، ولتضيف إلى مجد الأمويين بالأندلس، عصراً أدبياً خالداً هو عصر «ولادة بنت المستكفي»!

المرأة بين تولستوي وتشيكوف *

د. سهير القلماوي **

قصة «العزيزة» من روائع تشيكوف القصصي الروسي الأشهر، وقد ترجمت إلى لغات العالم كلها تقريباً، وترجمت إلى «العربية» أكثر من مرة.

في هذه القصة يتجلى أسلوب تشيكوف القصصي البارع، ذلك الأسلوب المركّز اللماح الذي ينبض بالحرارة من تحت سطحه البارد، ويزخر بالحركة من تحت مظهره الهادئ الأملس. أسلوب يبدو تقريرياً سردياً بسيطاً، ولكنه يحمل في طياته طاقات من العاطفة والسخرية. هذا الأسلوب الذي يقول عنه جوركي «إنني أسمع دائماً في قصص تشيكوف الساخر تلك التنهدات العميقة الهادئة وهي تصدر عن قلب صافٍ رحيم، تنهدات بائسة تشفق على بني الإنسان الذين لا يحترمون جلال الإنسانية ولا يؤمنون بشيء إلا بضرورة أن يطعموا في كل يوم أكلاً أدسم، هؤلاء الذين لا يشعرون في حياتهم بشيء إلا أن يشعروا بخوف العبد أن

* العدد 13 - يونيو 1961

** أستاذة الأدب بجامعة القاهرة

يُقرَع بالعصا».

وقص «العزيزة» أُلفت في فترة حياة المؤلف الذهبية، وهي تعد من العمد التي ترتكز عليها شهرته. وليس يعنينا، في ما نحن بصدده، فنيَّة القصة بقـــدر ما يعنينا رأي المؤلف في المرأة حسبما صورته لنا هذه القصة.

يصور تشيكوف «العزيزة»، واسمها في القصة «أولنكا» امرأة لا شخصية لها، فهي شابة عادية تسمع شكوى «كوكن»، صاحب المســـرح في الهواء الطلق القريب من بيتها، من انصراف الناس عن فنه ومعاكسة الأقدار له فتذوب شفقة عليه وتحبه وتتزوجه. وإذا بها فجأة مرآة لهذا الرجل تردد أقواله وتتبنى مشاكله ولا تكاد توجد إلا به.

ويموت الزوج فتعود «أولنكا» ريشة في مهب الرياح، يبرّح بها الحزن ولا تكاد تجد نفسها.

وبعد ثلاثة أشـــهر كانت خارجة من الكنيسة في ثياب الحداد، فإذا هي تلقى تاجر أخشاب يسير معها ويعزيها، وإذا بها تحلم به وتحبه، ويتزوجان، وتصبح أولنكا صورة منعكسة على المرآة لهذا التاجر. تردد أقواله وتتبنى مشاكله ولا تحيا إلا في عالمه.

واستمرت بها الحال ست ســـنوات تعرفت خلالها إلى طبيب بيطري كان قد اســـتأجر جزءاً مـــن بيتها. وكانت أولنكا بسبب تغيب زوجها التاجر تحس بالوحدة، والبيطري بسبب انفصاله عن زوجته وابنهما يحس بالوحدة هو أيضاً. فتقابلا وتجالسا وتشاكيا من الوحدة، وإذا أولنكا تردد أقوال البيطري. ويعود تاجر الخشب يوماً إلى داره مريضاً ويبأس الطب من علاجه فيمـــوت. وإذا أولنكا مرة أخرى وحيدة قد ترمّلت، ولكنها تعكس آراء البيطري في وضوح وإلحاح حتى يضيق بها ذرعاً، ويأمرها ألا تتحدث في البيطرة التي

تجهلها كل الجهل أمام الناس. ولكن أولنكا تستمر في حنان وحب وسذاجة غامرة تردد أقواله عن سلّ البقر ومشاكل العناية بالحيوان. ويضطر الطبيب إلى السفر يوماً فتحار وتضيع وتعاني الجفاف والبؤس من جديد. ولكن الطبيب يعود ومعه زوجه وابنه الصغير ساشنكا ساشا ذو القبعة العريضة فتغمرهم أولنكا بحبها، وتنزل لهم عن مسكنها ولا تكاد تحتفظ لنفسها إلا بغرفة واحدة صغيرة.

ويحبها الابن، إذ يجد عندها ما افتقد من حنان الأم ورعاية الأب. ومرة أخرى تجد أولنكا لحياتها طعماً، ولإحساساتها ترابطاً وللحياة كلها من حولها تفسيراً ومغزى. وأخذت تردد أقوال ساشنكا وتعنى بأمره وتوصله كل يوم إلى المدرسة لتعود فتحدث الناس عن صعوبة دروس النحو وغموض العلم الذي يعلّم للشبان في المدارس، وتثير شفقتهم بما تشكو من كثرة الدروس وقسوة المعلمين. وتجد هذه العاطفة الأخيرة عندها، عاطفة الأمومة، كل ما يمكن أن تجد من راحة ووضوح وقوة تتجلى إحساساتها في قوة بكل ما فيها من حنان غامر وحب خالص.

هذا ملخص لقصة «العزيزة» في خطوطها العامة وفكرتها الرئيسة يبين كما سنرى رأي تشيكوف في المرأة في زمانه.

ويجب أن نذكر أن هذه الفترة من حياة المؤلف هي التي شهدت في أوربا خاصة حركات تحرير المرأة آخر القرن الماضي وسجلت اقتحام المرأة ميادين العمل ووقوفها إلى جانب الرجل مساوية له أو متفوقة عليه في بعض الأحيان.

وقد أثارت القصة إعجاب القراء من حيث نيتها وصدق تعبيرها، ولكنها أثارتهم أيضاً من حيث دقة السخرية بهذه الفتاة التي لا تكاد تعرف لنفسها قواماً أو كياناً إلا في ظل

من تحب، فإذا بها في ظل الحب تسعد كل السعادة، بل تسعد بأن تكون مجرد مرآة تعكس صورة الرجل في حياتها.

وتناول تولستوي هذه القصة بالنقد. فنقد تشيكوف لا في فنية القصة، فلقد أثارت القصة من هذه الناحية إعجابه العظيم، ولكنه نقدها واعترض عليها من حيث وجهة نظر تشيكوف في المرأة ودورها في الحياة.

يقول تولستوي في هذا النقد إن تشيكوف في موقفه في هذه القصة من المرآة يشبه «بلعام» الذي تروى قصته في سِفْر العدد من الإنجيل في الإصحاح الثالث والعشرين، إذ دعاه الملك «بالاق» ملك مواب ليلعن شعب العدو. فأغرى بلعام بما وعده الملك من خير، وسار من بلده إليه. وفي الطريق أبصرت الأتان التي تحمله ملاكاً حارساً ينهاه عن الرحلة ويقول له أن ارجع إلى بلدك ولا تصغ للملك بالاق. ولكن بلعام لا يرى ما رأت الأتان أول الأمر، ثم يرى، ولكنه لا يتوقف، حتى يصل إلى أرض مواب. وهناك كان الملك قد أعد له الذبائح فوق قمة الجب، فلما نحرت وتصاعد البخور، صعد بلعام قمة الجبل ليلعن أعداء بالاق. فيسخط الملك ويؤنبه كيف طلب لعنته فإذا هو يصدر بركته، فيقرر بلعام أنه لا يمكن أن ينطلق إلا بما أنطقه به الرب. وتتكرر التجربة ثلاث مرات، وفي كل مرة يصعد بلعام الجبل ليلعن أعداء الملك فلا ينطقه الرب إلا ببركتهم.

يقول تولستوي: «وكثيرون هم الكتاب والشعراء الذين تغريهم الشهرة، أو يستبد بهم الخداع بما يروج في مجتمعهم من أحكام فاسدة وآراء خاطئة، فإذا هم مثل بلعام تعمى بصائرهم عن رؤية الملاك الحارس الذي خفي على بلعام ولم يخفَ على أتانه».

ثم يؤكد تولستوي أن هذا هو عين ما حدث لكاتبنا العظيم

تشيكوف، فلقد أريد له أن يهزأ من هذه «العزيزة»، من أولنكا، وأن يسخر من انمحاء شخصيتها ويُضحك منها القارئ.

ولعله في ثنايا نفسه كان ينظر بإعجاب إلى المرأة الحديثة المتحررة، المرأة الناضجة المتعلمة العاملة المستقلة التي تسهم بعملها في المجتمع، المرأة التي لا تفتأ تتحدث عن قضايا المرأة وتحريرها.

لقد أراد تشـــيكوف أن يصور في صورة مضحكة المرأة المتأخرة فحكم بعقله على هذه الساذجة التي تذوب عاطفة وهي تردد كلام صاحب المسرح، فإذا عدم إقبال الجمهور على الفن، صار عدم الإقبال هذا، هو مشـــكلة المشاكل، وفجأة تصبح مشكلة المشاكل أرباح تاجر الخشب ومهنته، وفجأة يصبح السل البقري أهم موضوع وأخطره، وأخيراً تكون دروس الحساب والنحو أهم ما يجب أن يتحدث فيه الناس ويفكروا! لقد أراد المجتمع، كما أراد الملك «بالاق»، أن يصعد تشيكوف إلى الجبل ليلعن المرأة الضعيفة الخاضعة الســـاذجة، ولكن الذبائح نحرت وتصاعد البخور وصعد تشيكوف الجبل، وإذا به مثل بلعام يبارك ما أراد أن يلعن. إن القارئ لا يستطيع إلا أن يشفق على هذه المرأة وأن يحبها لأنها ينبوع حنان وعطف.

ومهما يكن موضوع هذا الحب، مهما يكن من أمر كوكن المضحك، أو تاجر الخشـــب التافه، أو الطبيب البيطري السخيف، أو الطالب الصغير الكسول ذي القبعة العريضة، مهما يكن موضوع الحب، فإن الحب نفسه، وقد فاض في سخاء وحنان وبســـاطة، هو الذي يؤثر في النفس ويثير العطف على هذه التي لم تجد في حياتها المتنفس الطبيعي لحبها كامرأة وكأم.

ويستأنس تولســـتوي بقول كاتب معروف في عصره، إذ

يقول: «أنا لا أناقش في أن المرأة تستطيع أن تقوم بكل عمل يمكن أن يقوم به الرجل، بل إنها قد تتفوق عليه في الإتقان بالنسبة لبعض الأعمال، ولكن الذي لا أشك فيه، هو أن الرجل لا يستطيع بحال من الأحوال أن يقدم للعالم ما يمكن أن تقدمه المرأة.

يقول تولستوي: كم يصدق هذا القول، لا بالنسبة للحمل والولادة وتربية الأطفال، وإنما بالنسبة لعملية الحب في حد ذاتها. هذا الحب المخلص المتفاني الذي يكرّس صاحبه كل حياته في سبيل أن يسعد من يحب. هذا الحب الذي مازالت المرأة الطيبة توليه زوجها وابنها، وأخاها وأباها. ما أتعس العالم لو أن المرأة توقفت عن أن تحب. إن العالم يستطيع أن يستغني في بساطة ويسر عن جهد الطبيبات والمعلمات والمحاميات وعاملات التلفون والكاتبات، ولكنه من دون الأمهات والمواسيات والحانيات على الفقير والمريض، من غير هؤلاء اللاتي يحببن في الإنسان خير ما فيه، من غير هؤلاء، تكاد الحياة على هذه الأرض تكون مستحيلة.

ماذا لو فقد العظيم من أحبته وآمنت به وآزرته؟

ماذا لو فقد المعذبون وضحايا الظلم والاستبداد فكرة أن قلباً واجفاً يدعو الله من أجلهم؟ وأن امرأة ما تتطلع إلى السماء بالدعاء على من ظلموهم؟

ماذا لو فقد البؤساء من كل صنف والأشقياء من كل نوع فكرة أن إنساناً ما قريباً منهم يحنو ويحب؟

وسواء أكان هذا الحب لنبي عظيم أم لكوكن التافه، فإن الحب هو قوة المرأة الحقيقية وميزتها الكبرى وعملها الأعظم الذي لا يمكن لأي عمل مهما سما أن يرقى إلى عظمته.

ويقول تولستوي: إن المغالطة الكبرى التي تسمى قضية المرأة قد ألحت، كما تلح كل فكرة فارغة في أغلب الأحيان،

على عقول الناس في زماننا أن المرأة تريد أن ترقى. ومن ذا الذي يعارض في أن ترقى النســـاء جميعاً؟ ولكن عمل المرأة، لاختلاف رسالتها في الحياة، يجب أن يختلف عن عمل الرجل. والمثل الأعلى للمـــرأة لا يمكن أن يكون هو المثل الأعلى للرجل. وأسلم بذلك. ولكني في أمره واثق من شيء واحد، وهو أنه بلا أي شك ليس المثل الأعلى للرجل بحال من الأحوال. ومع هذا فكل هذه الجهود في زماننا، وخاصة جهود المرأة الحديثة، توجه نحو تحقيق هذا الخطأ العظيم.

ولقد كان تشيكوف في «العزيزة» تحت تأثير هذه المغالطة الكبرى، ولكن آلهة الفن أبت عليه إلا أن يبارك هذه التي أراد أن يلعنها. لقد كســـا هذه المخلوقة الحبيبة بالضوء الذي فجّر لآلاءها، فإذا هي مثل أعلى للمرأة وما يمكن أن تقدم لتسعد نفسها وتسعد من ارتبطت حياتهم وأقدارهم بحياتها وأقدارها.

ولعل جمال القصة يأتي مـــن أن تأثيرها في النفس لم يكن مقصوداً، بل إن خلاف ما قد سعى إليه المؤلف. لقد أراد تشيكوف أن يركل «العزيزة» احتقاراً، فإذا به يرفعها إلى السماكين إكباراً وإجلالاً.

هذا هو رأي تولستوي في المرأة وفي دورها الأعظم في الحياة. وقد انقضى على موت تولستوي أكثر من خمسين عاماً سارت فيها المرأة في كل مجال أشواطاً في اتجاه ما سماه بالمغالطة الكبرى، والرجل في الحياة العملية العامة. ترى أنحن على سواء السبيل؟

ألا نجد بين المرأة التي لا تعرف إلا أن تحب في تضحية وفناء، والمرأة التي لا تعرف إلا أن تكون كالرجل سواء بسواء، صنفاً ثالثاً من النســـاء يدرك، في قوة شـــخصيته وعمق

تفكيره، الدور الحقيقي للمرأة في الحياة؟ امرأة تستطيع أن تعمل دون أن يكون الرجل مثلها الأعلى، وتستطيع أن تحب وتحنو فتؤدي دور المرأة الحق في هذا المجتمع الفائر النامي الذي نعيش فيه. أيمكن للمرأة أن تقتصر على دور الحب والحنان في مجتمعنا المفتقر إلى كل جهد؟ أيمكن للمرأة أن تحتفظ بطاقات الحب والحنان إذا هي خرجت إلى معترك الرجال؟ أيكفي في حب الرجل والابن أن تكون المرأة في سذاجة «أولنكا» وانمحاء شخصيتها ودورها في الحياة يتطلب الخبرات؟

مشاكل وأسئلة... ترى أين نحن؟ وهل نحن العربيات حقاً على الصراط المستقيم؟

الصحافة النسائية العربية
فجرها: من عام 1890 إلى عام 1920 *

خالدة سعيد **

لمعت، منذ القرن التاسع عشر، أسماء نسائية كثيرة، في المجالات الأدبية والاجتماعية والعلمية، فعرف العالم العربي شاعرات وأديبات كفاطمة الأسعد، ومريانا مراش، ومي زيادة، ووردة الترك، وزينب فواز، وكريستين خوري، وجوليا دمشقية، ووردة اليازجي. كانت هذه الطلائع بداية ظهور المرأة في الميدان الاجتماعي.

وظهرت في هذه الأثناء كتابات تحمل طابعاً تعليمياً وتوجيهياً، كالدعوة لتعليم المرأة، والدفاع عن منزلتها الاجتماعية والمطالبة بحقوقها، مما أثار في الأذهان قضية اجتماعية بدأت تتجلى على ضوء المنطق بعد أن وجهت الأنظار إليها مثل تلك الكتابات.

هذه الحركة، وإن كانت على مستوى النشاط الفردي، إلا أنها كانت المرحلة الأولى لمشاركة المرأة في مجالات الخدمة العامة.

وكان لابد للخطوة التالية من أن تكون أكثر إيجابية وأكثر فاعلية ومشاركة. وهكذا تمثلت هذه الخطوة في الصحافة النسائية.

---

* العدد 35 - اكتوبر 1961

** كاتبة من بيروت

ومَن يستقصي الظروف التي نشـــأت فيها الحركة الصحافية النسائية لا يملك إلا الدهشة والإكبار للشجاعة والمواهب والإرادة التي رافقت هذه الحركة في مطلعها بالرغم من العقبات الكثيرة التي اعترضتها. من هذه العقبات البيئـــة المحافظة، وقلة عدد القارئات، بالإضافة إلى المصاعب الخاصة بكل مجلة أو صحيفة على حدة.

هذه الصحف والمجلات أفسحت المجال للأديبات لنشر نتاجهن، كما كانت مصدراً ثقافياً رئيساً للناشئات آنذاك، فضلاً عن أنها حملت لواء قضية المرأة التي كانت من ظواهر النهوض الاجتماعي، وكانت حافزاً كبيراً لطموح الفتيات ومشجعاً لمواهبهن.

أشرق فجر الصحافة النسائية العربية من لبنان، ثم من سورية بدرجة أقل، وانتشر في البلدان العربية وفي مصر خاصة... إلا أن لبنان لم يكن مهداً لأول صحيفة نسائية عربية، بل كانت مصر مهدها الأول. لم تكن البيئة الاجتماعية في لبنان مشجعة لظهور مثل هذا الأمر، بالرغم من أن لبنان كان في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين منبتاً لنوابغ النهضة رجالاً ونساء، الذين هاجر بعضهم إلى أمريكا ومصر.

المجلة النسائية الأولى

المجلة النســـائية العربية الأولى ظهرت في مصر عام 1893، أصدرتها آنسة لبنانية من طرابلس هي هند نوفل ابنة نسيم نوفل الطرابلسي، التي أصبحت فيما بعد زوجة حبيب بك دبانة. صدرت المجلة باسم «الفتاة» وكانت مجلة شهرية تعنى بالشؤون العلمية والأدبية والتاريخية وبالفكاهة. وقد اعتبر صدورها آنذاك حدثاً مهماً جديداً حتى أن جرجي زيدان قال بهذه المناسبة:

«إن مجلة «الفتاة» جمعت لطف المرأة ونشاط الرجل، ووضعت حجر الأســـاس في زاوية البناء لهذا الفن، وجرّأت غيرها على

الإقدام عليه».

وبالفعل تتالت بعد هذا الحدث، المجلات النسوية بكثرة مدهشة حتى تجاوز عددها الخمس عشرة في غضون سبعة عشر عاماً.

مجلة نصف شهرية

بعد ظهور مجلة «الفتاة» بثلاث سنوات أي عام 1896 ظهرت في القاهرة مجلة نسائية أخرى نصف شهرية. لكن، لم يكن لها شمول «الفتاة» لأنها اقتصرت على الشؤون العائلية وأخبار الأسر اللبنانية في مصر. عُرفت منشئتها باسم «مريم مزهر»، ثم اتضح أنه اسم مستعار للأديب اللبناني سليم سركيس.

مجلة أنيس الجليس

المجلة التالية كانت أكثر نضجاً، وقدّر لها أن تكون أكثر استمراراً وأوسع انتشاراً. ذلك أن هذا الفن كان قد أصبح أكثر رسوخاً وأوضح أهدافاً. فكانت مجلة «أنيس الجليس» التي ظهرت في الإسكندرية بعد خمس سنوات من صدور «الفتاة» أي عام 1898. أما مؤسستها فهي افرينوا قسطنطين الخوري اللبنانية والتي عرفت بالزواج باسم البرنسس افرينوا فيز نيوسكا. وكانت توقع في المجلة باسم ألكسندرة افرينوا.

وتتالى مجلات

وتتالت المجلات بعد ذلك بتتابع أسرع، وظلت مصر مركزاً للصحافة العربية عامة واللبنانية خاصة حتى ما بعد سنة 1910. فظهرت في القاهرة عام 1899 مجلة «العائلة» وكانت علمية أدبية نصف شهرية على يد السيدة استير أزهري زوجة شمعون بك مويال وهي فلسطينية الأصل. ثم مجلة «شجرة الدر» الشهرية التي ظهرت في الإسكندرية عام 1901 وكانت علمية أدبية فنية،

أنشأتها الأديبة سعدية سعد الدين.

وفي السنة ذاتها صدرت مجلة «المرأة» في القاهرة على يد السيدة أنيسة عطا الله، وكانت مجلتها علمية فكاهية. وفي العام التالي أي سنة 1902 ظهرت مجلة «السعادة» على يد الآنسة روجينا عواد، وكانت مجلتها علمية تهذيبية تاريخية فكاهية نصف شهرية.

وفي عام 1903 صدرت مجلة «السيدات والبنات» وهي عائلية أدبية فكاهية أسستها روزة أنطون شقيقة الأديب اللبناني المعروف فرح أنطون.

مجلة فتاة الشرق

وبعد ظهور مجلة «السيدات والبنات» بثلاث سنوات، أي سنة 1906 ظهرت مجلة «فتاة الشـــرق» للســـيدة لبيبة ماضي هاشم الشاعرة والخطيبة التي لقّبت بـ«مدام دي ستايل»، والتي عيّنتها حكومة سورية عام 1919 مفتشة معارف، فكانت أول سيدة عربية ترقى لهذا المنصب. أما مجلتها، فقد استمرت في الصدور أكثر من ثلاثة عشر عاماً، وكانت أدبية تاريخية روائية شهرية، لمعت على صفحاتها أسماء مشاهير الأدباء كخليل مطران وغيره. وقد افتتحت مجلتها بتقليد أدبي، إذ رصدت جائزة مالية لتأليف رواية صغيرة فكانت من حظ الشـــاعر خليل مطران. وكان من ارتفاع مستوى هذه المجلة واستمرارها أن وزارة المعارف المصرية أوجبت على مدارسها الاشتراك فيها. ومما يجدر ذكره أن السيدة لبيبة هاشم قد دعيت من قبل الجامعة المصرية لإلقاء محاضرات في التربية. وقد قال فيها الشاعر اللبناني شبلي ملاط:

ما حُسنُ شيرينَ والأحبابُ تعبده
وعرشُ بلْقيسَ والأسيادُ تَرعاه
أعزَّ مـن قلـم مـاض تحرّك
يـدُ اللبيبـة والآدابُ ركنـاه

مجلة الريحانة والجنس اللطيف

بعد عام واحد من ظهور «فتاة الشرق» ظهرت مجلة «الريحانة» في القاهرة عـــام 1907 لصاحبتها جميلة حافــظ، وكانت أدبية تاريخية قصصية شــهرية. وتلتها مجلة «الجنس اللطيف» عام 1908 لصاحبتها ملك سعد.

وفي الجزائر

وفي الجزائر ظهرت مجلة «الأحياء» عام 1907 وكانت إسلامية أدبية إخبارية أصدرتها الآنسة ديريو وهو الاسم الذي كانت توقع به في المجلة.

وفي لبنان

وبعد عام 1910 بدأت الصحافة النسائية العربية تتسرّب إلى لبنان. كما بدأت المرأة تقتحم ميدان الصحافة السياسية. فهذه الآنسة سليمة أبي راشد تتولى رئاســة تحرير جريدة «النصير السياسية» التي كانت تصدر في بيروت مدة سنتين أثناء غياب أخيها صاحب الجريدة، ولما تركت مسؤولية جريدة النصير عادت فأسست مجلتها النسائية «فتاة لبنان» قبل نشوب الحرب الأولى الكونية. وقد جاء في مقدمة العدد الأول:

«وبكل أســف نقول إن النهضة التي تناولت كل الأسباب الآيلة إلى ترقية الأمة والبلاد، لم تتناول بجد واهتمام خاص موضوع النسائيات». وهكذا يتضح هدفها من إصدار المجلة ألا وهو المساهمة في نهضة البلاد من زاوية جنسها. وقد حالت الحرب دون استمرار صدور هذه المجلة.

وبعد أن توقفت المجلات النســائية عن الصدور أثناء الحرب عادت إلى الظهور بعد انتهائها. فظهرت في بيروت في مطلع عام 1919 مجلة «الفجر» وكانت أخلاقية تهذيبية شهرية لصاحبتها

الأميرة نجلاء أبي اللمع. وقد نشرت هذه المجلة لمشاهير الأدباء كجبران والرياشي وحتّى وبشارة الخوري والبستاني. وتلت هذه المجلة مجلة «الخدر» التي صدرت في الشويفات لصاحبتها عفيفة صعب. وهي أديبة لمع اسمها في سن مبكرة وكانت مجلتها تحمل رسالة السفر والتعليم.

وفي دمشق

هذا بالإضافة إلى مجلة «العروس» التي أصدرتها ماري عجمي في دمشق، وإلى عدد من الأدبيات تولين تحرير الأبواب النسائية أو الأدبية في الجرائد والمجلات الأخرى. ثم المجلات النسائية التي أصدرها الجنس الآخر وخدمت قضية المرأة كـ«الحسناء» لجرجي نقولا باز و«المرأة في الإسلام» لـ«إبراهيم رمزي».

تميزت هذه المجلات جميعها، من أواخر القرن الماضي إلى آخر الربع الأول من هذا القرن، بالطابع التوجيهي التهذيبي، وبكونها حملت رسالة الحض على تعليم المرأة والإلحاح في سمو منزلتها والمطالبة بحقوقها وبضرورة تخليها عن الحجابين المادي والاجتماعي. هذه المعركة وإن تكن قد استمدت بعض أركانها من الغرب، إلا أنها في الوقت ذاته كانت منطلقة بدوافع قومية محضة تحاول أن تساير حركة النهضة التي ظهرت في البلاد منذ أواخر القرن التاسع عشر. ويمكن القول إن هذا الإقبال السنوي على العلم والعمل الذي نشهده اليوم مدين إلى حد كبير لتلك الحركة المباركة التي غذتها الأقلام، والجهود النسائية قبل خمسين عاماً.

عاشقة في معبد *

سنية قراعة **

همهمة حيرى... وهمسة شـــادية حنون... سرت مع النسائم في جوانب الكون الطروب.

وتساءلت الكائنات:

لمن الترجيعة الحلوة... كأنها لمسات الهوى تلعب بأوتار القلوب؟

وتحدث الورد إلى النرجس...

ولثم البنفسج جبين الياسمين.

وتألقت قطرات الندى على بســـاط الخضرة كحبات الماس.

ومال الغصن على الغصن يساره ويناجيه.

وحوّم الكروان حول النجم يبوح له بسر الليل الغامض، وينشده أعذب ترانيمه.

---

* العدد 80 - يوليو 1965

** كاتبة من مصر

واستحال الليل ومن فيه آذانا، راحت تنصت إلى الهمسة الحيرى وهي تتعالى قوية في حنان.

واستنار المعبد الغارق في سواد الليل بومضات نورانية.

وطافت به أرتال الملائكة وجموع الحور في مواكب. كان الحب حاديها ومرشدها.

ومن جوف المعبد كانت تتعالى ترتيلة ناعمة، ونجوى فيها صمت الليل وأريج الورود.

وأنصتت الكائنات إلى إيقاع لحن قدسي، فيه أنين قلب يحترق، وصراخ روح حائر!!

ورقصت عرائس الأفق وتمايلت مع عذب النغم.

ورفعت الفاتنة نحو السماء عينين بين شاطئ أهدابهما كان يضطرب سيل من الدموع.

وقال البنفسج للياسمين:

مالها والبكاء؟! ما للشجن وقلب هذه العذراء الطاهرة.

- إنها تحب!! وكم أشقى الحب من قلوب!!

وعلا صوت الكروان يقول:

وما للعشاق والمعابد... وهم أهل الهوى والخيال العذب.

إنهم يعيشون في جنّات من الوعود والضحكات؟!

وهمس الورد للبنفسج:

وهل الحب غير عبادة في محراب الحسن، وصلاة أمام مذبح الفتنة وسحر الشباب؟!

وسارع النرجس يقول:

بلى! وإنه لعبادة تقرب من الخالق... إنه دين جاء قبل الأديان، وعبادة سبقت شتى العبادات، وعقيدة جمعت الوحدانية في صورة مقدسة!

وضرب الكروان الهواء بجناحين، وعلت ترجيعته ثانية، وهو يقول:

سمعتهم يقولون إنه سر الشقاء!!

وابتسم النجم ليقول لسميره ومؤنسه:

إنه رسالة السماء التي تنوء بها القلوب!

إنه نار مقدسة تصهر النفوس، لتذيقها بعد الجحيم حلاوة النعيم!

وعلا صوت العذراء من جديد.

يا للترنيمة العذبة... جمعت الزفرات والأنين، وأطياف الأماني، وظلال الآمال!

وأنصت الكون الهاجع أسكرته النجوى ليسمعها وهي تقول:

إلهي! املأ بحبّه قلبي! واجعله قويـاً كالموت، طاغياً كالصاعقة، جبّاراً كالرعد، متدفقاً كالسيل، صخّابا كالموج، طاهراً كقطرات الندى، نقيّاً كماء الينبوع! واجعله لي ديناً بعد دينك، وإيماناً بعد إيماني بك!

واهتزت جدران المعبد خاشعة.

وعلت الترنيمة الحارة نحو سدرة المنتهى!

وهدأت النسائم... وسكن الليل...

وتحدث الـــورد إلى النرجـــس، ولثم البنفســـج جبين الياسمين.

وملأت الكون ترجيعة الكروان وقد راح يردد أنشودة الحب... بلحن جديد!

مع الكاتب الروسي الشهير بُشكين *

د. حياة شرارة **

في روايته (إفجيني أنيجين)
هي تصوير للحياة الروسية في القرن التاسع عشر ذلك الذي مهّد للقرن العشرين وكبير أحداثه

سار الأدب الروسي في القرن التاسع عشر بخطوات مطردة في تطوره وازدهاره ونمائه. ولم يعان من التأخر الذي كانت تعانيه روسيا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، بل نما نمواً سريعاً بحيث احتل في فترة وجيزة مكانة مرموقة لا على الصعيد الروسي فحسب، بل على الصعيد العالمي أيضاً.

وقد كان للنخبة الروسية من أهل الفكر أهمية بالغة ومكان فريد في التعبير عن آمال الأمة وطموحها. فهي تختلف في هذا المضمار عن أمثالها في الغرب بأن لعبت دوراً رئيساً في الكشف عن العيوب والنقائص والآفات الاجتماعية التي تنخر الحياة الروسية وفي مقدمها النظام الاستبدادي الذي كان

---

* العدد 164 - يوليو 1972

** كلية الآداب - جامعة بغداد قسم اللغات الأوربية

يمسك المجتمع بيد من حديد ويخنق أنفاسه. ولم يلتفت الكتّاب فقط إلى تطوير هذا الواقع المر، بل اهتموا بالبحث عن طريق الخلاص منه، وقد كانت لهم آراء ومعتقدات متباينة في إنقاذ روسيا وتخليصها من الحياة المظلمة التي كانت تعيشها.

يحتل بشكين Pushkin (1799–1837) مكاناً كبيراً في الأدب الروسي، ويعتبر أباه بحق، وواضع حجر الزاوية في صرحه الشامخ. إنه كما يقول ب.بورسوف «على الرغم من أن ولادة الأدب الروسي تعود إلى القرن الثامن عشر، فبشكين هو أول من صوّر روسيا والإنسان الروسي في خصائصهم القومية وفي ارتباطهم بتطوّر البشرية العام»، ولبشكين فضل كبير في تطوير اللغة الأدبية وإعطائها طابعها القومي وفي خلق أنواع وأشكال أدبية جديدة وعكس الصفات والسمات الخاصة بالفرد وتبيان الخصائص الوطنية والطابع القومي للحياة الروسية.

يعود لبشكين الفضل في تطوير الرواية الروسية الواقعية، وخلق إطارها الفني المحدد ومضمونها القومي الغني. وقد استطاع أن يقوم بدور مهم في هذا المضمار لأنه عاش في عصر آخر غير العصر الذي عاش فيه أسلافه. وقد تهيأت للرواية الروسية في مستهل القرن التاسع عشر الأجواء نفسها التي نمت فيها الرواية الأوربية الغربية. فمن الواضح أن الرواية الأوربية وجدت أرضاً خصبة لنشوئها في ظروف الثورات العاصفة والانقلابات الاجتماعية الهائلة التي هزت أوربا لفترة طويلة، كثورة كروميل في إنجلترا، والثورة الفرنسية والثورة الألمانية. وقد زعزعت هذه الثورات أركان المجتمع وقلبت الحياة القائمة، ولقي هذا الانقلاب الاجتماعي صداه في الأدب والفن والموسيقى. فظهرت الرواية لتعبّر عن الإنسان الأوربي وتصوّره في حياته الجديدة، وتبيّن آماله ومطامحه ولتظهر الهزات العميقة التي تعرض لها المجتمع بمختلف طبقاته من خلال

حياة الإنسان العادي.

لقد حدث شيء شبيه بذلك في روسيا خلال القرن التاسع عشر. فبعد حملة نابليون عام 1812 وفشلها تزعزعت العلاقات الاجتماعية، وبدأ التفكك يسري في أوصال النظام الاستبدادي وأخذ الانقسام الطبقي يتبلور أكثر فأكثر، وطفق الصراع مع النظام القيصري يبرز إلى الوجود بشكل واضح جلي. وجاءت انتفاضة الديسمبريين التي أعدت لها جماعة من النبلاء الأحرار تعبيراً عن التغيرات الاجتماعيـــة والفكرية التي طرأت على الحياة الروسية.

إن قمع الانتفاضة وإعدام خمسة من قادتها ونفي الآخرين إلى سيبيريا لم توقف الهزة العميقة التي تعرض لها المجتمع.

جاءت الرواية الروسية لتعكس هذا التخلخل الذي تسرّب إلى أوصال المجتمع والذي أخذ بالازديـــاد والتصاعد. وكان لابد للأديب أن يصوّر مشاعر الفرد وعواطفه وأفكاره مرتبطة بالأرضية الاجتماعية وبالعصر الذي يعيشه، أي لم يعد ممكناً تصوير الإنسان منعزلاً عن محيطه وعائشاً في عالم من الوحدة والأحلام والآمال التي لا تمت بصلة إلى الواقع. إن التصوير الرومانتيكي لحياة الفرد الذي كان سائداً في ذلك الوقت لم يعد يفي بالغرض. إذ أصبح إظهار الجوانب المختلفة التي تشد الإنســـان إلى أرضه أمراً ضرورياً تطرحه متطلبات العصر ومقتضياته.

وقد أرسى بشكين أسس هذا الأسلوب الأدبي الجديد، وكانت روايته «أفجيني أنيجين» Evgeni Onegin فتحاً مهماً في هذا المضمار. ولذلك استقبلها النقّاد بحرارة وباهتمام كبيرين.

فقد أدركوا عناصر الإبداع الفنـــي والمضمون الاجتماعي الجديد الذي تنطوي عليه الرواية. لأنها طرقت أبواباً كانت شبه منسية في الأدب الروسي وفتحت أمام هذا الأدب آفاقاً

جديدة للازدهار والنمو والتفتح. ويقول الناقد غ.غوكوفسكي بهذا الصدد: «إن رواية بشكين تفيض بالتفاصيل البيئية وملامح المرحلة التاريخية في سماتها اليومية. إنه يعطي لوحة لروسيا عام 1820 ولتقاليدها ونظام الحياة فيها وثقافتها وعاداتها بغنى لا نظير له سواء في الشعر أو النثر».

لقد أدرك بشكين أن كتاباته الرومانتيكية السابقة لم تعد قادرة على تطوير أسلوبه الأدبي أو نقل الواقع الذي يريد تصويره على حقيقته، وأحس بضرورة الكف عن الكتابة حول ذات الإنسان وآلامه وأشجانه، والانتقال إلى العالم الأرحب الذي يحيطه والذي يترعرع وينشأ فيه ويكون جزءاً مهماً منه مهما كان انفصامه النفسي والفكري قوياً عنه. ويتعرض بشكين في رواية «أفجيني أنيجين» متهكماً على الاهتمام بتصوير الحياة الفردية للإنسان قائلاً:

كأنما لم يعد بمستطاعنا
أن نكتب قصائد عن الآخرين
وإنما عن أنفسنا فقط

اعترض بعض أصدقاء بشكين مثل رايفسكي على رواية «أفجيني أنيجين» باعتبارها لا تدور حول شخصية البطل ولا تركز على ذاتيته وإنما تتجاوزه إلى جوانب وزوايا أخرى بعيدة عنه. وقد أوضح بشكين طريقته الجديدة في الكتابة، وأبان قصور كتاباته السابقة عن الإلمام بالحياة من جميع منعطفاتها، وأشار إلى ضرورة الإقلاع عن التصوير الوحيد الجانبي للفرد والإحاطة به من جهاته المختلفة.

شرع بشكين في رواية «أفجيني أنيجين» عام 1823 وانتهى من وضعها عام 1831. وكان الشاعر قد بلغ أوج نضوجه الفني في هذه الفترة. فقد ازدادت تجاربه الأدبية ثراء، وتفتحت مواهبه الشعرية، واغتنى بخبرات حياتية واسعة وبمعرفة كبيرة لدقائق

الحياة الروسية، فلا عجب أن تصبح رواية «أفجيني أنيجين» من أشهر مؤلفاته الأدبية وأكثرها انتشاراً لأنها تمثل خلاصة إبداعه الفني.

لم يكتب بشـــكين روايته نثراً ولو أنه فـــي كتاباته اللاحقة اتجه نحو كتابة القصص النثرية لمقدرة النثر على التعبير عن أفكار الكاتب وأغراضـــه الفنية ضمن إطار أرحب مجالاً من الشعر. غير أن الشـــاعر طرق نوعاً أدبياً جديداً، فقد سمّى مؤلفه رواية. إذ بعث برسالة إلى فيازمسكي سنة 1823 يقول فيها «لا أكتب الآن رواية نثرية وإنما شعرية من نوع دون جوان، والبون شاســـع بين الاثنتين». أما ملاحظته بأن روايته ذات علاقة بدون جوان للشاعر الإنجليزي بيرون فقد عدل عنها فيما بعد إذ كتب إلى بيستوجوف عام 1825 قائلاً إن لا علاقة لروايته الجديدة بدون جوان.

تسجل الرواية بداية الانفصام والانقسام في المجتمع الروسي. فقد أخذ الصراع بين القديم والجديد يبرز على مسرح الوجود معلناً عن نفسه بوضوح وجلاء. فعدد كبير من الجيل الفتيّ الطالع لم يعد ينسجم مع مفاهيم ومعتقدات وعادات آبائه، وفقد الإيمان بأســـلوب الحياة القائم آنذاك، وشعر بضرورة التغيير والتبديل لكي يصبح للحياة معنى وهدف. ولذلك تسود الرواية نغمة سخرية وانتقاد للحياة التافهة التي يعيشها الناس وانغمارهم بالاهتمامات اليومية العادية وبصغائر الأمور. ويصوّر بشكين التفاهة والفراغ لا في حياة أهل القرية فقط، بل والمدينة أيضاً، فالفراغ الروحي وانعدام المعاني والمثل السامية يجمعان بين ملاكي القرية ونبلاء المدينة. فلو ألقينا نظرة على حياة خال أنيجين في القرية لرأيناه يحيـــا حياة هادئة عادية لا تتجاوز الأكل والشرب والثرثرة والنوم.

ويصف الشاعر حياته وبيته قائلاً:

قضى أربعين عاماً يشتم ربة البيت
وينظر من النافذة ويضرب الذباب
كل ما في البيت بسيط: الأرض خشبية وهناك خزانتان وطاولة
وأريكة من الوبر
ولا أثر لبقع الحبر
فتح أنيجين الخزانتين
فوجد في إحداهما دفتر المصروفات
وفي الثانية صفاً من قناني المشروبات
وقلة من عصير التفاح
ورزنامة لثماني سنوات خلت
وكأن لدى العجوز أشغالاً كثيرة
لذلك لم يتصفّح كتاباً

إن الكتب والمجلات والورق والحبر لا مـــكان لها في حياة جده وأمثاله. فهو منهمك في عيشـــه اليومي الرتيب الخالي من الجهد والعمل والتفكير.

أما مجتمع المدينة فالحياة فيه ناعمة كســـولة، ومصقولة المظهر، وتمتاز بالبريق الخارجي الخادع، غير أن معدنها صدئ أيضاً. إن ارتباط المسارح والذهاب إلى الحفلات والأحاديث الرقيقة والملابس الأنيقة الجميلة والألفاظ المهذبة والابتسامات الحلوة يخفي وراءه فقراً روحياً وقصراً في التفكير وابتعاداً عن جوهر الحياة ومعناها. ففي الحفلات نلاحظ «الضجيج والقهقهات والتنقل السريع والانحناءات والقفز ورقصات المازوركا والفالس».

أما نظرة الناس إلى الأمور الحياتية فتدور حول مظاهرها فقط وتصبح الحياة نوعاً من المراسيم والتقاليد التي يؤديها الناس. فيقول الشاعر «لا تطيق أن ترى أمامك فقط حفلات الغداء، وصفاً طويلاً من المدعوين الذين ينظرون للحياة كنوع

من الطقوس، والركض وراء أصحاب النفوذ الذين لا تشاركهم آراءهم ولا رغباتهم».

يتحرك بطل الرواية في هذا الإطار الاجتماعي المذكور. فقد وُلد أنيجين على ضفاف نهر النيفا في بطرسبورج، وأشرف مدرس فرنسي على تعليمه وتهذيبه عندما كان طفلاً، ولما غدا فتى يافعاً أصبح يلبس وفق أحدث «الموضات» ويتكلم الفرنسية بطلاقة ويرقص المازوركا بخفة، ولذلك رأى فيه المجتمع الأرستقراطي شخصاً ذكياً ولطيفاً. إنه يعرف جميع الأصول الاجتماعية معرفة دقيقة، بالإضافة إلى ثقافته الواسعة التي تبهر كثيراً إذا قيست بثقافة أبناء محيطه. بيد أن أنيجين كان يشعر بكسل وخمول مؤلمين. فالدعوات والحفلات والذهاب إلى المسارح والرقص والمآكل اللذيذة والثرثرة والأحاديث التافهة لم تعد تملأ حياته الروحية ولم تشبع متطلباتها.

تسلم أنيجين في هذه الفترة رسالة تخبره بوفاة خاله وتركه إرثاً له. فذهب إلى القرية وقام بمراسم الدفن. وفي الأيام الأولى طابت له القرية بحقولها الهادئة المنعزلة وأشجارها الرائعة وجداولها وغاباتها وتلالها. غير أنه «أحس بأن السأم يلازمه في القرية أيضاً، بالرغم من انعدام الشوارع والقصور ولعب الورق والحفلات والقصائد فيها. فالكآبة تنتظر حراسته وتتبعه كالظل، وكالزوجة الوفية». ولأجل «قضاء الوقت» قرر أنيجين أن يدخل بعض التغييرات على حياة فلاحيه. فألغى السخرة، وأحل محلها دفع جزء عينيّ من المحصول أو إعطاء كمية من المال، بالطبع تعتبر هذه الخطوة التي أقدم عليها أنيجين - لا عن تفكير مسبق أو اهتمام بحياة الفلاحين - مهمة في التخفيف من أعباء حياة القن، ولكنها ألقت الخوف في قلوب جيرانه الذين لا يرغبون بإجراء أي تعديلات في نظام القنانة القروي، ولذلك «قرروا كجوقة واحدة، أن أنيجين غريب

الأطوار وخطر». وعندما أخذوا يزورونه لم يرق لهم تصرفه وسلوكه فابتعدوا عنه ورأوا فيه إنساناً شاذاً غير طبيعي.

يلتقي أنيجين في القرية بتاتيانا وهي فتاة طيبة وبسيطة، فتحبه وتعجب به، وتكتب له رسالة تكشف فيها بصراحة عن عواطفها تجاهه وثقتها به.

إن إقدامها على كتابة رسالة غرامية ينطوي على جرأة ومغامرة كبيرتين من جانبها، غير أن ثقتها به وحبها له واستعدادها للتضحية من أجله كانت مبعث تصرفها. ثمن أنيجين عواطف تاتيانا والصراحة التي أعلنت فيها مشاعرها تجاهه والتي لا يمكن العثور عليها إلا نادراً في مجتمع المدينة.

لقد هزته رسالتها بحيث «أثارت مشاعره الراكدة منذ زمن بعيد».غير أن تأثير الرسالة - رغم إعجابه بأخلاق تاتيانا - لم يتعد مرحلة الانفعال المؤقت ولم يستطع أن يبعث الحرارة في أوصاله أو يخلصه من الخمول والكسل اللذين يسيطران عليه.

يُدعى أنيجين في عيد القدّيسة تاتيانا إلى بيت لاريني أي أهل تاتيانا. ولما كان الضجر والسأم قد أخذا بخناقه، فقد حاول أن يسلي نفسه فأبدى إعجابه بأولغا أخت تاتيانا ورقص معها رقصات الفالس والمازوركا وغيرهما وعصر يدها وهمس في أذنها مادحاً وملاطفاً. فأخذت الغيرة والحمية خطيبها لينسكي وطلب أنيجين للمبارزة لكي يدافع عن شرفه وقتل أنيجين صديقه لينسكي في هذه المبارزة.

يقوم أنيجين بالتجول في أنحاء روسيا عسى أن يجد في ذلك التطواف ما يشغل به نفسه ويملأ الفراغ الذي يحيط به. ونلتقي به ثانية في المجتمع الأرستقراطي نفسه في إحدى الحفلات، حيث يرى تاتيانا وقد تزوجت من جنرال معروف. فيعجب بها ويقع في غرامها. إن أنيجين لا يحب أخيراً تاتيانا الفتاة

القروية البسيطة التي لم يهتم بها عندما أطلعته على أسرار قلبها، بل أحب تاتيانا الأرستقراطية التي أصبحت جذورها القروية ضائعة في الماضي. «فبالرغم من أنه نظر بإمعان إليها لم ير آثار تاتيانا التي عرفها سابقا». وعندما يلمس إهمالها له وعدم مبالاتها به تستيقظ عواطفه نحوها بقوة وتتخذ شكلاً محموماً. فتعود إليه الأحلام والآمال التي كانت تراوده عندما كان صبياً ويستولي عليه القلق والاضطراب ويفارق النوم عينيه، وتغلي دماء الحياة في عروقه ثانية وينجلي عنه صدأ البرود واللامبالاة، إذ تصبح مبادلة تاتيانا الحب له محور تفكيره، فنسمعه يقول «لكي تستمر حياتي، فعليّ أن أكون على ثقة من رؤيتك في الصباح». وهكذا يبعث الحب أنيجين مجدداً ويمده بالحياة الحية الملتهبة، ويلقي به في دوامة القلق والاضطراب وتعاوده الروح الرومانتيكية والآمال التي كان مفعماً بها عندما كان صبياً.

إن تاتيانا لم تكن مستعدة للتخلي عن حياتها الزوجية ولن تترك زوجها في سبيله. ولذلك قالت له «إنني مازلت أحبك فعلام المراوغة؟ ولكنني أصبحت لغيرك وسأخلص له طوال حياتي». وهكذا يقف حب أنيجين أمام باب موصد، فلن يبلغ الغاية التي يرمي إليها وهي تكون عائلة سعيدة منه ومن تاتيانا. وكما يقول شكلوفسكي « ... يقع أنيجين في الحب ويغير هذا الحب نظرته للعالم ويجعله يفقه معنى الحياة، ولكنه في الوقت ذاته يفقد كل أمل بالسعادة». وتنتهي الرواية والبطل واقف وحده في بيت تاتيانا كالمذهول بعد أن وضحت له موقفه السابق من عواطفها ورفضها الاستجابة له في الوقت الراهن بعد أن تقرر مجرى حياتها إلى الأبد.

يعرض بشكين لوحة متعددة الألوان لحياة أنيجين، فالبطل كما يشير الناقد أ سوكولوف «يقدم لنا لا في حاضره وفي

شكله الحالي فحسب، بل في ماضيه وفي تاريخ تطوّره وفي ديناميكية تكوينه وخلقه» فنحن نتعرف على حياة أنيجين منذ ولادته في بطرسبورج وكيف تتلمذ ونما ومَن أشرف على تعليمه وتثقيفه، وكيف يقضي وقته، ومـــا هي رغباته وكيف تطورت شخصيته وتغيرت في الفترة الأخيرة.

إن المأســـاة في حياة أفجيني أنيجين، والغربة التي يحس بها في بيته وبين معارفه وفي وطنه ليست وليدة نزعة البطل الفردية وإنما هي نتيجة للتغيـــرات التي طرأت على المجتمع وأخذت تنخره من الداخل. فالبطل يشـــعر بالقيود وبتفاهة الحياة التي يحياها ويتوق لعمل شيء ما يعود بالفائدة عليه وعلى الآخرين، بيد أنه يجد الطريق مسدوداً أمامه، وينتظره مصير مظلم. فهو يقول: «إنني شاب ودماء الحياة دفاقة في عروقي، ولكن ماذا أنتظر؟... الكآبة... الكآبة».

وهذا ما كان يشعر به العديد من النبلاء الذين أخذوا يعون ضرورة إجراء بعض التغيرات في المجتمع، فالبطل ليس إنساناً معزولاً عن الوسط الاجتماعي الذي يحيا فيه، بل هو ممثل لعصره وللتيارات الفكرية التي تولد فيه.

لقد ابتعد بشكين عن تصويره ذات البطل وعواطفه وحدها وصوّره مرتبطاً بالواقع الاجتماعي. وقد أشار ميلاخ إلى أن «تناول بشكين الجديد لمشكلة الأبطال في رواية أفجيني أنيجين لا يتحدد فقط بربطهم بالعصر، إن تفكيرهم وأحاسيســـهم وأفعالهم وتصرفاتهم لا تعينها النزوات العاطفية، وإنما الظروف التاريخية والزمان والوسط، وتتبع كحتمية غير مشروطة من الأوضاع الملموسة وترتبط بالخصائص المحسوسة الذاتية والعامة للفرد». يمثل أنيجين أفكار الثوريين في عصره الذين قاموا بانتفاضة على الحكم القيصري في شهر ديسمبر وترمي إلى إجراء بعض الإصلاحات الاجتماعية. فغاية متنوّري العصر

هي إيجاد الظروف التي تتيح للإنسان التطور والنمو الكاملين وتخلق أمامه السبل والمجالات لانطلاق شخصيته وتحقيق مثله وآماله في الحياة. بيد أن الضغط والقمع اللذين يتعرض لهما الإنسان يخلقان تناقضاً وتعارضاً بين مطامحه وأفكاره من جهة والواقع الاجتماعي الذي يقف حاجزاً منيعاً أمامه من جهة أخرى، ولذلك يشعر البطل بالوحدة والغربة في وسطه. وسنلاحظ التناقض بين شخصية البطل والإطار الاجتماعي الذي يتحرك فيه بشكل أوضح وأجلى من كتابات الأدباء اللاحقين مثل ليرمنتوف وتورجنيف وتولستوي.

لا يصوّر بشكين البطل كممثل لأبناء عصره المتنورين فقط، بل يثبت الخصائص الفردية التي يتميز بها عن غيره، والتي تخلق منه إنساناً له سماته الخاصة وعواطفه وأفكاره التي ينفرد بها، إنه لم يكن نموذجاً عاماً فحسب، بل نموذجاً ذاتياً أيضا. ولذلك نجد أن معاصري بشكين رأوا في شخصية أنيجين بعض أصدقاء الشاعر مثل تشاديف ورايفسكي وغيرهما. فهو يحمل شيئاً من أخلاقهم وسلوكهم وتفكيرهم. ويذكر بشكين كذلك بعض الصفات التي تجمع بينه وبين بطله فيقول «كنت حقوداً وهو عابس، وقد عرف كلانا لعبة الحب المشبوب وأتعبتنا الحياة وانطفأت في قلبينا الحرارة...». إن هذا ينطبق على بشكين أكثر من أفجيني أنيجين، فالشاعر يعبّر عن جزء من ذاته وأفكاره من خلال بطله، وهذا لا يعني أن شخصية البطل والشاعر مندمجتان ومتداخلتان في بعضهما، فغالباً ما نتحسس أنفاس بشكين في المناجاة الغنائية التي تتخلل الرواية، بينما البطل يتجسد أمامنا في أحداث القصة ومسارها.

يؤمن بشكين بضرورة التصوير المتعدد الجوانب للبطل. فهو يصوّر منابع متعددة في تفكيره وتيارات متضاربة في عواطفه ومشاعره. فأنيجين بالرغم من بعده عن الوسط الأرستقراطي

فإنه لايزال يسترشد في بعض تصرفاته بعاداته وأحكامه التي يسخر منها هو نفسه. فعندما دعاه لينسكي للمبارزة دفاعاً عن شرفه سلك أنيجين كأي أرستقراطي وافق على المبارزة وقتل صديقه بالرغم من أنه شعر بتأنيب الضمير فيما بعد. إن اعتياده على السير في أكثر الأحيان وفق الأحكام المتعارف عليها هو ما حال بينه وبين التفكيـــر في عاقبة الإقدام على مثل هذا العمل.

أما تاتيانا فقد نشأت في القرية قرب سكانها البسطاء السذج وعاشت في جو مشبّع بالأساطير والحكايات الشعبية وترعرعت بين ربوع الطبيعة الروسية وأنهارها وغاباتها. فلا غرابة أن تمثل تاتيانا الروح الروسية الصميمة وحتى اسم تاتيانا يعتبر اسماً روسياً شعبياً يظهر «للمرة الأولى على صفحات رواية لطيفة» كما يقول الشاعر فليس من العادة أن يستعمل الأدباء أو الشعراء الأسماء الشعبية في كتاباتهم. ويؤكد الشاعر انعزال تاتيانا عن المحيط الذي تعيش فيه وانطواءها على نفسها. فهي «وحشية وكئيبة وساكتة وخائفة مثل الغزال البري، وتبدو صبية غريبة في عائلتها نفسها» و«غالباً ما تجلس وحيدة طوال النهار قرب النافذة» و«حتى في سنوات الطفولة لم تمسك اللعب بيديها ولم يتحدث أحد معها بأخبار المدينة والموديلات». لقد كانت طبيعة تاتيانا هادئة انطوائية تميل إلى الوحدة والابتعاد عن الناس. وكانت تحب المطالعة «فقد ولعت مبكراً بقراءة الروايات وفضّلتها على الأشياء الأخرى، وأحبت دهاء ريتشاردسون وروسو». لقد كانت تجد لذة في القراءة لأنها تنقلها إلى عالم آخر غير الذي تعيشه أقرب إلى نفسها وروحها.

نرى أن الغربة والوحدة الفكرية تجمعان بين أنيجين وتاتيانا، فكلاهما يتوق لحياة أخرى أكثر نشاطاً وإنتاجاً. فتاتيانا على الرغم من المجال الضيق أمام المرأة في ذلك الحين للقيام بفعالية

ما، فقد كانت تحاول أن تكرّس حياتها لشيء ما يحقق أمانيها ومطامحها وآمالها. وعندما رأت أنيجين، وجدت فيه الشخص الذي يمكن أن يجمعها به رباط فكري وتقارب روحي، لذلك أحســت بقلبها ينبض بحبه. ينتزع الحب تاتيانا من هدوئها غير أن هذا الحب لا يجلب لها السعادة أو الهناء، بل الدموع والاضطراب والقلق واليأس. فانيجين لا يمكن أن يتجاوب معها بالرغم من أنها كانت تظن أنه سيفهم عواطفها ووضعها. فنراها تقول في الرسالة التي كتبتها له «تصور: إنني هنا وحيدة، ولا أحد يفهمني، لقد أضناني التفكير، وعلي أن أهلك وحيدة». وفي رسالتها له تعبّر عن هذه الشكوك التي تراودها محاولة أن تتبين حقيقته قائلة «من أنت؟ هل أنت ملاكي وحارسي أم مضلل شرّير؟ انجلي يا شــكوكي. قد يكون كل هذا كلاماً فارغاً وضلالاً نفسياً بسيطاً وسيكون لي مصير آخر تماماً». وعندما تلتقي به فعلاً يعظها ويبين لها أنه يكره الزواج والحياة العائلية، وأن مصيرها معه سيكون مظلماً. وتزور تاتيانا دار أنيجين محاولة أن تستشــف من خلاله أخلاقه وطباعه «إن دخول تاتيانا في بيت أنيجين يعتبر دخولاً في عالمه الداخلي وفي معرفة نفسيته» كما يقول أ.سلانيمسكي. فقد استطاعت أن تعرف اتجاهاته وهواياته من الرسوم المعلقة في الحائط مثل صور بيرون Byron ومن الكتب التي يقرأها ومن السطور التي وضع تحتها خطوطاً. وبذلك أصبحت ميول أنيجين ونزعاته واضحة أمامها بعض الشيء.

تســافر تاتيانا إلى موســكو بعد أن أضناها حبها الفاشل لأنيجين وتوافق هناك على الزواج من أحد الجنرالات المعروفين، وتصبح إحدى سيدات الصالونات المعروفات وتتغير وتنقلب حياتها الخارجية تماماً، بيد أنها نفسياً وفكرياً لا تنسجم مع مجتمع المدينة ولا تؤخذ بمظاهره البرّاقة وتظل تشعر بالوحدة

الروحية وتقترن هذه الوحدة بحنينهـــا إلى القرية وطبيعتها الجميلة الهادئة، فنسمع الشاعر يصفها في إحدى الحفلات حيث الضوضاء والضجة قائلاً «تنظر تاتيانا ولا ترى، إنها تكره صخب المجتمع الراقي، وتكاد تختنق هنا، إنها تعود بأحلامها إلى حياة الحقول إلى القرية وفلاحيهـــا الفقراء، إلى المكان المنعزل حيث يجري الجدول المضيء إلى زهورها وقصتها مع أنيجين حيث ظهر لها عند الغسق بين الممرات المحاطة بأشجار الزيزفون». إن كرهها لحياة المدينة المصطنعة المتكلفة يقابله حبها للحياة الروســـية القروية البسيطة الخالية من التعقيد والمظاهر الكاذبة. فالقرية تتخذ طابعاً شـــاعرياً جميلاً في خيال تاتيانا ينسجم مع طبيعتها الطيبة وتصرفاتها العفوية الخالية من التكلف. ويؤكد الشاعر بتثبيته لهذه الجوانب في شـــخصية تاتيانا غنى عالمها الداخلي وتشبّعها بحب الحياة الروسية الصحيحة.

ولا يمثل أنيجين وحده شـــباب بداية القرن التاسع عشر، بل يمثلهم الشاب لينسكي أيضاً. إن شـــخصية لينسكي في مسودات الرواية قريبة إلى الثوريين الذين شاركوا في انتفاضة الديسمبريين فهو متمرّد وشاعر يحب الحرية ويؤمن بها. وقد أشار البعض إلى أنه يمثل الشاعر الثوري كوخيلبيكر. وقد طرأت بعض التبديلات على شخصيته في النصف الأخير.

يعرّفنا بشكين على لينسكي في القرية التي حلّ فيها أنيجين. فهو ملاك «جميل في ريعان الشباب وشاعر يهوى الفيلسوف كانط، جاء من ألمانيا الضبابية حاملاً ثمار علومها وحب الحرية وهو متوقد الروح وغريب لحد ما، وحديثه حماســـي ويتدلى شعره الأســـود حتى كتفيه. ثم يغني شخصيته بتفاصيل عدة أخرى «فغاية الحياة عنده لغز مغر أتعب رأسه في التفكير به وأعتقد بروعتها». وكان معجباً بأشـــعار شيلر وجوته ويحب

الغنى ويتغنى بالحب.

نلاحظ أن لينسكي متفتح للحياة واثق بها، مفعم بالأحلام الرومانتيكية والنظرة المتفائلة البريئة للمستقبل والتطلع المتوقد إليه. فهو بعد لم تهزه الحياة بهمومها ومشكلاتها ولم يتعرف بعد على تناقضاتها وتعقيداتها، إنه يحمل نظرة صافية نقية عنها ويؤمن بإمكان تحقيق آماله ومطامحه فيها. فلينسكي رومانتيكي النزعة والميول طوبائي التفكير بعيد عن الإحاطة بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه.

بالرغم من التناقض بين أنيجين ولينسكي، فقد جمعتهما رابطة الصداقة وكانا في البداية مثل «الموجة والحجر، الشعر والنثر، الجليد واللهيب».

غير أن هذا التباين والاختلاف بينهما أخذ يتقلص وازداد تقاربهما. وإذا قارنا أنيجين بلينسكي ظهر الأول وقد خاب أمله بالحياة والحب والأصدقاء ويراوده الشك في كل شيء، بينما كان لينسكي يتصف بالطيبة والسذاجة في فهم الناس. لقد كان يعتقد أنه إذا أهين فإن «أصدقاءه مستعدون لدخول السجن دفاعاً عن شرفه». أما أنيجين فإنه يخشى الأصدقاء لكثرة ما رأى من غدرهم ونفاقهم وإيقاعهم به.

يشارك لينسكي تاتيانا أيضاً نظرتها الرومانتيكية للحياة وابتعادها عن الوسط الاجتماعي الذي تحيا فيه. بيد أن منبع رومنتيكيتهما مختلف. فتاتيانا تستمد نظرتها الشاعرية الرومانتيكية من التراث الشعبي الروسي ومن حبها للطبيعة الروسية وشغفها بجمالها. أما لينسكي فلروحه الرومانتيكية التي يتحلى بها رافد آخر يعود إلى تأثر تفكيره بالفلسفة والأدب الألمانيين وإلى نظرته الحياتية المتفائلة وسموّه على مجتمع النبلاء وعدم معرفته للواقع الروسي.

تخطى بشكين في رواية «أفجيني أنيجين» التقاليد الأدبية

السائدة في عصره والتي تمثلها المدارس الكلاسيكية والعاطفية والرومانتيكية وسار في طريق آخر غير محدد المعالم والاتجاه هو طريق التصوير الواقعي للحياة الاجتماعية. وقد أملى عليه هذا التجديد استخدام أسلوب مغاير لأسلافه، فلغة أبطال الرواية تتسم بالبساطة والوضوح وتبتعد عن التعقيد في المعنى والألفاظ، ولذلك كان للرواية أهمية كبيرة في بلورة اللغة الأدبية وتخليصها من الاستعارات والتشابيه المعقدة وجعلها تتصف بالإيجاز والاقتضاب والجلاء. ولم تكن الرواية من ناحية المحتوى الاجتماعي الذي انطوت عليه بأقل أهمية من الأسلوب، فهي ذات طابع وطني وقومي صميم، فلا عجب أن يسمّيها ناقد روسيا الكبير بيلنسكي «أنسكلوبيديا الحياة الروسية».

الجويني ورأيه في المعرفة *

د. فوقية حسين محمود **

أصولي ذاع صيته في القرن الخامس الهجري: هو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن عبدالله بن حيوية، أبو المعالي الجويني النيسابوري. لقّب بإمام الحرمين لأنه جاور بمكة أربع سنوات.

وربما يحق لنا أن نعرف به وبمصنفاتـــه، قبل أن نعرض لآرائه في المعرفة.

وُلد بولاية خراســـان، ببلدة صغيرة تسمى «بشتنقان» أو «بشتنكان» وهي من ضواحي نيسابور سنة 419 هـ.

وقد يتبادر إلى الذهن أنه خراساني الأصل... إلا أن والده طائي سنبسي وســـنبس أبو حيّ من طيئ، وطيئ، كما نعلم قبيلة مشهورة من قبائل العرب.

تربى عبدالملك في بيت علم وتقوى، فوالده هو: أبو محمد عبدالله بن يوسف الجويني صاحب التصانيف في الأصول، فله كتاب «الفروق» و«السلسلة» و«التبصرة»، ثم له «تفسير

---

* العدد 162 - مايو 1972م

** أكاديمية من مصر

كبير» وغير هذا وذاك من المصنفات القيّمة.

يحكى عنه أنه كان يقول في دعاء قنوت الصبح: «اللهم لا تعقنا عن العلم بعائق، ولا تمنعنا عنه بمانع». وكان يخشى الوقوع في ما فيه شبهة، فكان يحاسب نفسه حساباً عسيراً في أمور حياته عامة، وفي ما يتعلق بتربية ولده خاصة: فالمراجع تحدثنا عن موقفه من الجارية التي أرضعت ابنه عبدالملك، دون أن يأذن لها أصحابها. فما كان منه إلا أن قلب ابنه وبوّعه حتى لا يبقى في بطنه شيء مما ابتلعه.

وهذا يعني أن عبدالملك، لقي منذ نعومة أظفاره رعاية خاصة وجهته وجهة العلوم الإسلامية من جهة، ومن جهة أخرى جعلته يعيش مواقف حية في تلك البيئة الإسلامية الخالصة، فتعرف على معاني الحق والواجب وخشية الله، وبغض الحرام والإقبال على الحلال. وقد كان لهذا كله أثره في أن شبّ وقد تحلى بخلال حميدة ومعان إسلامية عميقة ملأت نفسه، فأدبتها، فإذا به، وهو الذي حباه الله بعقل راجح، يقبل على علوم عصره ويختار منها ما يدافع به عن أمور الدين.

فلقد عاش إمام الحرمين (419هـ - 478هـ) في عصر تميز بالفتن والقلاقل السياسية والدينية، فقد اندثرت في عهده دولة البويهيين - وهم من الموالين لأولاد علي أي الشيعة -وظهر السلجوقيون الموالون لأهل السنة - ويحكي لنا التاريخ أن الفتن كانت قد تعددت في بغداد والبصرة ونيسابور قبيل ظهور السلاجقة - وفي بدء عهدهم حيث كثُر تناطح الفرق بالحجج والبراهين العقلية، فكان لزاماً على من يعهد في نفسه المقدرة على الدفاع عن الدين أن يفعل ذلك - وهذا ما كان من إمام الحرمين.

فبعد أن أخذ الفقه عن والده، جد واجتهد في المذهب

والخلاف والأصول، وتلقى الحديث عن منصور بن دامس، وسعد النضوي وسعد بن عليك، وغيرهم. كما تلقى الكلام عن الاسفراييني (ت 452 هـ) والخبازي (ت 449 هـ) وبلغ درجة عالية في التحصيل حتى إنه قعد للتدريس مكان والده، وهو مازال في سـن مبكرة... وقيل له الشيخ، وصار إماماً وهو لم يبلغ العشرين ربيعاً... ولم يمنعه الجلوس للتدريس عن مواصلة تحصيل العلم... وبقي على هذه الحال يتلقى العلم ويلقّنه مدافعاً عن العقائد.

اندلعت فتنة في نيسابور امتهنت فيها كرامة أهل السنة، وكان ذلك حوالي عام 446هـ فنزح عنها مع جماعة من أصحابه من بينهم أبو قاسم القشيري وتوجه إلى العسكر ومنها إلى بغداد ثم رحل إلى الحجاز، حيث جاور بمكة، يفتي، ويناظر وينشـر العلم. ويقال إنه كان يقضي ليله طائفاً متعبداً في الكعبة الشريفة حتى قيل إنه خاض في علوم الصوفية - فكان يبكي الحاضرين ببكائه لاحتراقه في نفسه وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار.

رجع الجويني إلى نيسابور بعد انتهاء نوبة التعصب ضد أهل السنة، وذلك حين تولى الملك ألب أرسلان السلجوقي حكم خراسان ومعه وزيره نظام الملك.

ولما كانت سياسة نظام الملك تقوم على توطيد أركان الحكم ببث الطمأنينة في النفوس، وتثبيت العقائد في العقول، فقد بنى المدارس التي عرفت باسم «النظامية» وأقعد فيها كبار أئمة أهل السنة للتدريس والفتوى - وقد ورد عنه أنه قال - عندما وشي به الواشون لدى ملك شاه، إن الأموال التي ينفقها على المدارس تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية - قال وهو في معرض الدفاع عن نفسه:

«إني أقمت جيشاً يسمى جيش الله، إذا نامت جيوشك ليلاً

قامت جيوش الليل على أقدامها، صفوفاً بين يدي ربها، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا ألسنتهم، ومدّوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك، ولجيوشك، فأنت وجيوشك في حضانتهم تعيشون، وبدعائهم تتبتلون، وببركاتهم تمطرون وترزقون».

بنى نظام الملك المدارس وجلس أمام الحرمين للتدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور، وبقي بها يناظر ويفتي ويدافع عن الدين حتى أخريات أيامه، أي لفترة تزيد على الثلاثين عاماً.

وتوفي إمام الحرمين في ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة 478 هـ.

وقد ترك لنا تراثاً قيّماً، فقد صنّف في الفقه وأصوله، وأصول الكلام والخلاف والجدل وعلوم أخرى. ويصل عدد مصنّفاته التي عثرنا لها على نسخ بالمكتبات إلى سبعة وعشرين مصنفاً. وإن كانت المصادر القديمة تذكر له عدداً وفيراً من المصنّفات. وليس غريباً على إمام الحرمين أن يغزر إنتاجه، وهو الذي كرّس حياته للتدريس وشرح المذهب.

وأغلب مصنّفاته مازال مخطوطاً إذ لم يطبع منها سوى سبعة، فهو صاحب «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» و«الشامل في أصول الدين» و«العقيدة النظامية» و«لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة».

ومن أبرز مصنّفاته المخطوطة «البرهان في أصول الفقه» و«نهاية المطلب في دراية المذهب».

أما عن آرائه في المعرفة، فإنه كأصولي - له باع في العلوم الإسلامية. فقد حرص على أن يكشف عن منهجه في التحصيل، ويبين رأيه في كيفيته والحدود التي يحد بها نفسه، طبقاً لما تقتضيه طبيعة الموضوعات التي يبحثها.

ولذلك نجده يستهل أمهات كتبه بفصل أو فصول في «العلم

ومداركه» مثل كتاب «البرهان في أصول الفقه» و«الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد». وغيرهما.

ويهمنا - ونحن بصدد التعرض لآراء هذا العالم السني الكبير في المعرفة، أن نثبت أمراً طالما تشكك فيه البعض فأثبتوا عنه آراء تحيد عن الصـــواب. أما هذا الأمر فهو: مدى صحة الاستعانة بالعقل في العلوم الدينية وصحة ذلك بالنسبة لأهل السنة الذين يحافظون على الدين على طريقة السلف.

لقد تبين الجويني أنه ليس في العقل ما يتعارض مع نصوص النقل، إلا إذا حاد العقل عن العلم الصحيح وانحرف النقل عن الصورة التي نزل بها. هذه حقيقة عقلها المسلمون الأوائل، وكبار الأئمة ممن ارتوت نفوســهم بمفاهيم الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، ووعت عقولهم معانيهما الدقيقة.

لقد نهج كبار أئمة المســلمين، في مختلف العلوم، الديني منها وغير الديني، مناهج لم يهتد إليها من هم ليسوا من أهل الكتاب إلا في ما بعد وربما نقلاً عنهم، لأن ما تكشف عنه أقوالهم في كيفية تحصيل العلم مثلاً - يثبت أنهم وقفوا على حقائق لم يستطع كبار مفكري الغرب أن يقعوا عليها إلا بعد قرون وقرون، مما يجعل السبق لأئمة المسلمين في التعرف عليها. مثال ذلك: وعي ضــرورة اختلاف المناهج باختلاف الموضوعات، وضرورة تكيّف أساليب العرض بمقتضيات العقول الدارسة طبقاً للون ومستوى ثقافة هذه العقول، وارتباط النظر بالعمل، وعدم الفصل بينهما علــى نحو ما كان عليه الفكر الغربي المتأثر بالاتجاه اليوناني القديم... إلى غير ذلك من الأسس والمبادئ التي اهتدوا إليها بفضل هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

إن الكتاب الكريم يحض على النظر، والآيات التي تثبت ذلك

متعددة، فالنظر واجب بالشرع، وقد دعا النبي ﷺ المسلمين إلى التعلم، بل جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، دعاهم إلى النظر العقلي، كوسيلة من الوسائل التي تهيئ لهم التماس الحقيقة التي يبغونها، طالما أن هذه الحقيقة في متناول القدرة الحادثة، أي قدرة البشر، أي طالما أنها ليست من الغيبيات التي نهى الكتاب الكريم عن الخوض فيها. فلقد قال الله تعالى في ما يتعلق بالروح مثلاً:

«ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (سورة الإسراء – الآية 85).

فهناك إذن علوم تفوق مستوى الوعي البشري، وهذا يعني أن الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة قد وضعا للعقل حدوداً، وهذه الحدود تتمثل في تعذّر العلم بحقيقة الغيبيات، وإن كان من المتيسر إثبات وجودها بالحجج والبراهين العقلية: فهناك فرق في باب العلم، بين التعرّف على حقيقة المعلوم والقدرة على إثبات وجوده.

وقد اعترف الجويني بحدود العقل وتحدث عن تنوع الموضوعات، وميّز بين مواجهة الموضوع لمعرفة حقيقته، ومواجهته لإثبات وجوده، فتراه يقول في كتابه «العقيدة النظامية» بقصور العقل عن التعرّف على حقيقة الذات الإلهية – وهذه بالطبع حقيقة غيبية – ويعترف بقدرته فقط على إثبات وجوده، أي الله سبحانه وتعالى.

ولا يقتصر التنوع لديه على حقائق غيبية وأخرى غير غيبية، وإنما نجده يفرق في ما يتعلق بالحقائق غير الغيبية بين ما هو نقلي وما هو غير نقلي، بين ما هو بسيط وما هو مركب، بين ما هو عقلي وما هو حسّي، بين ما هو نفسي وغير نفسي... إلخ. معترفاً بأكثر من مصدر للمعرفة.

فنجده – مثلاً – يبين أن حقائق الأشياء وبعض المفاهيم مثل

استحالة المستحيلات، وجواز الجائزات، ووجوب الواجبات العقلية، لا التكليفية الضرورية منها والنظرية، يمكن أن تدرك بالعقل وحده.

أما ما يدرك بالسمع وحده فهو وقوع الجائزات وانتفاؤها، بمعنى أن كل ما هو ممكن ومقدور لله تعالى، وأخبر عنه مخبر أنه وقع يصح تصديقه، طالما المخبر صادق.

وأخيراً نجده يحدد موضوعات تدرك بالسمع والعقل جميعاً وهي تلك التي ترد عن طريق السمع ولا يطمئن إليها العقل، وهذه، يحث الإمام على أن يعمل الباحث فيها عقله، حتى يزول عنها اللبس. والأصول تدخل في هذا اللون من المعرفة.

وهو يرى أن الإنسان قد جُبل على إدراك المستحيلات العقلية، فالعقل هو «ذلك التهيؤ الذهني لرفض بعض الاعتبارات وقبول غيرها، واعتبار الأولى «المستحيلات» والثانية «الممكنات»، وهذا علم بديهي ومصدره العقل وحده. ولفظ «عقل» هنا بالمعنى الضيق: أي، تلك الملكة المنطقية التي تتعرف على ما هو مستحيل وما هو جائز، كما ذكر الإمام - وليس بالمعنى الواسع، أي بمعنى الوعي العام أو الوجدان الذي يستعمل فيه اللفظ في بعض الأحيان، سواء لدى إمام الحرمين أو لدى غيره من القدامى أو المحدثين.

ثم يعترف الإمام بالمعرفة الآتية عن طريق الحواس - كالأصوات المدركة بحاسة السمع والألوان المتعاورة على الذات والطعوم والروائح والحرارة والبرودة. ويرى أنها نوع من العلم غير المقدور للإنسان. مثله في ذلك كمثل البديهيات.

وكذلك النفس تحقق علماً يدرجه الإمام ضمن البديهيات ويقول في ذلك «إذا قدر الواحد على التقلب في الجهات، فيعلم من نفسه حال القادرين بداهة، ووضوح ذلك يغني عن الإغراق فيه» (البرهان ل:17) ويحدد الإمام أن السمعي من

العلوم يحصل عن طريق المرشد والأدلة السمعية.

ويعرفنا بالمرشد، فيبين أنه هو الذي يقول بكلام صادق، ووسيلته لدعوة الخلق إلى قبول هذا الكلام: المعجزات. والأدلة السمعية هي «الكتاب» و«السنة».

والمعجزة لديه، تقتضي صدق من ظهرت على يديه، فالمعجزة خارقة بطبيعتها للعادات، فقيام مدّعي النبوة بالعمل الخارق يجعل المرء يشعر تجاهه شعوراً مباشـــراً بأنه ينفرد بقدرة خاصة فيصدق به. هذا الشعور يشبه البديهيات التي تحدث في العقل، إذ يقول: «إن وجه دلالة المعجزة يقرب من أشعار قرائن الأحوال بالعلوم البديهية».

أما العقلي فيربطه بالتجريبي، ويقرر أن العقل قد جُبل على الإلمام بالجزئي، الذي تتم معرفته بالاستقراء وتقرير أحكام تتفق والواقع، وقد فطن الإمام إلى حقيقة لها أهميتها، وهي أن ما لا يمكن معرفته الآن، من الجزئي – كخاصة الجذب بالمغناطيس مثـــلاً، يمكن معرفته في ما بعـــد عندما تتهيأ النفس بمزيد من الاحتكاك بالطبيعة الخارجية. فكلما تحقق اتصال الباحث بمجال جزئي من مجالات الطبيعة، فطن إلى أساليب تناوله وتهيأت النفس لبحث حقائقه ومعرفة كنهها (البرهان ل:21).

أما ما يشترك السمع والعقل في إدراكه فيتبع فيه صناعة الحد «إن أمكنت عبارة سديدة على ذلك» (البر هان ل:2) معطياً للنص مكان الصدارة والأولوية: وكل ما يتطلبه هذا المنهج أن تتفق خطوات الباحث فيه وما قرره لنفسه آنفاً من حدود، فالجويني يقيّد نفسه في منهج الأصول بالنصوص المنزلة.

وقد فرّق بين هدف كل معرفة، فالهدف في ما يتعلق بالغيبيات هو على وجه الخصوص: إثبات وجود المعلوم، والهدف من

العلوم الأخرى هو التعرف على حقيقة المعلوم وكنهه.

فالسمعيات التي يكون التصديق بها واجباً، يكون دور العقل فيها محدوداً من حيث معاونة الفرد على تثبيت ما سبق وقبله وآمن به بالقلب، وذلك عن طريق الحجج والبراهين العقلية المعتمدة على النص. فالغاية هي إرساء قواعد الدين في النفس. فالعقل بهذا تكون له مكانته في ما يتعلق بالأصول من حيث أنه يكسب هذا العلم درجة من اليقين ترتاح إليها النفس.

غير أنه لما كان الإمام يعتقد أن للعقل حدوده التي لا يملك أن يتعداها، فهو يبين أنه وحده غير قادر على حمل المرء على التفكير في الله سبحانه وتعالى وفي نعمه وأفضاله - وأن الأمر التكليفي في الشرع يعاون الفرد على استكمال ما لا يستطيع القيام به. من دون الشرع. ثم النفوس في حاجة إلى منبّه أو ملفت لا ينبثق من داخلها، وإنما يأتيها من الخارج، من الشرع الحنيف، ولذلك جعل البحث في العلوم الدينية يقوم على أصل شرعي ينبه النفس ويوقظها من سباتها العميق. فالعقل بالنسبة للسمعيات يجيء في مرتبة تالية، ولا يهدف إلا إلى تثبيت ما سبق أن قبله القلب بالإيمان.

وهذا يختلف تماماً عن موقف الباحث من العلوم غير الدينية، حيث يكون الهدف هو التعرّف على حقيقة الموجود كما هو موجود في الواقع الخارجي... وقد يتيسر للباحث ذلك بصفة فورية، وقد يتطلب وقتاً من أجل أن يقع علىالأسلوب المناسب لاستخراج الحقائق من الجزئيات التجريبية.

فإذا أردنا الآن أن نتبين كيفية تحصيل العلوم لديه، نجد أنه يعتبر أن هناك علوماً ضروريـــة وأخرى نظرية، تعتمد على السابقة، فهو يصرح بأن ما تقدمه مصادر المعرفة، من: عقل وحس ونفس يمثل في أساسه معرفة ضرورية أو «علماً

ضرورياً» يدركه الفرد دون نظر، إذ يحصل من تلقاء نفسه «كالعلم باستحالة اجتماع المتضادات» و«الألوان المعتورة على الذات» و«علم المرء بنفســه»، فهذه كلها علوم غير مقدورة للإنسان، وهي أساس للعلوم النظرية.

أما العلوم النظرية وكيفية كسبها، فهو يصرح بأن النظر عبارة عن تراوح بين العلوم البديهية أو الضرورية بأنماطها الثلاثة من عقلية وحسية ونفسية، والربط بينها وبين فرض جديد، أي ربط الفرض الجديد ببديهية راسخة في العقل.

وعملية الربط هذه تقتضي الانتقال بين النفي والإثبات، أي التراوح بينهما، إلى أن تتكشّف الحقيقة وترتاح النفس إلى فرض معين وقد يطول الفكر وقد يقصر، وذلك حسب «حدة القرائح وكلالها» كما يقول الإمام - أي حسب استعداد الذهن الفطري ليتبين الحقيقة، فكأن تبين الحقيقة لديه يتم عن طريق معاناة نفسية تقوم على مواجهة مباشرة ين العقل والمشكلة، حتى يتبين له أحد القسمين «إما النفي أو الإثبات»، وهذا ما يسمّيه الجويني بـ«التردد بين أنحاء الضروريات».

ويلاحظ أنه لا يقبل من الأدلة سوى التراوح بين «النفس والإثبات» فلا أصل «لبناء الغائب على الشــاهد»، ولا «علة ولا معلول» ولا «استدلال بالمتفق على المختلف». فهو يحصر نفسه في «النفي والإثبات الذي يدل بصفة لازمة فيه» و«لا يتقرر في العقل وجوده غير دال على مدلوله». فالباحث يجد نفسه وجهاً لوجه أمام المشكلة.

ويحدّثنا الجويني عن هذه الفترة الحرجة فيبين خطورتها، ويثبت أن الباحث يكون عرضة أثناء تراوحه بين النفي والإثبات، لأن يعتقد اعتقاداً مخالفاً للعلم الصحيح، فيقع في الخطأ أو تطول فترة الانتقال بين النفي والإثبات فيقع في الشك. ويسمي الجويني حالات الخطأ «عقوداً» تتعلق بمعتقد على

خلاف ما هو به، والحقيقة لديه مثل الضروريات - موجودة في النفس - واحتكاك النفس بالخارج هو الذي يجعلها تنبثق وتظهر، فكان الجويني يحرص على أن يثبت أن العلوم كلها - الضروري منها والنظري - تنبعث من النفس بعد احتكاكها بالواقع الخارجي، المنفصل عنها والذي له وجوده في ذاته، ولكنه يمثل للنفس - وينبثق منها مثله في ذلك كمثل البديهيات والحسيات وغيرها من المدركات المباشرة.

ولم يفت الجويني أن يتحدث عن الخبرة، وقيمتها في جعل كسب المعرفة صحيحاً، أو يتم في وقت أقصر - فهو يقول «إن موقف التمييز بين ما هو مطلوب وما ليس بمرغوب فيه، يقتضي لكي يحسن أداؤه خبرة» (برهان ل:21) كما يقول «العلم لا يحصل لا محالة من غير تقدير فرض خبرة فيه، ولن يبلغ المرء مبلغ التحقيق في ذلك حتى يعرف مذهباً في حقيقة النظر» (البرهان ل: 14).

أما المعيار أو المحك الذي يعتبره الجويني دليلاً على الحقيقة أثناء معاناة الباحث للتراوح بين النفي والإثبات، أي أثناء التساؤل فهو: الشعور بالارتياح. ويقول في ذلك «إن الذي على علم حقيقي يشعر في نفسه بالارتياح والثلج والثقة» (البرهان 14).

فهو بهذا قد ربط بين النظر والعمل من جهة أو بين الذات والتجربة أو الواقع الخارجي.

ومن جهة أخرى فرق بين أنماط الموضوعات، حيث أعطى لكل موضوع حقه من المنهج الذي يناسبه معتبراً أن للأصول منهجاً خاصاً يجمع النقل والعقل ويعطي للنقل مكان الصدارة - لا من حيث التقديم والتأخير، ولكن من حيث المكانة التي يجب أن تجعل العقل تابعاً للنقل. في الحدود التي لا تمس حرية انطلاقه. فكلنا يعلم أن الحرية لا تعني الفوضى في

الانطلاق.

إن التعرّف على أقوال الجويني إمام الحرمين في المعرفة أو «العلم» ينتهي بالباحث إلى تبين أصالة في الفكر تستحق كل اهتمام وتقدير، فقد قـــدم مذهباً يعد من أدق المذاهب التي عرفت بين العرب حتى ذلك الحين.

فإمام الحرمين شخصية إسلامية، لها مكانتها في الفكر الإسلامي ولها أثرها في بناء صرح العلم الحديث، بما قدمت من أسس منهجية لها قيمتها في تحصيل العلوم.

ولقد قال فيه معاصره الشيخ الإمام أبو إسحق الشيرازي: «تمتعوا بهذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان». وقال له مرة أخرى: «يا مفيد أهل المشرق والمغرب، لقد استفاد من علمكم الأولون والآخرون».

وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير المسلمين.

الثوب الكويتي عمره نصف قرن *

لولوة القطامي **

خطوط الثوب الكويتي هي ذاتها التي تقتبسها بيوت الأزياء العالمية، لتصمم منها أحدث أزياء النساء في أوربا. الثوب الواسع الهفهاف الدقيق هو الذي كانت ترتديه المرأة الكويتية منذ نصف قرن، وهو ذاته الذي يشاهد الآن في واجهات أكبر المحلات التجارية في عواصم أوربا.

وحتى عشرين عاماً مضت كانت المرأة الكويتية ترتدي الثوب، ولكنه اختفى بعد ذلك من الكويت الحديثة بينما مازالت بعض السيدات المسنات يستخدمنه، وقد يظهر في المناسبات الرسمية، بينما يعرض دائماً في عروض الفلكلور الكويتي.

والثوب الكويتي تصميمه واحد ولكن نوعية القماش وطريقة التطريز تختلفان من مناسبة ومناسبة. فمثلاً النوع الذي يلبس كل يوم مصنوع إما من قماش (الويل) الململ أو من الفوال الخفيف على أن يكون سادة دون تطريز.

---

* العدد 231 - فبراير 1978م

** كاتبة من الكويت

أما المناسبات كالأعراس والحفلات والزيارات فيصنع عادة من قماش الجرجيت الطبيعي ويطرز إما بخيوط ذهبية (الزري) أو بخيوط فضية (تيل). والثوب المطرز بالتيل يسمى «ثوب امتيل»، أو يطرز بقطع مصنوعة من الذهب الخالص وهذا ما يسمي بـ (الثريا والشبك)، وفي الشتاء يكون الثوب من قماش أثقل ويسمى (ثوب جز) ويصنع من قماش حرير ذي نسيج سميك وعادة يرتدى فوق فستان يسمى (الدراعة) وتكون الدراعة عادة إما سادة أو مطرزة بخيوط الفضة والذهب.

وتنظم جهات النشاط النسائي الكويتي حملة في السنوات الأخيرة للحفاظ على هذا الزي وتطويره، وقد أنشئ بالفعل مشغل لهذا الغرض، استطاع أن يعرض ثمرة إنتاجه في معرض أقيم للثوب الكويتي، ولم يصدق الذين شهدوه أن زي المرأة الكويتية كان منذ أربعين أو خمسين سنة بهذا القدر من الدقة والجمال. وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تقدم فيها الفتيات الكويتيات عرضاً للأزياء. وحيثما ذهبنا في الخارج فإن الزي الكويتي يلفت الأنظار، وعندما دعيت المرأة الكويتية عام 1967 لحضور مؤتمر في موسكو بدعوة من الاتحاد النسائي السوفييتي، حضرنا جلسة الافتتاح بالثوب فكان مثار تعليق الجميع.

وفي المساء حضرنا حفلاً من قبل الرئيس خروشوف - الرئيس السوفييتي وقتئذ - وأثناء الحفل، توقف أمامنا خروشوف متأملاً الزي، ثم قال بروحه المرحة بعد أن علم أننا من الكويت: مس كويت، بعد الحفل لا تعودي إلى الفندق، بل عليك أن تذهبي إلى البنك.

وعندما حضرنا مهرجاناً للشباب في بلغاريا، وأتيح لنا أن نزور متحف الفنون في صوفيا، وذهبنا بالثوب الكويتي، التف حولنا جمهور المتحف تاركاً كل شيء وظل يمطرنا بالأسئلة، عن الكويت وما فيها.

إن الثوب الكويتي جدير بأن نعتز به، وأن نحميه من النسيان.

حرب العصابات تنتقل إلى المدن *

ليلى خليل **

تفاقمت ظاهرة العنف والإرهاب التي يشهدها العالم، ودفعت خطورة هذه الظاهرة الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان إلى تشكيل لجنة تضم عدداً من الخبراء برئاسة وزير العدل آلان بيرفيت.

وقدمت اللجنة دراسة بالغة الأهمية حول الإرهاب وجذوره وكيفية مواجهته؟

ورغم أن الدراسة اتخذت المجتمع الفرنسي مادة لها، إلا أن الإنسان وتحديات العصر هما محورها الرئيس، وكشفت العديد من الأخطار التي تهدد كل المجتمعات في ظل عالمية وسائل الاتصال.

في مقدمة الدراسة إشارة إلى السنوات العشر الأخيرة بين عام 1967 و1977م، وأنها شهدت ارتفاعاً ملحوظاً في عدد الجرائم، يضاف إلى العنف الذي أصبح السمة المميزة للحياة اليومية، وما خلفه من شعور عميق بعدم الأمن، والاعتقاد أن الأساليب المتبعة لنيل الحقوق لا تبعث على الاطمئنان، مما

---

* العدد -235 يونيو 1978

** كاتبة من فلسطين مقيمة في باريس

دفع البعض للبحث عن تحقيق العدالة بنفسه.

وركزت الدراسة حول أسلوب علاج هذا القلق الذي يسود المجتمع، وللإنصاف صاحب العنف الإنسان في مسيرته الطويلة وهو ليس وليد العصر الحديث. وظهر بصورة حادة في المجتمعات الغربية كظاهرة ناتجة عن المنافسة.

ولا يوجد مجتمع أكثر عنفاً من مجتمع هوميروس، ولا حياة أكثر خطورة من حياة الإغريق، وأيضاً ما تنشب من صراعات ضد الإقطاع، وثورات الفلاحين والحروب الصليبية وما شهدته فرنسا في عهد شارل السادس وشارل السابع وخلال الحروب الدينية، وفظاعة العنف الذي شهدته الثورة الفرنسية، ويمكن القول إن التاريخ نسج من خيوط هذا العنف الذي اتصل في غزو المناطق المقدسة، وحرب المائة عام، وحروب النهضة، وملحمة نابليون ثم المنافسات الاستعمارية المسلحة بين دول أوربا والتي كانت ذروتها الحرب العالمية.

ولكن في هذه المرحلة التي استطاع فيها المجتمع أن يصل إلى العقلانية، ألم يحن الوقت للقضاء على العنف، أو على الأقل حصره؟

إن العنف يبعث في الإنسان قلقاً دفيناً، فهو لا ينفصل عن تعقد النظام الاجتماعي. فلا يوجد ما هو أكثر نسبية، وأكثر تقيداً، وأكثر اختلافاً كالعنف، فهو أحياناً وسيلة للوصول إلى غاية محددة، وأحياناً أخرى «عنف بالمجان» أي غاية في ذاته.

والعنف ليس فقط فعلاً، ولكنه أيضاً حالة، يوجد عنف ناتج عن حال الدفاع عن النفس، وعنف كامن في بعض الألعاب الرياضية، وهذه الظاهرة المختلفة من العنف يمكن أن تؤدي إلى خلط بين مظاهر القوة والعدوان.

والخيط الذي تتبعه الدراسة هو العنف الناتج عن «الشعور بعدم الأمان» الذي ساد في الفترة الأخيرة، وفي هذا الإطار

تقدم الدراسة «بانوراما» عن مظاهر العنف المختلفة في المجتمع المعاصر، العنف الإجرامي، العنف الاقتصادي، العنف في العمل، مظاهر العنف المقبولة في الرياضة، العنف الشـــرعي خلال الحروب، وأخيراً الإرهاب السياسي.

وحصرت الدراسة الظواهر الثلاث التي تهدد المجتمع بارتفاع الأسعار والبطالة والعنف.

وترى اللجنة أن الضغط السكاني يتسبب في 83 في المائة من حالات العنف.

والمعدل الكبير للحياة المعاصرة يؤدي إلى 81 في المائة من حالات العنف، بينما 79 في المائة من الحالات بســبب عدم وجود عدالة اجتماعية، و79 في المائة من حالات العنف بسبب إغراء المال، وتؤدي البطالة إلى 72 في المائة من الحالات، وهذه النسب طبقاً لعينات مختلفة، وتحاول كل منها إرجاع العنف لسبب رئيسي يختلف عن الآخر.

وعجز أجهزة الدولة من أهم أســباب العنف، فمثلاً كانت حالات خطف الطائرات، وما يصحبها من شلل كامل في أجهزة الدولة تصبح عنده السطة عاجزة وغير قادرة على المحافظة على أمن مواطنيها، مما يبعث على القلق الجماعي، فالحياة المعاصرة تتغير بســرعة، والحكومات لم تستطع التحكم في هذا التطور الهائل، ما يؤدي إلى إشاعة القلق ويغذي الشعور بالوحدة، ويؤدي في النهاية إلى الانتحار.

وقد صرح 69 في المائة من العينات التي كانت محل دراسة، بأنهم لا يلجأون إلى الشرطة لحل مشاكلهم، لأنهم لا يثقون في إمكانية الوصول إلى حقهم، ما أدى بـ 20 في المائة للتدريب على ألعاب الكاراتيه والجودو حتى يحصلوا على حقوقهم بأنفسهم، وأن 23 في المائة قد أحكموا إغــلاق أبواب منازلهم، وأصبح 60 في المائة من السكان يملكون أسلحة مرخصة للدفاع عن

أنفسهم.

وتوصلت الدراسة إلى أن البعض يطلقون النار على بعض الأشـــخاص لمجرد قيامهم ببعض الضوضاء، ويعود ذلك إلى حالات الضيق والتوتر والقلق.

والملاحظ أن العنف أخذ في النمـــو بمعدلات متقاربة في جميع الدول الصناعية، فيما عدا اليابان، وإن نسبة اشتراك المرأة في العنف مازالت ضعيفة، وإن كانت النسبة قد ارتفعت في السنوات الأخيرة.

ودلت الدراسة على أن 25 في المائة من السكان تواتيهم الرغبة في ضرب إنسان - أي إنســـان - مرة على الأقل كل أسبوع، واعترف نصف سكان العاصمة «باريس»، بأنهم يتعاركون بشكل مستمر مع أحد أفراد العائلة، ويمكن ملاحظة هذه الرغبة في القيام بأعمال العنف في ما يكتب على لوحات الإعلان، وما يشاهد من تخريب للأجهزة العامة، فقد سجل عام 1976 أن 32 ألفاً و400 جهاز تلفون عام تم تحطيمها وسرق 1151 جهازاً، وأن الانتحار يمثل حالة من حالات العنف الشديد، والذي يوجه فيه العنف إلى الذات، وأن نسبة الوفاة نتيجة الانتحار تأتي في المرتبة الثانية بعد الوفاة الناتجة عن الحوادث.

وإذا كان الانتحار عنفاً موجهاً للذت، فتعاطي الخمور والإدمان نوع ممثال لهذا العنف.

ما هي الأسباب والدوافع لأعمال العنف؟

الأسباب والدوافع مسألة مثيرة ومعقدة، وتحتاج إلى جهود القاضي، والطبيب ورجل البوليس والسياسي، ويجب أن تسير كل هذه الجهود جنباً إلى جنب ويكمـــل بعضها بعضاً، فيرى البعض أن العنف هو شـــذوذ فرد أو مجموعة وخروجها عن اللائق، بينما يرى فريق آخر أن العنف هو ثمار المجتمع، ورفضت الدراســـة أن تقف إلى جانب هذا الرأي أو ذاك، وسجلت 3

مراحل للعنف:

1 – العنف كانعكاس وصدى.

2 – العنف كرد فعل للكبت والحرمان.

3 – العنف كبديل للحوار.

وتبدأ الدراسة بالعنف كصدى وانعكاس اجتماعي يورث الماضي المتمثل في ما يدرسه الأطفال من ماضي العنف الماثل في التاريخ كحروب لويس الرابع عشر، وحروب الثورة الفرنسية، وعنف آخر عايشوه كأعمال المقاومة الفرنسية وما سجلته من بطولات، وحروب التحرير في الهند الصينية وشمال إفريقيا.

وفي هذا المجال الذي تسميه الدراسة التلقيح الجماعي قامت وسائل الإعلام بدور بارز، فالفرد الفرنسي يقضي 7 سنوات من عمره أمام التلفزيون الأمريكي يقضي 18 سنة جالساً أمام شاشة التلفزيون، وأن العديد من المشاهد التي تحمل الكثير من مظاهر العنف، كما أن أسعار الأفلام الأمريكية الزهيدة، تشجع المسؤولين على الإقبال عليها، وهي تحمل العديد من مشاهد العنف...».

وتضيف الدراسة «أنه إذا كانت وسائل الإعلام تعمل على أساس مبدأ حرية التعبير فإن المصلحة تقتضي ألا تتجاهل تأثير هذه الوسائل على مسيرة العنف.

وإن لهذه المشاهد تأثيرات ثلاثة:

إما التنفيس أو الإنكار أو المحاكاة.

بعد تأثير وسائل الإعلام يتناول التقرير الجانب النفسي عند الفرد من ناحية مشاربه الشخصية وتأثير البيئة. ويعتمد في ذلك على تفسير علم النفس الذي يوضح أن التوازن النفسي لدى الأطفال وظروف تربية الطفل خلال السنوات الأولى من عمره، عاملان مهمان في تكوين الشخصية بعد ذلك.

واستناداً على قواعد علم الأحياء، وبناء على ما وصلت إليه

مجموعة كبيرة من الأبحاث التي تناولت الجانب العدواني عند الحيوان، والشر عند الإنسان، أرجعت كل هذه الدراسات، الكثير من الأعمال العدوانية إلى أسباب وراثية، وإلى عوامل الغريزة.

وقد ألقت هذه الدراسات الضوء على العنف والجريمة وكيف أنهما مرتبطان بالجنس المذكر، وخاصة في الفترة التي تتميز بالنشاط الجنسي.

وهذا الجانب من التأثير في تكوين شخصية الفرد وسلوكه أسماه التقرير التلقيح الفردي، ويقصد به مشارب الفرد والمؤثرات الشخصية المكونة له.

وإدمان الخمر والمخدرات هو أحد المؤثرات في تكوين الفرد، إذ يدفعه الإدمان على الخمر أو المخدرات، إلى ارتكاب أعمال عدوانية، مجرد الرغبة والبحث عن وسائل الإدمان - خمر أو مخدرات - قد يدفعانه إلى ارتكاب أعمال عدوانية.

ويبدو هذا واضحاً في السرقات التي يقوم بها البعض ضد الصيدليات في عام 1975 سجلت السلطان 820 حالة سرقة ضد الصيدليات في فرنسا.

والغريب أن اللجنة في تقريرها لم تستطع أن تتوصل إلى أسباب الإدمان، وإن كانت قد أرجعته بشكل عام إلى أسباب تاريخية، نفسية وإعلامية.

بعد ذلك انتقل التقرير إلى علاقة «الكبت والحرمان» بالعنف.

وتحدث عن العلاقة التبادلية بين زيادة عدد السكان وزيادة أعمال العنف، ثم علاقة العنف بالبطالة.

وفي هذا المجال يذكر التقرير في صورة تساؤل وتعجب كيف أن عام 1973 في فرنسا، ارتفعت فيه نسبة البطالة، ورغم ذلك لم تسجل حالات عنف كثيرة.

وينتقل بعد هذه الملاحظة العابرة، إلى علاقة العنف بالعمل والظروف السائدة في مجالات العمل المختلفة.

ويصل في تحليله إلى أن العمل في ظروف قاسية لا تتلاءم مع كفاءة الإنسان يؤدي إلى ارتفاع نسب حالات العنف.

وبعد هذا تناول البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية وهي وضع من أسماهم بالسكان الهامشيين ويقصد بهم المهاجرون الوافدون، الذين يعملون خارج بلادهم. ويقول إن الدول المفتوحة تستقبل عدداً كبيراً من هؤلاء المهاجرين، وإن كثيراً من التحقيقات تنسب لكثير من أعمال العنف والإجرام إلى الوافدين، ويعود التقرير فيستدرك ويقول: إنه من الصعب التسليم بمثل هذا الاتجاه، ويقصد إرجاع الكثير من أعمال العنف إلى العمال المهاجرين.

وقد اهتمت الدراسة بالأسرة، واعتبرتها اللبنة الأساسية التي تساهم في تنشئة الطفل، والتي تحتضنه في مراحل التحول المهمة التي يجتازها من الطفولة مروراً بالمراهقة، إلى مرحلة الشباب، والأسرة في رأي الدراسة هي مدرسة التحول، وعليها مسؤوليات كبيرة، ويجب أن تحترم أفكار الطفل وآراءه.

وتقرر اللجنة أن العائلة التي تعيش في هدوء ووحدة وانعزالية، تسلم مع الأسف أبناءها إلى عالم العنف، فالأب والأم بحكم العمل كثيراً ما يكونان بعيدين ومنشغلين عن الأبناء.

وما يعانيه الوالدان من إرهاق العمل يدفع إلى فرض الوحدة على الأبناء، وذلك بإبعادهم عنها، وهذه الوحدة التي يجد الطفل نفسه مجبراً عليها، تساعده على التخيل.

وفي هذا المجال ترى الدراسة أن الصور المرئية التي يشاهدها الطفل وهو جالس بين والديه، يختلف تأثيرها النفسي تماماً عندما يشاهد الصور نفسها بمفرده.

وقد أولت اللجنة اهتماماً كبيراً بعلاقة الطفل بأسرته، خصوصاً

في مراحل النمو الخطرة للطفل، وبخاصة مرحلة المراهقة، باعتبارها مرحلة تمثل عالماً بذاته، هي عالم الغرائز الجنسية، وعالم لا يمكن التأكد فيه من اليوم والغد، فالمراهقة هي الانطلاق، ولكنها في الوقت نفسه مرحلة يحتاج فيها المراهق إلى من يلتمس عنده الرأي والنصح والتوجيه.

فأمام التقدم العلمي الهائل قد يجد الطفل إياه عاجزاً عن تفسير الكثير مما لا يفهمه، وهنا يكمن الخطر، خاصة حينما يصل الطفل إلى قناعة بأن أبويه لا يستطيعان أن يعلماه شيئاً، وإن علمهما، أو معرفتهما لا تنفع أمام العلم الحديث.

وفي حالة ممارسة الأبوين لعمل بسيط متواضع، قد يدفعهما الخجل إلى تجنب الحديث مع الطفل، وهذا الوضع يطلق عليه التقرير ما يسمى بـ «صراع الثقافات».

وهو ما نراه أيضاً حينما يحصل الشاب على مستوى علمي أعلى بكثير من مستوى أبويه، وفي هذه الحالة لا يجد سبيلاً للتفاهم مع والديه، فيلزم الصمت.

وفي بعض الحالات يحاول الأبوان التصابي أمام أطفالهم في محاولة لجذب الطفل إليهما، ولكن هذا السلوك قد يبعث النفور في نفس الطفل، فمرحلة المراهقة مرحلة خطيرة، يجب أن تخضع للإشراف العائلي مع احترام الطفل، وفي الوقت نفسه السيطرة والتوجيه الملائم.

وينصح التقرير بأن يتاح للطفل القيام بأعمال عدوانية تحت إشراف العائلة وسيطرتها، وأن تجري مثل هذه الأعمال في محيط الأسرة ذاتها.

ذلك أن المراهق الذي لا يستطيع أن يمارس بعض النوازع العدوانية بين أفراد أسرته، سيجد نفسه - في ما بعد - غارقاً في عالم العنف وسيكون إما المجرم أو الضحية.

وإن هذه الصورة صورة مظلمة لكنها هي الواقع.

وتصف اللجنة المجتمع الفرنسي بأنه مجتمع يخشى شبابه.

ذلك أن عام 1975 سجل أن 86 في المائة من مقترفي الجرائم - خاصة جرائم السطو، والسرقة باستخدام الأسلحة - هم من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 30 عاماً، وأن 64 في المائة من هؤلاء تقل أعمارهم 25 عاماً و24 في المائة منهم تقل أعمارهم عن العشرين.

وتساءل عن سبب هذه الظاهرة.

وقال: إن شباب هذا العصر غريب الأطوار، ولا يمكن أن ننسى عام 1968 وما حمله الشباب في هذا العام من «تقاليع» إطلاق الشعر، تعاطي المخدرات والهمجية وغيرها من مظاهر.

وإذا كان فيكتور هوجو قد قال «افتحوا المدارس، وأغلقوا السجون...» فيجب أن نتذكر أن العلم في بعض الظروف يصبح عقاباً لمن لا يستطيعون مواصلة الدراسة، ومن هنا تظهر أهمية النوادي والملاعب والملاهي، وكل النشاطات الفنية والرياضية، في تقديم المجال الملائم، ليزاول كل شاب ما يحتاج إليه من نشاط، مع ضرورة معرفة المجال المناسب لكل شاب، حتى يجد سعادة في ما يؤديه.

وفي مجال تأثير الإحباط والكبت على العنف يتحدث التقرير عن مجتمع الطمع والرغبة، وقد أطلق على هذا الجانب اسم «منطقة الإغراء»... ويرى أن الإغراء يدور حول عاملين:

أولاً: إثارة عامل الاستهلاك.

ثانياً: الافتقار إلى الوسائل التي تساعد على تحقيق العامل الأول والالتحام معه.

فالاستهلاك مطلوب من دون شك لإشباع عدد من الحاجات، وأحياناً يكون قيمة في ذاته، لإثارة الأنظار واستجلاب المديح والإعجاب.

وقد أصبحت عملية الشراء في المجتمعات الحديثة، خصوصاً في ما يسمى بـ «السوبر ماركت» عملية تفقد الإنسان كل سيطرة شخصية على رغباته، فالسلع أمامه تغريه، وفقدت عملية الشراء والبيع شكلها الاجتماعي، فلا مجال لتبادل الرأي أو المشورة مع البائع لمعرفة الأفضل، ولكن تخضع العملية كلها إلى مبدأ: «اخدم نفسك».

وأمام هذه البضائع المعروضة كلها، والتي لا يظهر شخص معين مالك لها تظهر نوازع السرقة والعدوان والعنف.

وهنا يجدر القول إن عوامل الإغراء أصبحت بلا حصر - في الوقت الذي نجد فيه أن الردع ضعيف أمام بوليس مرن، وعدالة متهاونة.

وتناول التقرير بعد ذلك مسألة «عدم العدالة»، وقال إن هذه الظاهرة أصبحت موجودة في كل مجال وهي تمتد إلى مجالات الثقافة، والبيئة والفراغ، ولا شك أنه توجد علاقة مباشرة ومهمة بين عدم العدالة والعنف. وقد يكون العنف هو محاولة لتحقيق العدالة وتعبيراً واضحاً عن عدم الرضا عن الظلم.

وفي هذا المجال يتناول التقرير مسألة الغش الضريبي وتهرب الأثرياء القادرين من دفع التزاماتهم الضرائبية، مما ينتج عنه تراكم الأموال، وازدياد مظاهر عدم المساواة، وينعكس هذا الوضع بدوره على النفوس التي تفقد الثقة بالحكم والعدالة، باعتبارها تهين الآخرين، حتى يزداد الأغنياء غنى، بينما يزداد الفقراء فقراً.

ونذكر بهذا الخصوص ما قاله «مونتسكييه» «إن الجمهورية تقوم على المساواة والمساواة تقوم على الفضيلة..» وطبقاً لما سبق تبدو الفضيلة محتقرة، من هؤلاء الذين يستطيعون خدمتها، ويقصد هنا الأغنياء المتهربين من الضرائب.

ويرى التقرير أن «الحضر» هو المكان الملائم للجريمة.

أولاً لكثـــرة المغريات، وثانيا لســـهولة التخلـــص من رقابة المجتمع.

ونتيجة لدراســـات مطولة، توصلت اللجنـــة إلى حقيقة أن هناك التحاماً بين العنف والمظاهر الحضرية، فالمدينة تخلق الخوف وتعطي الإحســـاس بعدم الأمان، وعدم القدرة على ممارسة الحرية الشخصية، وخلق إحساس بعدم وجود ملاك حقيقيين للأشياء.

فالحياة الحضرية تفرض على السكان نوعاً من التقسيم، حيث توجد مساكن شعبية للعمال منفصلة عن مساكن الطبقات البرجوازية، ومساكن الطبقة الأرستقراطية، منفصلة عن مساكن الآخرين والمدينة نفسها، مقســـمة إلى أحياء سكنية وأخرى تجارية.

وحياة الحضر بحكم اتســـاعها تفرض هذا التشـــتت على السكان.

وقليلاً ما نجد جيراناً متعارفين، أو نجد علاقة تعارف بين السكان بعضهم وبعض.

ومن هذه النقطة تبدأ المرحلة الثالثة من العنف، وهي مرحلة «العنف كبديل للحوار».

وهذا التعبير قد يبدو جريئاً، ذلك أن الحوار من شأنه خلق نوع من التقارب بين الأفراد الذين يحترم بعضهم بعضاً بينما مضمون العنف هو التهجم والاحتقار.

والمجتمع يعرف هذا الشكل من العنف منذ زمن طويل ويحدث هذا النوع بدافع الغريزة.

وقد أوجد المجتمع الديمقراطي الحديث حديثاً من التنظيمات التي تساعد الأفراد في التعبير عن آرائهم، وتساعدهم على استعمال الحوار، وتبادل وجهات النظر، وذلك في شكل نقابات وأحزاب، وغرف تجارية وبرلمانات وغيرها.

وافتقاد الحوار يجعل الفرد يشعر بالتقصير من جانب الدولة في الاستماع له ولذلك عندما يشب خلاف ما، أن تنشأ معركة يتدخل فيها البوليس، نجد الأفراد يحاولون توجيه الضرب لرجل البوليس، كرمز للدولة المتهمة، بعدم الاهتمام بهم وبشؤونهم، وكثيراً ما يحدث هذا في المناطق البعيدة عن العاصمة، ويكون بمنزلة الصرخة التي قد تصل إلى باريس، وهنا يتكون ما يمكن أن نطلق عليه «أخلاقيات المواجهة».

ويرى التقرير أن خير الوسائل لمكافحة العنف هو وضع وتحقيق مبدأ، إمكانية الحوار ذلك أن الكثيرين يعتقدون أنه «لكي يسمع رأيك يجب أن تلجأ إلى القوة، وأنه كلما اتسعت رقعة العنف شمت عدداً أكبر وأهم من السكان...».

وأوضح التقرير أن هناك أسباباً كثيرة لازدياد العنف تمثل تقصيراً من جانب الدولة، أهمها:

- عدم كفاية رجال القضاء.
- التردد في المواجهة والقمع.
- ثالثاً: وهو الأهم النقص في عدد رجال البوليس.

ويقول التقرير في هذا المجال، إنه بينما زادت نسبة عدد السكان بين عامي 1946، 1976، بنسبة 32 في المائة، لم يزد عدد رجال البوليس بهذه النسبة.

فبينما كان عددهم عام 1946، في فرنسا 94 ألفاً لم يتعد عددهم 107 آلاف عام 1976، مع مراعاة تعقد الحياة، وما صحبها من مظاهر جديدة تساعد على العنف.

وهذا يفسر سهولة اقتراف الجرائم وعمليات العنف، لأن مرتكبي هذه الأعمال على ثقة بأنهم لن يقعوا في قبضة رجال البوليس.

وقد قدم التقرير بعض الأرقام ليستشهد بها على صحة ما ذهب إليه، إذ تقول هذه الأرقام إن 1 من 2 ممن يرتكبون جرائم

القتل يقبض عليه، وواحد من 4 من مرتكبي جرائم السرقة بالإكراه هو الذي يقبض عليه فقط.

وواحد من 6 من مرتكبي حالات السطو.

وبهذا نرى أن الزيادة في عدد السكان مع التجمع في المدن جعل الرقابة ضعيفة من جانب رجال البوليس الذين لا يتناسب عددهم مع هذا التزايد في عدد السكان.

وفي ضوء هذه الحقائق يعتقد 71 في المائة من الفرنسيين أن العدالة تسير بشكل سيئ، بينما يرى 21 في المائة من السكان، أنها ملائمة.

وهكذا يتضح أن العدالة الضعيفة تثير مصاعب خطيرة، وأن مدة العقوبة غير الكاملة تشجع المحكوم عليهم للعودة إلى اقتراف الجرائم.

وجدير بالذكر معرفة أن معاملة المجرم، بعد إيفائه مدة العقاب، معاملة الشخص الطبيعي - متناسين جريمته - أمر مهم بالنسبة لنفسية المجرم، وإلا عاد إلى اقتراف الجرائم مرة أخرى، إذا ما عومل بعكس ذلك.

ويؤكد التقرير أن السلطات العامة ليست وحدها المسؤولة عن العنف، وإنما المجتمع بأسره يتقاسم هذه المسؤولية، ويذكر في هذا المجال قول مونتسكييه «لا نستطيع أن نصنع بالقانون، ما يجب أن نصنعه بالعادات».

بعد هذا العرض العام يتناول التقرير أعمال مجموعات العمل الخمس والتوصيات والمقترحات التي تضمنتها أعمالهم.

فبالنسبة لمجال علم النفس وعلم الأحياء، وهو ما تولته المجموعة الأولى بالدراسة خلصت المجموعة إلى ضرورة التركيز على تدريس علمي الجغرافيا والتاريخ للطفل، حتى يشعر الشباب بالأصالة، وحتى لا يصبحوا فريسة وضحية للضياع، ويقبلوا على إدمان الخمور والمخدرات وما يتبع ذلك من انحرافات

أخرى.

وقد تناولنا هذا بشكل مفصل في العرض العام السابق.

أما المجموعة الثانية التي تولت دراسة البيئة والسكان، فقد ركزت في توصياتها على ضرورة التخفيف من أسباب التوتر، عن طريق التغلب على الكثافة السكانية خاصة في المدن، والتي تعتمد المجموعة في ضوء ما قامت به من أبحاث ودراسات مكثفة على المجتمعات الحضرية، أن مجتمعات المدينة الحديثة بكثافتها السكانية الضخمة، وقلة وسائل الأمن والرقابة - مجال خصب لانتشار العنف ونموه.

وقد أوصت المجموعة في هذا المجال أيضاً بالعمل على التقليل من إقامة المجمعات السكانية الضخمة والأبنية المرتفعة.

وترى أن بناء المدن الجديدة على أساس إنشاء أحياء متكاملة يساعد على خلق بناء اجتماعي، وقيام مجتمع متجانس، يقوم على علاقات إنسانية بين أفراده.

وقد لمست هذه المجموعة في توصياتها أيضاً، ضرورة الدمج الديموجرافي في المدن الحديثة، بمعنى ضرورة دمج الفئات السكانية المختلفة بعضها مع بعض، خاصة مجتمعات المهاجرين، التي تتقوقع في أحياء خاصة بها، ساعد على انتشار الجريمة بينها، كما تساعد على خلق روح العداوة بين هذه المجتمعات وبقية فئات المجتمع الأخرى.

ولم يتجاهل التقرير البنيان الإداري، وأوصى بأن يكون لكل حي بنيانه الإداري الخاص به، والقادر على حل مشاكل الحي، بالمشاركة مع السكان في اتخاذ القرارات الخاصة بحل مشاكلهم.

ودعت المجموعة إلى الاهتمام بالنشاط الاجتماعي عن طريق الاهتمام بإقامة قاعات للفنون، وملاعب للرياضة، تمكن سكان الحي من التعارف بأسلوب شائق.

أما مجموعة «الاقتصاد والعنف» فقد ركزت في توصياتها على:

- ضرورة زيادة احتياطات الأمن بالنسبة إلى المحال التجارية والبنوك، حتى لا يدفع التهاون في هذه الاحتياطات، الشباب إلى الإقبال على أعمال إجرامية وعنف بهدف السرقة.

- مع ضرورة الاهتمام بجودة الحبر والورق المستعمل في البطاقات الشخصية، وبطاقات البنوك، بحيث يصبح تقليدها عملية عسيرة.

- الارتفاع بمستوى أجهزة الأمن، وتوفير العدد الملائم من رجال البوليس، ذلك أن القبض في المكان نفسه على الشخص المقترف للمخالفات أو الأعمال العدوانية، يشمل مظهراً قاسياً بالنسبة إليه، ربما كان أشد من الحكم نفسه، لأن مجرد إلقاء القبض عليه يفضح أمره.

- كما ترى التوصيات ضرورة مقابلة كل هذه الإجراءات، بعمل مواز لها، في مجال العمل نفسه، وذلك بتحسين أوضاعه ومحاولة التخفيف من حدة التمركز الصناعي في المدن الكبيرة.

- وأوصت بالعمل على تبسيط الإجراءات في الحياة الاقتصادية والتي كثيراً ما يجد الفرد نفسه بسببها على علاقة سيئة مع الإدارة.

وبعد هذا العرض تقدم الدراسة مقترحاتها، وتبدأ بضرورة التركيز على تدريس علمي الجغرافيا والتاريخ للطفل. حتى يشعر بالأصالة، وحتى لا يصبح فريسة الضياع، كما ركزت المقترحات على ضرورة تخفيف أسباب التوتر والتغلب على الكثافة السكانية في المدن، فقلة وسائل الأمن والرقابة مجال خصب لانتشار العنف ونموه، كما أوصت بالعمل على التقليل من إقامة المجمعات السكانية الضخمة والأبنية المرتفعة، وترى أن بناء المدن الجديدة على أساس إنشاء أحياء متكاملة يساعد

على خلق بناء اجتماعي، وقيـــام مجتمع متجانس، يقوم على علاقات إنسانية بين أفراده، وضرورة دمج الفئات السكانية المختلفة لمعالجة روح العداء بين هذه المجتمعات. وطالب بمشاركة السكان في الحي في اتخاذ القرارات لحل مشاكلهم، والاهتمام بالنشاط الاجتماعي عن طريق الاهتمام بإقامة قاعات للفنون، وملاعب للرياضة يتعارف داخلها سكان الحي.

وخصصت المقترحات جانباً مهماً لموضوع الإعلان، باعتباره عنصراً مهماً ذا تأثير نفسي مباشر.

وانتقدت الدراسة أســلوب الإعلان في فرنسا وقالت: إنه بالرغم من وجود تشـــريع خاص بتنظيم الإعلان والإشراف عليه، صدر عام 1973، ويقضي بحق المحكمة في المشـــاركة في صنع ووضع أسلوب إعلاني صحيح، إلا أن هذا التشريع بقي منذ صدوره مجرد حبر على ورق، وخلصت الدراسة إلى أن هذا الأسلوب ليس عملياً، وأن أنسب أسلوب هو المعمول به في إيطاليا الذي يسمى «بقانون الإعلان الشرعي» والذي يعتبر أن الإعلان يؤدي خدمة عامة للجمهور، ولهذا يجب أن يراعى أمن المستهلكين وتوضح بدقة، مثلاً، الشروط المطلوبة في حالات البيع بالتقسيط.

وعرضت الدراسة النتائج التي توصلت إليها والخاصة بحماية الشباب، فالطفل لا يصنع عالم المراهقة، ولكن هذا العالم هو الذي يصنع الطفل، وأن المراهق - وإن كان مذنباً - له الحق في الحماية والتعليم، وأن أعمال الإجرام عند الشباب يمكن أن تكون:

- عملاً تلقائياً.
- أو نتيجة رغبة.
- أو استغلالاً لفرص ما.
- أو تعبيراً عن ثورة.

– كما يمكن أن يكون الإجرام عند الشباب، أداة لعمل منظم وحسابات دقيقة، لتحقيق هدف معين، ودلت الدراسة على أن أنواع الإجرام عند الشباب ثلاثة:

– عمل إجرامي مباشر ضد أشخاص آخرين، مثل حالات الاغتصاب.

– عمل غير مباشر ضد آخرين، مثل أعمال السرقة.

– إجرام موجه ضد النظام العام، والأشخاص الذين يمثلونه، مثل الاعتداء على رجال البوليس، وعلى أصحاب العمل أو تخريب المنشآت العامة.

وترى الدراسة أن ازدياد عدد السكان، مع بقاء واستمرار مساحة الأرض على ما هي عليه تزيد من حالات العنف، وذلك بسبب ازدياد كثافة السكان في الكيلومتر الواحد.

فظهور حالات العنف داخل هذه الكثافة السكانية تسبب نوعين من رد الفعل، أحدهما سلبي يتمثل في الخوف والتوتر النفسي عند المواطنين، ورد فعل إيجابي يتمثل في مقابلة العنف بالعنف.

ويبين الجدول التالي نسب توزيع الجرائم على أعمار الأحداث المختلفة من مرتكبي الجرائم عام 77/76.

من تقل أعمارهم عن 13 سنة 6 في المائة.

من تتراوح أعمارهم بين 13 إلى 14 سنة 4.9 في المائة.

من 14 إلى 15 سنة 9.9 في المائة.

من 15 إلى 16 سنة 15.5 في المائة.

من 16 إلى 17 سنة 25 في المائة.

من 17 إلى 18 سنة 38.70 في المائة.

وتناولت توصيات واهتمامات المجموعة الخاصة بالشباب، بعد ذلك موضوع أوقات الفراغ، ورأت ضرورة:

– تنظيم العطلات المدرسية بحيث تؤدي إلى امتصاص الفراغ

عند الشباب، بالوسائل الرياضية أو غيرها.

- تكوين وسط اجتماعي صحي يساعد على التعارف والخبرة.

- قيام الدولة بتقديم المساعدات للبلديات لإقامة النوادي.

- تسهيل انضمام الشباب إلى النوادي الرياضية والاجتماعية لامتصاص طاقاتهم ونشاطهم.

- إتاحة الفرص والجو الملائم لانطلاق هوايات وملكات الشباب، والمساعدة على التفكير الجماعي.

- إقامة علاقات من التفاهم والاحترام بين المعلمين والطلبة، بحيث لا يشعر الشباب بالذنب عند ارتكاب الخطأ.

- الاهتمام بتكوين المعلم.

- الحماية القضائية للشباب الذي ارتكب جرائم، بحيث تمتد هذه الحماية للنشء الذي لا تتوافر له الرعاية.

- إقامة روابط بين الشباب والمؤسسات التي تخدمهم.

ودعت المجموعة في توصياتها إلى ضرورة التنسيق بين مختلف محطات التلفزيون للتخفيف من مشاهد الإجرام والعنف، والعمل على وضع هذه المشاهد في ساعة متأخرة من الليل، بحيث يكون الأطفال نياماً.

ضرورة العمل على منع الأطفال والأحداث من دخول الأفلام التي تعرض مشاهد عنف وإثارة لا تتناسب وأعمارهم.

كما دعا التقرير إلى أهمية استغلال وسائل الإعلام في توعية الآباء، عن طريق برامج تشرح العلاقة بين الأب والأم والأبناء، وحاجة الطفل إلى كل من العدوان والحماية والاهتمام به.

أما توصيات المجموعة التي تناولت بالدراسة موضوع «الجريمة والعقاب»، فقد تضمنت في مقدمة هذه التوصيات، أن 39 في المائة من الفرنسيين، يدينون وسائل الإعلام ويعلنون أن العنف يحدث بلا داع، وأن التلفزيون يعطي أهمية كبيرة للتفاصيل

الفرعية للجرائم، مما يدفع مرتكبي الجرائم إلى الإمعان في العنف، كما يدفع في الوقت نفسه إلى المحاكاة والتقليد.

وقد تولد عند المواطنين شعور بالخوف من جراء ازدياد أعمال العنف.

ودلّت الإحصاءات أن 50 في المائة من السكان يرفضون قيادة سياراتهم ليلاً في الشوارع الجانبية، وأن 57 في المائة من المواطنين يرفضون الخروج من منازلهم لقضاء العطلات.

كما ظهر شعور عام بالسخط إلى جانب الشعور بالخوف، ذلك أن المواطنين يأملون أن تتحرك الدولة لتكفل لهم الأمن والطمأنينة.

ويشعر الكثيرون أن المجتمع الحالي، مجتمع خطير، ومعاد، وأن العالم يتغير بسرعة من دون أن تتمكن الحكومات من السيطرة على هذا التطور.

وترى المجموعة في توصياتها ضرورة:

- إنشاء لجنة وطنية لإصدار الأحكام العامة الخاصة بالجريمة، ويكون من اختصاصات هذه اللجنة، التحرك والإجابة، على جميع المشاكل المتعلقة بجرائم المجتمع، ودراسة واقتراح الإجراءات الملائمة في جميع المستويات وفي كل القطاعات والأنشطة الاجتماعية، لتحقيق الحماية القومية في الأجل السريع.

- كما اقترحت اللجنة وضع خطة تستهدف الإقلال من الإجرام والعنف على المدى الطويل.

وقالت إن مثل هذا التنظيم قد عمل به في اسكوتلندا عام 1972، واتخذت فنلندا والدنمارك والسويد إجراءات مماثلة له.

- واقترحت المجموعة تكوين تنظيمات لا مركزية لإصدار الأحكام، يكون من مهمتها الربط بين أعمال الهيئات الأخرى الموجودة، وتكون هذه التنظيمات على مستوى المحافظات، وتكون

مهمتها إصدار القوانين واللوائح المتعلقة بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية.

- كما دعت إلى ضرورة تطوير دور المؤسسات القضائية، مع ضرورة تحقيق التقارب والتفاهم بين القضاة والمواطنين، وأن يوضع القضاة في الوضع الذي يجعلهم على دراية بمشاكل الحياة الاجتماعية اليومية.

وختمت اللجنة تقريرها النهائي، الذي جاء في 730 صفحة، متمنية أن يضع المسؤولون عن تحقيق العدالة هذا التقرير نصب أعينهم، آملين أن يتم تحقيق هذه التوصيات والمقترحات بفاعلية تضمن تحقيق العدالة، وفي الوقت نفسه تكفل الحرية الفردية للإنسان.

وقالت إن تحقيق العدالة يتطلب سلوكاً يتسم بمعاملة جمهور المنحرفين بإنسانية وواقعية، وهو ما تفقده أجهزة العدالة القائمة الآن.

وتنفيذ مثل هذا السلوك وتلك السياسة يقضي بتبني وسائل عمل حديثة.

كما يستلزم تحولاً أساسياً في العقلية المسؤولة عن العدالة، والتي لاتزال غارقة - بشكل ملحوظ - في بحر من الروتين، وتتأثر بمشارب واتجاهات كل جهة متخصصة ومسؤولة.

بودلير شاعر المرأة *

د.ماري فرنسيس **

من الشاعر الفرنسي المشهور شارل بودلير صاحب «أزهار الشر» نذكر هذا الشعر الخالد البارع في التعبير عن الملذات الحسية... ففي إبداع قصائده التي تبلغ القمة من حيث العمل الفني نجده منغمساً انغماساً تاماً في نشوة المتعة، وهو يشدو بالمرأة «مليكة المعبودات»، معبراً عن رغبته «المتموجة» التي تعلو وتهبط بين القمم والوديان لجسد المرأة «الرائع».

وإلى جانب هذا، كان بودلير يحس بحاجة ملحّة إلى أن يتصل بالمرأة، لا عن طريق الجسد فقط، بل عن طريق القلب والروح، ويفيض عليها هذه القوة العاطفية التي تكتظ بها جوانحه. وهنا نذكر له هذا الشعر الوجداني الذي يشدو فيه بإجلال وتمجيد المرأة «الملاك»، «الآلهة»، التي يوقد أفكاره كالشموع على هيكلها بينما تلمع هي كنجمة بعيدة المنال.

وإلى جانب هذين الوجهين (الحسي والروحاني)

---

* العدد -251 أكتوبر 1979

** كاتبة وأكاديمية من مصر

هناك وجه آخر للمرأة في شعره، ولكننا نكاد نجهله. وهذا الوجه كريه، ويصفه بودلير أبشع وصف. فتارة تبدو له المرأة «حيواناً قاسياً»، وتارة أخرى «حيواناً دنيئاً» أو مخلوقاً سافلاً.

وهذه المرأة في عالم بودلير تجسيد مؤذ لقوى الشر، وباعثة للبغض والهلاك، فهو يتصورها «مصاصة دماء» تهدم وتغني، وتمثل له صورة حية للشيطان في قصيدة «الغناء».

«يلازمني الشيطان دماً مستثيراً...
ولأنه يعرف حبي الكبير للفن
يتخذ شكل امرأة فاتنة مغرية
وبشتى الطرق والمحاولات يلصق شفتي بأقداح محرمة
وبهذا يبعدني عن أعين الله
متعباً جاهداً لاهثاً...».

وتبدو له علاقته مع تلك الشريرة «مبارزة» شيطانية بين رجل وامرأة هما:

«جنديان يندفع الواحد منهما صوب الآخر وقد نثر سلاحهما الضوء والدم في الهواء...

يا لثورة القلب الناضجة اجتاحها الحب...
يا لشيطان الحب، إنه يخلد أحقادنا إلى الأبد».

وكان بودلير يحس أشد الإحساس بهذا الصراع العنيف ويشعر برذائل هذا الطراز الشرير من النساء.

ففي قصيدة «الجواهر» يشبّه مفاتن المرأة بملائكة السوء، وفي شعره يرمي هذا المخلوق الشيطاني بمين اللعان.

فماذا كانت حقيقة شعور بودلير نحو هذه «الملعونة»؟

إنه يدهشنا حين يصرخ في «المرأة المفرطة المرح»:

«إني أكرهك بقدر ما أحبك!».

وتلك هي صرخة اليائس العاني... وفي قصيدته المشهورة «الشرفة» يقول الشاعر:

«وشربت أنفاسك أيها الدمار اللذيذ...».

فما نوع تلك الكراهية العاشقة؟

إذا حللنا هذه المشاعر «البودليرية» تظهر لنا سادية مؤكدة، وتتغذى هذه السادية من القسوة المفرطة نحو المرأة التي تبدو هنا فريسة حب بودلير الطاغي:

«سألتف حولك كالثعبان...

سأحكمك وأملكك

بقوة الخوف وحده...».

وفي قصيدة أخرى يصفها متلذذاً «بنَمِرَة مُرَوَّضَة» أو «عبدة مزهوّة بانتصار مولاها عليها».

وفي هذا العالم البودليري الغريب تحمل المرأة معاني الاشتهاء إذا اقترنت بالشقاء وامتزجت بالحزن حتى تحقق الإثارة الجنسية. فرغبة بودلير السادية تحصل لها اللذة إذا خيّل إليه أنه يضرب المرأة ويفجر دموعها بقسوته:

«سأضربك بلا غضب

وبلا كره... كالقصاب

كموسى وهو يضرب الصخر

وسأستدر من جفنيك الدموع

لأروي صحرائي بماء العذاب

وستبح رغبتي المملوءة أملاً

على دموعك المالحة

كسفينة في عرض البحر...».

وإذا كانت السادية تلون جانباً من شعره فإننا نرى «مازوكية» واضحة تلون جانباً آخر من شعره. ولبودلير المازوكي يتم السرور الجنسي بتحقيق العذاب لنفسه.

ويقول وهو يردد في شعره الشجي ممزوجة بنشوة الاستمتاع:

«... كل المحبوبين

أقداح مرة نشربها مغلقي العيون

والقلب المصاب بالنصال، متلوياً من الألم

يحتضر كل يوم، مباركاً السهام».

وهكذا تصل نفسية «بودلير» في صراع شبه دائم بين السادية والمازوكية، فهو ظامئ للقسوة وتعذيب الغير، كما هو ظامئ لتعذيب نفسه ومفرطاً على نفسه في الهوان والمذلة:

«أنا الجرح والسكين

أنا الصفعة والخد

أنا الضحية والجلاد».

فبالتناوب والتداخل تتحقق في نفسية بودلير ازدواجية السادية والمازوكية فهو الطاعن والطعين... إنه يستمتع بملذات مشبعة بالسوء ويشمل من عطور «أزهار الشر».

في عالم بودلير إذا كانت المرأة المقترنة بالعنف تبلور السادية والمازوكية عنده، فمن جهة أخرى تكشف المرأة «الغبية»، «الجاهلة»، عن احتقاره للنساء. فهو يصفها في شعره «بئر لا تفنى من الغباء»، ولا يعترف لها بأي مقدرة على مشاركته المباهج الذهنية ففي «قصيدة الخريف» المشهورة، تسأله الحبيبة، وهي

مستشـــعرة بتباينهما وعدم تكافؤها معه، قلقة على قيمتها الفكرية:

«مـا هـي قيمتـي بالنسـبة لـك أيهـا الحبيـب العجيب؟».

فيجيب هو بأمر حاسم:

«كوني فاتنة واصمتي».

وكان بودلير يهتم ويهيم بجمال المرأة وفتنتها، متجاهلاً بل مادحاً أحياناً غباءها وذهنها المغلق، المظلم فيقول:

«إن البلاهة هي زينة الجمال في أكثر الأحيان».

ونجده في شـــعره يقوم: من خلال صور تعبيرية، بلاهة المرأة المختارة، شادياً بعيونها البليدة، الفارغة من أي ذكاء... هاتان العينان.

«اللتان لا تحتويان على أي سر ثمين

علب حلي خالية، أنواط بدون ذخائر

أفرغ وأعمق منكم أنفسكم يا سموات».

وبعد هذا لا ندهش إذا رأينا بودلير يتحدث باحتقار ساحق وبشراسة عن المرأة في يومياته، إذ يقول:

«المرأة سطحية... غبية صغيرة... على الإنسان أن يضرب التي يحبها، كلما تعمقت في الفن، وكلما قللت من الاقتراب الجنسي».

وهكذا كان بودلير لا يقدر للمرأة أي ذكاء، فاهتمامه غالباً كان يتركز بحدة على جسد المرأة متغنياً بمفاتنه في نشوة لا نهائية.

غير أن الغباء النسائي، في عالم بودلير يبدو أحياناً مذلة أو عاراً:

«المرأة ظامئة تريد أن ترتوي، ساخنة

تريد إطفاء نارها بالقرب الجنســي... المرأة طبيعية

- أي فظيعة - سوقية...».

وبالرغم من هذه الآراء الساخطة، فهذا الشاعر «الجالس على عرش الخيال واللذة الحسية»، هذا الفنان المشغوف بالجمال، المأخوذ بما يعرض جسد المرأة تحت نظريته الفنية، يرى جمال الجسد الحافز لتلبية المثير هو:

«... موهبة سامية

تنتزع التوبة لأي عار...».

وهكذا كانت المرأة ثراء خصبا لشعر بودلير وعبقريته. وكان هو في الوقت نفسه فناناً قلقاً يحس بالندم على ضعف الإنسان أمام الشهوات... من خلف هذه «الوحشية» ما يقول في قصيدته «الفجر الروحي» كان يود دائماً.

«إن يستيقظ ملاك...

وتتفتح سماوات روحانيته في لازورد فضي أمام عيني الرجل الخاطئ المتألم...».

مسرحيات الحياة *

د. مكارم أحمد الغمري **

في الرابع عشر من فبراير عام 1847م وفي منزل شيفيريف الأستاذ بجامعة موسكو اجتمع لفيف من الأدباء المسكوفيين، وكان من بينهم موظف مغمور يعمل بإحدى المحاكم التجارية ويبلغ من العمر 23 عاماً. قرأ هذا الشاب على الحاضرين أول مسرحية له «صور السعادة العائلية»، وما إن فرغ من قراءتها حتى اقترب منه رب الدار ليصافحه قائلاً: «أهنئك كاتباً درامياً»، ولم يكن هذا الشاب سوى ألسكندر أوستروفسكي نفسه، ورغم أن الحاضرين في ذلك اليوم قد أثنوا على أول عمل مسرحي لأستروفسكي، إلا أن أحداً منهم حينئذ لم يفطن إلى أنه كان شريكاً لحدث تاريخي عظيم اعتبره النقاد فيما بعد «بداية ثورة في العهد الدرامي الروسي»، إذ برز أوستروفسكي في تاريخ الأدب الروسي كعملاق للفن الدرامي مكرساً له كل حياته الأدبية وواهباً له كل قواه وعبقريته وبذا استحق عن جدارة لقب «مؤسس المسرح القومي الروسي».

---

* العدد -246 مايو 1979

** أكاديمية من مصر

وعلى مدى 41 عاماً من حياته كرسها أوستروفسكي للفن المسرحي، استطاع أن يقدم خلالها 47 عملاً مسرحياً ومئات المقالات عن المسرح، جاءت في مجموعها معبرة عن أسس ومبادئ الفن الواقعي المسرحي في روسيا في النصف الثاني من القرن الـ 19 وأصبحت مدرسة لعديد من المسرحيين الروس، وسجلت هذه المسرحيات بكل صدق ما يقرب من نصف قرن من حياة روسيا بكل أبعادها الاجتماعية.

ولد إلكسندر أوستروفسكي في 12 أبريل سنة 1823م لأب قادر ذي حظ من الثقافة العالمية.

وبدا أوستروفسكي منذ سنوات طفولته المبكرة شديد الحب للقراءة. وساعدت المكتبة الكبيرة التي يقتنيها أبوه على تنمية هوايته وتطويرها.

وكانت المكتبة تزخر بروائع الكتاب والنقاد الروس الكبار حتى وبصفة خاصة يمكن القـــول إنه كان للآراء النقدية والجمالية للناقدين الروسيين الكبيرين بيلنسكي وجيرتسين فضل كبير في تشكيل ذوقه الفني والأدبي.

وجاء أوستروفسكي في الساحة الأدبية في الأربعينيات من القرن الماضي، في وقت كانت تتشكل فيه «المدرسة الطبيعية»، ولذا فقد كان إنتاجه المبكر مرتبطاً بأسس ومبادئ «المدرسة الطبيعية» التي ارتبط بأسسها أغلبية الأدباء الروس الذين ظهروا في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي. وقد تميزت الفترة التي برز فيها أوستروفسكي بانتعاش في الحياة الأدبية حيث انتشرت المحاضرات الأدبية العامة التي اجتذبت إليها مختلف القطاعات وبدأت تدعم المذهب الواقعي في الأدب ويتخذ طريقه نحو السيادة في التيار الأدبي العام.

وقد كان يسود الحياة في روسيا إبان تلك الفترة تيارات

اجتماعية وفكرية مختلفة، فمن جهة كان هناك تيار «محبي الروح الغربية» وقد كان مؤيدو هذا التيار يعتبرون أن طريق التطور الذي يجب أن تنتهجه روسيا هو طريق الإصلاحات الأوربية لديمقراطية الحياة السياسية. أما التيار الآخر «محبو الروح السلافية»، فقد كان أنصاره يرون الطريق إلى التطور في العودة إلى النمط التقليدي للحياة الروسية القديمة في التعلق بمظاهر الحضارة الغربية الدخيلة.

وعلاوة على ذلك، فقد بدأ يتضح التيار الثوري الديمقراطي وكذلك أفكار الاشتراكية الطوباوية، واجتذبت هذه الأفكار الشـــباب المثقف الذي أقبل عليها، ووجد أوستروفسكي نفســـه أيضاً تحت تأثير هذه الأفكار، ولاســـيما أنه كان قد تأثر بشدة خلال دراسته في المدرسة الثانوية بأفكار المتعاطين مع الأمزجة التحررية وبالمناخ الليبرالي الذي كان يسود كلية الحقوق وقت دراسته بها، وقد ساهمت كل هذه المؤثرات في تشكيل فكر أوستروفسكي الذي تميّز بالوطنية العالية وبالعداء للحكم القيصري واهتمامه بالفلاحين، وهم الأغلبية الساحقة من الشعب، وقد دفعه حبه للفلاحين إلى أن ينزل إليهم ليرقب حياتهم عن كثب، وكتب أوستروفسكي عن ذلك في مذكراته يقول: لقد بدأت التعوّد على القرية وطفت تقريباً كل الضواحي وتعرفت إلى بعض الفلاحين وشاهدت أعيادهم... أي شعب هم هنا؟

«إن لكل شخص منهم قيمته (ولم أقابل أي أوغاد)، إن كل ذلك ينتظر ريشـــة فنان، كما ينتظر الحياة من الروح الخلاقة».

ولذا توجه أوستروفســـكي بقلمه العملاق ليسجل بكل الصدق عالماً كاملاً تجري أحداثه في روسيا، أما زمانها (باستثناء المسرحيات التاريخية) فهو نصف قرن من حياة

الشعب الروسي.

لعل أصدق ما قيل عن مسرحيات أوستروفسكي هو وصف الناقد دبرولوبوف لها على أنها «مسرحيات الحياة»، فقد كان هذا الناقد الكبير يرى أن القيمة الحقيقية للمؤلف الأدبي تكمن بالدرجة الأولى في الصدق في تصوير الواقع، واعتبر أن هذه السمة كانت دائماً في المقدمة من أعمال أوستروفسكي، وكان يرى أن من أهم خصائص أوستروفسكي هي مقدرته على أن «يغوص في أعمال الإنسان، وأن يميز بين ما هو طبيعي وبين ما هو دخيل» ورغم اختلاف حدة النقد في مؤلفات أوستروفسكي المسرحية خلال فترات إنتاجها المختلفة، إلا أنه بقي طوال حياته الأدبية وفياً للطريق الذي اختاره وهو نقد الكيان الاجتماعي والسياسي لروسيا من منطلق حبه للشعب وحرصه على مصالح شعبه.

وعلى مدى مسرحياته بأجمعها برز أوستروفسكي كأديب شعبي حق وإذا نظرنا إلى نتاج أوستروفسكي فسنرى أنه يمكن تقسيم طريقه الفني إلى أربع مراحل:

المرحل الأولـــى: 1847 – 1851م: يربط الكثير من النقاد البداية الحقيقية لأوستروفسكي ككاتب مسرحي بمسرحية «إفلاس» (1849) فقد جلبت هذه المسرحية لأوستروفسكي شهرة أدبية كبرى، وأصبحت حدثاً أدبياً كبيراً، وقد طوّر أوستروفسكي في كوميديا «إفلاس» هذه، الموضوع نفسه الذي كان قد تناوله في أول تجربة مســـرحية له «صور السعادة العائلية» إذ ركّز على تصوير نوع العلاقات الإنسانية التي تسود بين طبقة التجار، وقد حاول أن يجسد الزيف والرياء والخداع الذي كان سائداً بينهم.

وكتب أوستروفسكي في أعقاب ذلك مسرحيتي «صباح شاب» (1850)، «حادث غير متوقع» (1851م)، بيد أن هاتين

المسـرحيتين لم يكلل لهما النجاح ثم كتب في أعقابهما مسرحية «العروس الفقيرة» (1852) التي صور فيها الظروف الصعبة التي تمر بها فتاة فقيرة تدعى ماريا من وسـط الموظفين حيث تدفعها هذه الظروف إلى «زواج المصلحة» من رجل لا يناسـبها ولا تختاره بعواطفها، وإنما تضطر للزواج منه لإنقاذ عائلتها من الوضع المالي الذي تئن فيه، وتحاول ماريا أن تتكيف مع حياتها وأن تصلح من زوجها المرتشي ولكن محاولاتها تبوء بالفشل.

اختلفت الآراء حول تقييم البطلة ماريا، وجاء أفضل تقييم لها في مقالة الناقد الروسي الكبير دبرولوبوف «مملكة الظلام»، فقد وجد في مشكلة البطلة صدى لمشكلة وجود المرأة الروسـية وحالة العبودية التي تعاني منها في ظل الظروف التي كانت تعيش فيها روسيا إبان تلك الفترة.

بمسـرحية «العروس الفقيرة» التي وضحت فيها روح الديمقراطية وانعكسـت عليها أصداء فترة الأربعينيات، تنتهي المرحلة الأولى من إنتاج أوستروفسـكي الذي جاء مكملاً لخط المسرح الروسي الكلاسيكي وممثلاً حقيقياً للمدرسة الطبيعية.

المرحلة الثانية: 1852/ 1854م: اعتبر أغلبية النقاد هذه المرحلة من نتاج أوستروفسكي بداية عهد جديد في فكره ونتاجه، مشـيرين إلى وجود نوع من الأزمة الروحية في أعماله. وإذا نظرنا إلى مؤلفاته في هذه المرحلة لألفينا نوعاً من الانعطاف عن الخط الـذي تميز به نتاجه من المرحلة السـابقة، فقد تجلى ابتعاده عن الطابع النقدي اللاذع الذي ينطوي على كشـف وفضح مساوئ الواقع. وبالرغم من الخط النقدي في مؤلفاته إلا أنه اتخذ أشكالاً خفيفة أكثر مما سبق.

حدد أوستروفسكي بنفسه في عام 1853م منهجه قائلا: «إن اتجاهي قد بدأ في التغيـــر. فنظرتي إلى الحياة في أول كوميديا لن تبدو قاســـية للغاية، إنه لمن الأفضل أن نجعل الإنسان الروسي يسعد وهو يرى نفسه على خشبة المسرح بدلاً من أن يحزن، فالمصلحون سيوجدون من دوننا، ولكي نعطي لأنفسنا الحق في إصلاح الشعب دون إهانته، فإنه يلزم أن نميـــط اللثام عما ينطـــوي عليه من طيبة، وهذا هو اهتمامي الآن، حيث أحاول أن أربط المثل الأعلى بالكوميديا».

أما مسرحيته «الفقر ليس عيباً» (1853م) فقد صور فيها الصراع بين القديم والجديد في وعي عينة ممثلة لطبقة التجار وعكس فيها نمط الثقافة الروسية القديمة والعريقة في صراعها مع الثقافات الدخيلة وانعكاسات هذا الصراع في وعي التجار - فلاحي الأمس - ونقل أوستروفسكي هذه الصورة بطريقة شاعرية نازعة. أما في مسرحية «لا تعش هكذا كما تريد» (1855م) فقد انتقل أوستروفسكي بمعاصريه إلى أحداث جرت قبل مائة عام من زمنه معتمداً في ذلك على التراث الشعبي. وقد حاول أوستروفسكي أن يبرز مثله العليا الأخلاقية في ثوب ديني.

المرحلة الثالثة: 1855 - 1860: كان لظروف الحياة في روسيا في الخمسينيات من القرن الماضي وما انطوت عليه من انتشار الفساد داخل النظام الإقطاعي الاستبدادي الذي وضحت مساوئه في حرب القرم، واندلاع الحركة الشعبية الواسعة لجماهير الفلاحين الأقنان، الفضل في لفت أنظار القيصر إلى ضرورة إجراء تعديلات شـــاملة لكل جوانب الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية، وكان لظروف الحياة الاجتماعية والسياســـية لتلك الفترة انعكاساتها

على الفكرة والحركة الأدبية، وتبلـور كل ذلك في موجة من النشاط تجسدت في المؤلفات التي كانت تنتقد بشدة النظام القائم وتلح بضرورة التغيير. وتأثر أوستروفسكي أيضاً بالمتغيرات الجديدة وانعكس هذا التأثر في اقترابه من المعسكر الديمقراطي وظهر ذلك عملياً في مسرحياته «المكان المربح»، و«المتأدبة»، و«العاصفة». فقد جاء هجوم أوستروفسكي الشديد على النظام البيروقراطي السائد وكشفه لعيوبه ومساوئه أو ما كان يسميه أوستروفسكي بـ «النظرة القاسية» للحياة، دليلاً على عودة الكاتب إلى صف الديمقراطيين. ففي مسرحية «المكان المربح» هاجم أوستروفسكي بشدة الهيكل البيروقراطي وحاول من خلال بطل المسرحية جادوف أن يكشف مساوئه والرشوة التي تسوده. فالبطل شاب ما لبث أن أنهى تعليمه والتحق بالمؤسسة التي يديرها عمه الذي كان يعيش معه في الوقت نفسه، وكان جادوف مفماً بأفكار عـن الحياة يمكن أن توصف بالمثالية بالنسبة لما يجري في الواقع، إلا أن أفكار البطل سرعان ما تصطدم بالواقع الذي يدفعه إلى التراجع عنها مقرراً أنه من الممكن العيش، وقـد تجلى صدق وواقعية أوستروفسكي في هذه المسرحية في الطريقة التي حسم بها الصراع بين البطل والواقع، فلو أن الكاتب ترك البطل يحقق في الحياة الأفـكار المثالية التي يتحدث عنها لبدا ذلك تشويهاً للواقع والحقيقة.

وتعتبر مسرحية «العاصفة» من أبرز كتابات أوستروفسكي في المرحلة الثالثة وأكثرها دلالة على تخطي أوستروفسكي مرحلة «الأزمة» التي مر بها. وتقع حوادث المسرحية في مدينة كالينوف على ضعاف الفولجا، وتعكس أحداثها واقع الحياة والعلاقات الاجتماعية لنماذج من سكان المدينة في

تلك الفترة، فنرى ديكوي أحد التجار الأغنياء في المدينة والذي يوصف بأنه «شخص معروف» يتعامل مع الجميع بقسوة وغلظة ويستولي على إرث ابن أخيه باريس الذي يعامله بحقارة ويكثر من سبابه.

أما عائلة كابونوفا التي تتصل بها الأحداث الرئيسة للمسرحية فتتألف من الأم مارفا كابونوفا وهي أرملة غنية من طبقة التجار وابنها يتخون كابونوفا وزوجته كاترين... وتبرز الأم مارفا كابونوفا في المسرحية كامرأة متسلطة على ابنها وزوجته، دائمة الشجار معهما وهي تحاول دائما الوقيعة بين ابنها وزوجته وتحيل حياتهما إلى جحيم، أما الزوجة الرقيقة كاترين التي تتميز بالرقة والوداعة والصفاء، فإن حياتها حزينة وهي دائماً حائرة بين الزوج المغلوب على أمره الذي أدمن على الشراب والأم المسيطرة الشرسة.

جاءت مسرحية «العاصفة» لتجسد نظرة أوستروفسكي لكل الطبقة التي تنتمي إليها عائلة كابونوفا. إلا أن أوستروفسكي لاحظ وجود بشائر أمل في نفوس بعض الأفراد الذين يحاولون الثورة ضد «قيود مملكة الظلام» وكانت كاترين هي تلك البطلة التي كانت تحمل نذيراً بالتغيير، فقد صورت المسرحية ذلك التضارب والصراع اللذين يمكن أن يحدثا مع امرأة سوية تقع في براثن عائلة مثل عائلة كابونوفا والمصير الذي يمكن أن تلاقيه مثل هذه المرأة. جاء اسم المسرحية «العاصفة» ذا دلالة رمزية، فقد تمثلت هذه العاصفة في كاترين التي كانت تتوق إلى الانطلاق وتحلم بالسعادة، مما جعل النقاد من معاصري أوستروفسكي يربطون بين مضمون المسرحية والأفكار التي تنادي بحقوق المرأة، أما شخصية كاترين فقد شاهد فيها الناقد الكبير دبرولوبوف «قبساً من نور في مملكة الظلام».

المرحلة الأخيرة 1861 – 1886م: تعتبر المرحلة الأخيرة من نتاج أوستروفسكي أطول فترة في نتاجه، فقد امتدت هذه الفترة ما يقرب من 25 عاماً كان فيها أوستروفسكي في قمة نضجه وعطائه. وقد تميزت هذه المرحلة عن المراحل الأخرى التي سبقتها برسوخ أفكاره ومعتقداته الفنية والاجتماعية، وتمكن أوستروفسكي في هذه الفترة من أن يشغل مكانة فريدة وبارزة في الأدب الروسي، وعلى الرغم من تنوع الموضوعات التي تناولها إلا أنها جاءت جميعها لتعكس بعمق ووضوح كل المتغيرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية في روسيا في أعقاب إلغاء قانون القنانة في سنة 1861م، وقد تميز وجه الحياة في روسيا في تلك الفترة ببروز طبقة جديدة على سطح الحياة من رجال الأعمال والتجار الذين جاءوا ليحلوا محل الطبقة النبيلة السائدة التي أخذت في الزوال، وقد تعددت بشدة أشكال وموضوعات مسرحيات أوستروفسكي في هذه الفترة أكثر من أي مرحلة سابقة، فقد كانت هناك مسرحيات تتناول تصوير حياة التجار، منها مسرحياته «الحقيقة شيء طيب أما السعادة فهي شيء أفضل»، «القلب ليس بحجر» ومسرحيات تعكس حياة الإنسان البسيط وذلك مثل مسرحيات «لوحات من حياة موسكو» و«الصديق القديم أفضل من صديقين جديدين» و«الأيام الصعبة» وغيرها. وكذلك مسرحيات يغلب عليها الطابع الهجائي وذلك مثل «لكل عالم هفوة»، «القلب الحار»، «الغابة»، «ذئاب وحملان»، وغيرها، ثم أنتج أيضاً المسرحية النفسية وذلك مثل مسرحيات «الحب المتأخر»، «الضحية الأخيرة»، «المرأة غير المهورة» و«المواهب والمعجبون»، و«بدون ذنب مذنبون»... وغيرها.

ورغم أن أوستروفسكي اهتم بالدرجة الأولى بالحياة

المعاصرة له إلا أن الماضي لم يغب عن اهتمامه، فقد كان من الطبيعي أن يتجه أوستروفسكي الإنسان والفنان ذو الوطنية العالية إلى التاريخ الروسي، وقد جاء اهتمامه بالموضوع التاريخي في الوقت الذي كانت فيه الدراما التاريخية في الأدب الروسي تعيش على فتات الدراما التاريخية ذات الاتجاه الرومانسي التي سادت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، إلا أن أوستروفسكي يخرج من دراماته التاريخية عن هذا الخط الرومانسي ليصور الماضي بصدق مبرزاً في صدارته دور الشعب.

وعن خاصية مسرحيات أوستروفسكي التاريخية كتب الناقد ماشينسكي يقول: «استطاع أوستروفسكي في مسرحياته التاريخية أن يقضي على التناقض بين الحقيقة التاريخية والخيال الفني، فقد اكتسب خياله الفني طابعاً تاريخياً، أما الحقيقة التاريخية فقد خلع عليها الشمول الفني».

خرجت أول مسرحية تاريخية لأوستروفسكي في عام 1861م بعنوان «كوزما زاخاريتش مينين سوخوروك» وقد استُقبلت كحدث تاريخي مهم في أدب الستينيات من القرن الماضي... صور أوستروفسكي في المسرحية صفحة درامية من التاريخ كان يقرر فيها مصير روسيا، إذ باتت روسيا التي كانت تمزقها النزاعات الداخلية لقمة شهية ومطمعاً للدخلاء والغزاة الذين يطمعون في ثرواتها، أبرز أوستروفسكي في شخصية مينين صورة البطل المناضل البعيد عن الجبن والخنوع والذي ينهض لإنقاذ الشعب، وقد تجسدت في شخصية مينين التضحية والإنكار للذات وحب الشعب الذي لا يتزعزع.

وفي مسرحية «القائد» (1865م) صوّر أوستروفسكي نمط العلاقات السائدة بين سلطة الإقطاع والشعب في النصف

الأول من القرن السابع عشر. ورسم في شخصية القائد صورة الإنسان المثقف الذي ينظر إلى رتبته على أنها ضيعة خاصة له ويستخدم مركزه الاجتماعي بطريقة مبتذلة ولا يتورع عن ابتزاز مرؤوسيه وعن أن يدنس شرفهم وكرامتهم، ولكي يخضع مرؤوسيه يحاول القائد أن يوهمهم بأن «أي سلطة من عند الله». برز القائد في المسرحية كتجسيد لمساوئ ومفاسد النظام الإقطاعي الذي نصبه ممثلاً في القيادة.

وخلاف هاتين المسرحيتين التاريخيتين كتب أوستروفسكي أيضاً المسرحيات التاريخية مثل «توشينا» (1867م)، «فاسيليا ميلنتيفان» (1867م) وغيرهما.

لم يكن طريق أوستروفسكي على خشبة المسرح سهلاً، فقد صادفت مسرحياته قبل العرض عقبات كثيرة وأقفلت أمامه أبواب المسارح القيصرية، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة الفنان العظيم الذي شق طريقه وتغلب على الصعاب، وقد كان الطابع النقدي اللاذع والخط الهجائي الذي انتهجه أوستروفسكي السبب في عدم رضا الدوائر الرسمية عن مؤلفاته، ورغماً عن هذا فقد تصدرت مسرحيات أوستروفسكي عروض المسارح في عصره، وقد كتب الناقد خولاف عن إحصائيات مسرحياته التي أخرجت وهو على قيد الحياة يقول: «من بين 47 مسرحية كتبها أوستروفسكي تم إخراج 40 مسرحية وهو على قيد الحياة، وعلاوة على ذلك أخرجت 7 مسرحيات أخرى كتبها أوستروفسكي بالتعاون مع مسرحيين آخرين بالإضافة إلى مسرحية مترجمة له و6 مسرحيات مقتبسة. وبذا فقد بلغ مجموع المسرحيات التي قدمها أوستروفسكي للعروض المسرحية 60 مسرحية».

ولأسباب الرقابة جاءت حياة أوستروفسكي الأدبية غير

متطابقة مع عروض مسرحياته على المسرح. فقد شاهد المتفرج على المسرح مسرحيات أوستروفسكي في نظام يختلف عن النظام الذي كتبت به ولم تستفد المسارح الحكومية من إمكانات هذه العبقرية. إلا أن هذا الموقف لم يثنِ أوستروفسكي عن سعيه إلى عرض مسرحياته على الجمهور مما دعاه إلى العمل على إنشاء مسرح خاص به.

وبالرغم من إثراء هذا الكاتب العظيم للفن المسرحي ليس فقط الروسي بل والعالمي، وبالرغم من أن معظم أعماله قد ترجمت إلى عديد من اللغات الأجنبية، إلا أن قراء العربية لم يتعرفوا إلا على القليل من أعماله، فمسرح أوستروفسكي من الغنى والإثراء والتنوع بحيث لا نبالغ إذا قلنا إنه يحتاج إلى حشد من المترجمين لينقله إلى القارئ والمسرح العربي.

دفاع عن الغزل الجاهلي *

نجمة إدريس **

أكثر الذين كتبوا عن الشعر الجاهلي ظلموا الغزل فيه.

ذلك أن تلك الكتابات روّجت لآراء أخذت كمسلمات تقبلها الكثيرون وآمنوا بها، وتتلخص هذه الآراء في الآتي:

- أن الغزل الجاهلي يرد موجزاً في بداية القصائد. ثم ينتقل الشاعر إلى موضوعات أخرى «أساسية».
- أن الدافع للإيجاز في الغزل يعود إلى صعوبة الحياة واضطراب الشاعر وعدم استقراره النفسي.
- الطبيعة لا توحي، لذلك يختار الشاعر «النسيب» وسيلة للتعبير في أول القصائد.
- انعدام الرقي الفكري أدى إلى الغزل الحسي.

ولكن لو نظرنا إلى هذه الآراء بعين جديدة واعية، وحاولنا أن نستقصيها ونحللها، لتكشفت لنا أشياء جديدة جديرة بالانتباه والتوقف عندها.

---

* العدد -272 يوليو 1981

** كاتبة وأكاديمية من الكويت

لنأخذ في البداية الرأي الأول... وهو القائل إن الغزل الجاهلي يرد «موجزاً» في بداية القصائد ثم ينتقل الشاعر إلى الموضوع الأساسي.

مما لا شك فيه أن القصيدة الجاهلية متعددة الأغراض، وإن كان يربط بين هـذه الأغراض خيط واحد أو أنها عمل فني متكامـل - كما توصل إلى ذاك الدارسـون للمعلقات - ولكن الملاحظ أن الشعراء كانوا يستهلون معلقاتهم وقصائدهم بالغـزل والوقوف على الأطلال، وهذا واضح في المعلقات السبع، وفيه دليل كبير على أن الاهتمام يوجه أول ما يوجـه للغزل... بل الحرص على جعله في مطلع القصائد. وليس صحيحاً أن الغزل والوقوف على الأطلال يأخذ جزءاً بسيطاً من المعلقة أو القصيدة، وإنما الواضح أن كمية أبيات النسيب وبكاء الأطلال تعادل في عددها أبيـات أي غرض آخر من الأغراض التي يوردها الشاعر في قصيدته، بل أحياناً تزيد في العدد. فمثلاً نجد أن عدد أبيات معلقة امرئ القيس كلها واحد وثمانون بيتاً، وعندما نقسم مواضيعها أقساما متفرقة فإننا نجد الآتي:

ثلاثة وأربعون بيتاً: غزل ووقوف على الأطلال.

ثمانية أبيات: شكوى ومعاناة من الهموم ووصف لتنقله وارتحاله في الفيافي والأودية.

عشرة أبيات: وصف لفرسه.

أربعة أبيات: وصف معركة الصيد التي أسفرت عن اصطياد ثور ونعجة.

اثنا عشر بيتاً: وصف البرق والسحاب والمطر.

ألا نجد من هذا الاستعراض أن أبيات الغزل تشكّل معظم القصيدة تقريباً، وأن الموضوعات الأخرى جاءت

وكأنها إضافات سريعة... كلمحات البرق؟!

ومثال آخر معلقة زهير بن أبي سلمى، إذ إن عدد أبياتها مجتمعة اثنان وستون بيتاً، ولو حاولنا تقسيم موضوعاتها فإننا نجدها كالآتي:

خمسة عشر بيتاً: غزل وذكر الديار المقفرة.

عشرة أبيات: مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف.

خمسة أبيات: وصف مكاره الحروب وأضرارها.

ثلاثة عشر بيتاً: ما فعله ورد بن حابس حين نقض الصلح بين عبس وذبيان بقتله حصين بن ضمضم، مما أدى إلى تفاقم الشر بين القبيلتين.

ثلاثة أبيات: السأم والتأفف من طول البقاء في هذه الدنيا.

ستة عشر بيتاً: حكم وأمثال.

ما نريد توضيحه في هذين المثالين هو أن النسيب عند الجاهليين لم يكن يقل أهمية عن أي موضوع آخر يطرقه الشاعر. لأن عدد الأبيات التي يخصصها للنسيب لا تقل عن أي أبيات في موضوع آخر، بل إن للغزل دائماً مركز الصدارة، لأن الشاعر يقدمه في الذكر. هناك دليلان إذا على أهمية النسيب عند الشعراء الجاهليين وهما:

أولاً: أن الشاعر يحرص دائماً على جعل الغزل وذكر المرأة في بداية قصائده ومطالعها. وهذا يدل على أن الشاعر يعطي هذا الموضوع الأفضلية والسبق.

ثانياً: أن الأبيات التي يخصصها للنسيب لا تقل عدداً عن الأبيات التي يخصصها لأي غرض آخر.

إذن فالمرأة في حياة الشاعر لا تقل منزلة ولا أهمية عن أي موضوع آخر يشغله ويستحوذ على اهتمامه. (وهذا واضح في معلقتي امرئ القيس وزهير بن أبي

سلمى).

إذاً التوصل إلى هذه الحقيقة يلغي الرأي الثاني تماماً، وهو الرأي القائل إن الشاعر الجاهلي يوجز في الغزل لصعوبة الحياة واضطرابها وعدم الاستقرار النفسي.

لا شك في أن الحياة الصحراوية فيها الكثير من الصعوبة والمعاناة في التنقل والترحال، وفي المناخ وطرق المعيشة، أي إنها حياة تسودها الخشونة والشظف، وما دامت الحياة كذلك فلابد أن الشاعر حينئذ يحاول أن يبحث في نفسه عن دفقة من الشعور ترقق جوانحه وترطب ظمأه وتبعث في نفسه شعوراً من الدفء والحنان يقلل من خشونة تلك الحياة ويخفف من صعوبة المشاق التي يعانيها البدوي في صحرائه، وما هو الشيء الذي يستطيع أن يولد في المشاعر نفسها ذلك الحنان وتلك الرقة ويمسح عن قلبه غبار الشدائد؟

إن هذا الشيء هو شعوره تجاه المرأة التي قد تحسسه بدفئها وعطفها فيتجه إليها ويجد في ذكرها تلك الواحدة الظليلة التي تقيه قسوة الحياة وخشونة العيش. وهكذا نجد أن صعوبة الحياة لا تؤدي إلى الإعراض عن الغزل وتجنبه، بل على العكس قد تدفع الشاعر إلى البحث عن مصدر آخر يخفف عنه تلك المشاق. وهذا المصدر حبه للمرأة وتجسيد هذا الحب في صورة ذلك الغزل الرقيق، ففي الغزل إذا تعويض كبير عن خشونة الحياة آنذاك وقسوة العيش المليء بالثارات والحروب، بل إنه من الضروري أن يولي هذا الموضوع اهتماماً خاصاً، لأنه الجانب الذي يحقق له التوازن في مشاعره وحياته.

أما الرأي الثالث الذي يقول بأن الطبيعة لا توحي فهو رأي مردود. فالشاعر العربي عاش متنقلاً في صحرائه

الواسعة، وبالرغم من أنه قد يعاني أحياناً قسوة هذه الصحراء وشدّتها، فإنها كانت بالنسبة له الوطن العزيز الذي لا يريد له بديلاً. لذلك فقد كان يجد في تلك الصحراء جمالاً وأيّ جمال، ولهذا أكثر من وصفها بأحسن الصفات... وصف سماءها الصافية ونجومها المتلألئة... وبرقها وسحابها ومطرها وأعشابها وحيواناتها، بل توقف عند كل صغيرة وكبيرة في هذه الصحراء مدققاً في الوصف والاستقصاء، وكان وصفه لها وصف المعجب المفتون. إذاً الطبيعة كانت موحية له بشكل واضح وربما يكون إعجابه هذا نابعاً من أنه لم يتعرف على بيئات أخرى غير البيئة الصحراوية، إذ كان البدوي ينتقل من مكان إلى آخر داخل جزيرته دون أن يغادرها إلى بيئات أخرى، إلا ما ندر من الشعراء.

إذاً هو لم يتعرف على مناطق أخرى غير الصحراء فلم يكن أمامه أي مجال للمقارنة بين هذه البيئة وغيرها، فانصب إعجابه على الصحراء وحدها. بل إن التحدث عن وجود الصحراء فقط يستوجب الاحتراز، فمن قراءتنا للشعر الجاهلي يتضح أن الشعراء ذكروا أنواعاً من الحيوانات تثير الدهشة... إنهم يصفون الحمار الوحشي والأسد والبقر الوحشي والثور وأنواعاً من الغزلان والوعول، والتكوينات النباتية والأشجار، مما يؤكد أن البيئة الطبيعية آنذاك كانت تختلف اختلافاً كلياً عمّا نتصوّر، وعمّا هي عليه الآن، فالبيئة حول الشاعر إذاً كانت غنية زاخرة وبديعة... بل ومتنوعة.

والملاحظة المهمة حقاً هي أن الشاعر الجاهلي كان يخلط بين الغزل والطبيعة بشكل واضح، بل يحاول المزج بينهما قدر إمكانه، وأوضح مثال على ذلك ارتباط الغزل

بذكر الديار المقفرة والأماكن الخالية التي غادرها الأحبة فيظل يسأل الآثار الباقية ويحاول استنطاقها مثل قول امرئ القيس:

وإن شفائي عبرة مهراقة

فهل عند رسم دارس من معول؟

وقوله:

ترى بعر الأرام في عرصاتها

وقيعانها كأنه حب فلفل

ففي هذا البيت نرى ربطاً بديعاً بين الحب والأرض والحيوان... وكأن هذه الأشـــياء أصبحت شيئاً واحداً يتحرك في قلب الشاعر.

وقول زهير بن أبي سلمى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتثلم

وقوله:

بها العين والأرام يمشين خلفه

وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وعند زهير نجد أيضاً ذلك الربط السابق، فهو يمزج بين حبه لأم أوفى وبين دارها المهجورة التي ترعى فيها الظباء والبقر وأولادها.

وقول طرفة:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوله:

خذول تراعي ربربا بخميلة

تناول أطراف البرير وترتدي

فعند طرفة الحب والطبيعة شيء متكامل... إنه مزيج

من شـــعور وأطلال وظبية... وخميلة... وثمار صورة متكاملة لا تتجزأ...

وقول عنترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي

وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

وقوله:

حييت من طلل تقادم عهده

أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

في الأبيات السابقة مجتمعة دليل كبير على أن الطبيعة كانت موحية للشاعر كل الإيحاء، لدرجة أنه جعل مظاهر تلك الطبيعة بأرضها وحيوانها ونباتها تذكره بحبيبته، وتوقظ حنينه وشـــوقه وتجعله يحوم في عالم كلي لا تفصل أجزاؤه.

أما الرأي الرابع، وهو الذي يناقش مســـألة الجانب الحســـي في الغزل الجاهلي، فهو أمر يؤخذ به ولكن بشيء من الحذر، فالقول بالحسية المطلقة شيء مبالغ فيه، بل يمكن القول إن الغزل آنذاك كان يتذبذب بين السمو العاطفي والوصف الحسي، بل قد ينحدر نحو الابتذال.

إن شخصية الشاعر وطريقة معيشته ونوعها هي التي تحدد هذا الاتجاه. فقراءة معلقة امرئ القيس - مثلاً - تدلنا على أنه إنسان يعيش حياة لاهية في عبث ولامبالاة، وعلاقاته النسائية تنطوي على الخبث والمجون، كحديثه عن يوم «دارة جلجل» وعن الحبلى والمرضع التي ألهاها عن ذوي التمائم. وهو إنســـان هوائي متنقل لا يستقر على حال... فكثرت علاقاته... وتعددت محبوباته... يقول:

كدأبك من أم الحويرث قبلها

وجارتها أم الرباب بمأسل

فهذه أم الحويرث الأولى... وأم الرباب الثانية...

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقالت لك الويلات إنك مرجلي

وتلك عنيزة الثالثة...

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل

وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وهذه فاطمة الرابعة. أما الباقيات فتحدث عنهن ولم يذكر أسماءهن، فمن المؤكد أن هذا النوع من العلاقات مع المرأة لا ينتج حباً ولا عاطفة... إن هي إلا نزوات عابرة لا يعلق منها الإحساس غير صورة حسيّة مهزوزة، ولو عاش امرؤ القيس هذا بصفاته هذه في أي عصر من العصور، فلن يصدر عنه غير هذا النوع من الغزل، والدليل أننا لا نجد هذا الابتذال لدى زهير مثلاً، بل إن له غزلاً رزيناً سامياً، وهو أمر ليس مستغرباً على زهير... فالمسألة إذاً ليست مسألة عصر، وإنما هي مسألة شخصية واستعداد وتكوين نفسي.

ولكن الملاحظ أن التمثل بالصفات المحسوسة هو الغالب على الشعر الجاهلي، وهذا ما يتضح عند طرفة - مثلاً - وعند النابغة أيضاً في وصفه للمتجردة زوجة النعمان. ويقول النقاد إن السبب في ذلك هو البدائية وانعدام الرقي الفكري عند الشاعر الجاهلي!! ولكن هل وصف المرأة بصفاتها الحسيّة أو صفاتها المعنوية يحتاج إلى عقل ثاقب وفكر رفيع راق؟

إن الشعر في أصله إحساس وفطنة وليس فلسفة أو نظريات علمية، والعرب قالوا أروع شعرهم وأعظمه قبل

أن يعرفوا علماً ويبنوا حضارة. وإنما يمكن تفسير الاتجاه إلى الوصف الحسّي تفسيراً آخر، وهو أن نوعية العلاقة بين الرجل والمرأة ونوعية الحياة حينذاك لم تكن تتيح للشاعر غير هذا النوع من الغزل، فهو لا يرى المرأة إلا لمحاً، إنه يراها عندما تخرج من خيمتها أو عندما تركب دابتها أو عندما تطل من هودجها في لحظة وداع... إذاً ما هي إلا لمحات خاطفة ونظرات قليلة سريعة لا يرى فيها الشـــاعر إلا مظهراً خارجياً يشده فيصف المرأة كشيء مادي ظاهري كما رآها بعينه المجردة.

إن طبيعة الحياة البدوية وانشغال الرجل بالغزو والحروب أوجدتا نوعاً من الانفصال بين الطرفين، فالرجل إذا لم يخالط المرأة في مجلس أو يجتمع معها في عمل أو يشاركها في اهتمام ما، فكيف يتسنى له والحالة هذه أن يصف نفسها المعنوية وهو لم يعرف تلك النفس ولم يتلمس تلك الصفات الخفية عـــن قرب يتيح له فهمها وتشربها؟ أليس في هذا ســـبب قوي لاندفاع الشاعر الجاهلي نحو الغزل الحسّـــي حتى أصبح هذا الاتجاه من أهم العناصر التي تميّز بها؟

سيمون دي بوفوار والجنس الآخر*

د. سامية أحمد أسعد **

لا شك في أن الكثيرين يذكرون سيمون دي بوفوار، رفيقة ج. ب. سارتر في الحياة والكفاح والكتابة. ولا شك في أن الكثيرين يذكرون أيضاً النبرة المبتكرة التي تميزت بها كتاباتها عامة، وكتاباتها عن المرأة خاصة. وبعد مرور ما يزيد على 30 سنة على تلك الكتابات، وبعد وفاة سارتر نتساءل: ما الذي يمكن أن تكتبته سيمون دي بوفوار عن المرأة اليوم بعد تجربتها الطويلة الشاقة؟ هل تغيرت نظرتها إلى بنات جنسها على ضوء الأوضاع السياسية، والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على عالمهن؟ وهل أصبح ما سبق أن قالته عنهن غير ذي موضوع اليوم؟ نحاول هنا أن نعيد قراءة أشهر ما كتبت في هذا الصدد، أي كتابها عن «الجنس الثاني» ولسوف نتبين أن كثيراً مما قالته ينطبق - مع الأسف أو لحسن لظن، حسب وجهات النظر - على المرأة اليوم.

عام 1949، بدأت سيمون دي بوفوار تنشر أعمالها الروائية، بعد أن حققت حلماً طالما راودها في فترة المراهقة، ألا وهو اكتسابها حريتها على الطريقة الروائية، بعد أن حققت حلماً طالما راودها في فترة المراهقة، ألا وهو اكتسابها حريتها على الطريقة الفرنسية. وإذ تحقق الحلم تحملت مسؤوليتها كاملة وعاشت مع الفيلسوف سارتر، ومن خلال رواياتها وأبحاثها أصبحت قادرة على معاونة الآخرين على تحقيق

* العدد -277 ديسمبر 1981

** أكاديمية من مصر.

ذاتهم. وفجأة كفت عن تخيل القصص والحكايات ووجهت لنفسها هذا السؤال المذهل البسيط: «ما أنا؟» وردت قائلة: «أنا امرأة» ومن ثم، كان هذا السؤال الآخر: «وما هي المرأة»؟ واستطردت قائلة: «تلك الحرية التي اكتسبتها بصعوبة واستخدمتها، اكتسبتها وسط الخسائر المؤكدة، وكنت الأقوى، وسيطرت على مصيري، لم تتكبد المرأة كل هذه المشقة لكي تكون امرأة؟».

إزاء هذه الأسئلة، استخدمت سيمون دي بوفوار حريتها الشخصية، والسلاح الذي صنعته لنفسها وكتبت عن «الجنس الثاني» (1949) كتاباً مهماً لاقى نجاحاً منقطع النظير، وزاد من شهرة صاحبته.

ترى سيمون دي بوفوار أن قيمة الإنسان تتوقف على الحرية التي اكتسبها وعلى مسؤولياته نحو نفسه ونحو الآخرين، إن حرية الاختيار معطاة تقريباً للكاتب والمثقف، بينما على العامل والزنجي والمرأة الذين تجمع بينهم تبعيتهم للآخرين أن ينتزعوا حرية الاختيار هذه، لم تكن مؤلفات الكاتبة تنبئ بشيء مما تضمنه «الجنس الثاني» من مطالب إنسانية، أولاً قبل أن تكون نسائية. كل ما هنالك أن بعضاً من بطلات رواياتها شعرن بالعجز عن الوجود، والخلق والحياة، واستسلمن لنوع من مركب الفشل. ولنوضح منذ البداية أن الكاتبة قالت إنها لم تتألم قط لأنها امرأة، وأنها بدلاً من أن تتنكر لصفتها هذه، أكدتها، وتحملت مسؤوليتها كامرأة كاملة.

في الجزء الأول من «الجنس الثاني»، وعنوانه «الوقائع والأساطير»، تصور الكاتبة وضع المرأة على أنه أدنى من وضع الرجل، وتقرب الصفحات الأولى بين المذلة التي يشعر بها كل من العمال والنساء والشعوب التي تنظر إليها شعوب أخرى نظرة عنصرية، فمما لا شك فيه أن «المرأة الخالدة» مرادف «للروح الزنجية»، وأيا كانت الدرجة التي وصلت إليها القضية اليوم، فإن المرأة ورثت ماضياً مثقلاً بالمذلة والاستعباد.

فهي لم تتساو مع الرجل أبداً، من الناحية التاريخية، والأسباب الاقتصادية لوضعها هذا معروفة للجميع.

فلقد اختلط تاريخ المرأة بتاريخ الميراث، قروناً عدة وظل مفهوم الزنا مرتبطاً بمفهوم الملكية فترة طويلة، إلا أن النظرة الوجودية في «الجنس الثاني»، تلقي ضوءاً جديداً على المصادر النفسية لتاريخ المرأة الغريب.

وتلاحظ سيمون دي بوفوار أن الرجل كان - منذ فجر التاريخ - صانعاً ومخترعاً خلاقاً - بينما كانت المرأة مشغولة بالإنجاب والوضع، وأن الفارس والمحارب كانا يجيئان دائماً في المقدمة بالنسبة لرفيقاتهما، لماذا؟ لأن الإنجاب لا يعمل إلا على استمرار الحياة المتكررة دوماً، داخل دائرة عبثية ظاهرياً، في حين أن الرجل «يوجد» بالقدر الذي يعمل به شيئاً هكذا، لا تلتقي المرأة بالوجود، وإن كانت قد وهبت الاستمرار للحياة، وهذا التناقض الجوهري بين الرجل والمرأة هو أول مفاتيح «الجنس الثاني».

هكذا جعل الرجل للمرأة مرتبة أدنى من الناحية التاريخية، ثم قادها إلى قبول وضعها هذا نتيجة لسلسلة من الحيل والخدع، فاخترع أسطورة «المرأة الخالدة»، وعرف المرأة الحقيقية وفقاً لاحتياجاته ورغباته الخاصة.

والشيء المبتكر حقا في هذا الكتاب - ضمن أشياء أخرى بالطبع - هو رجوع الكاتبة إلى الوراء. إلى أصل الخدعة التي توصل الرجل بفضلها إلى تجريد المرأة من كينونتها. وإذ تلقي سيمون دي بوفوار الضوء على هذه القضية، يظهر الرجل أمامنا في عزلته الأصلية التي يحاول تخطيها بفضل الرفيقة التي تعطيها له الحياة، من خلال المرأة يحاول الرجل أن يصل إلى سر الحياة.

وتقول الكاتبة في هذا الصدد: «ينتظر الرجل من امتلاكه للمرأة شيئاً آخر غير إشباع غريزة بعينها، فهي الشيء المميز الذي يستعيد الطبيعة من خلاله». لكن امتلاك الرجل للمرأة وانتهاكه سرها عاجز عن تخليصه من قلقه وشعوره الأصلي بالذنب. وتبدأ سوء نية الرجل عندما يسقط على المرأة هذا القلق وهذا الشعور بالذنب، هكذا تصبح

المرأة مردفاً للخطيئة والموت والكذب. وفي النهاية يعمل الرجل جاهداً على الفصل بين مظهري الأنوثة: الأم/ الموت، والمرأة/ الجسد، وتقف سيمون دي بوفوار طويلاً عند هذا التناقض الأساسي لأنه كان إلى حد كبير سبباً في وضع المرأة في الماضي وفي الحاضر. وعنه نشأت كل أنواع استعباد المرأة جنسياً.

وإذ أدرك الرجل أنه محكوم عليه بالمرض والشيخوخة والموت، أراد أن يرى في المرأة دواء لأمراضه تلك.

فأرادها جميلة شابة صحيحة. حتى لو أراد الرجل أن ينسى أن رفيقته كائن بشري مثله محكوم عليه بالشيخوخة والموت، فحري بنا أن نذكره بالأمر. فبأي حق يطالب المرأة بأن تكون كاملة ثابتة لا تتغير؟

والقضية التي تعالجها الكاتبة في الجزء الثاني من «الجنس الثاني»، وعنوانه «التجربة الحية» أكثر جدية وإثارة للجدل والنقاش، وربما لأنها تمس ما يمكن أن يسمى طبيعة المرأة، تقول سيمون دي بوفوار في مطلع الكتاب: «المرأة لا تولد، بل تصبح كذلك، ما من مصير بيولوجي، أو نفسي، أو اقتصادي كان يحدد وجه الأنثى داخل المجتمع الإنساني».

وهذه أهم نقطة يعالجها «الجنس الثاني». فالمرأة تخلق كلية نتيجة لتكوينها، وتربيتها ووضعها. ويكاد يستحيل علينا أن نعرف ما إذا كانت قدرة المرأة على الانفعال وإحساسها بالنقص أمرين طبيعيين أو لا. ترى الكاتبة أن مصير المرأة يتوقف على التربية. فالفتاة السلبية تتربى، منذ مطلع حياتها، على السلبية المصطنعة: التجربة العائلية التي تضع إياها في مكانة مهمة، ونصائح أمها، تلك الأم التي تفضل أن تجعل من ابنتها امرأة حقيقية، وأساطير أدب الأطفال التي تصور الرجل على أنه البطل والمنقذ دائماً، وتصور المرأة على أنها الضحية الشهيدة دائماً. وأخيراً، التربية المنسوبة إلى الدين التي تعود الفتاة على التنازل أمام الرجل. بالتالي بدلاً من أن تعمل الفتاة المراهقة على تأكيد ذاتها، والزيادة من قيمتها الإنسانية، تعلم أن كل تأكيد لذاتها يقلل من أنوثتها، وقدرتها على الإغراء. من الواضح إذن أن هنالك عيباً أساسياً في

تربية البنات، عيب ناتج عن أن الأم عندما تربي ابنتها، تضيف رغماً عنها حلقة جديدة إلى سلسلة الشعور بالنقص التي سبق أن كبلتها بها أمها، وتذهب سيمون دي بوفوار إلى أبعد من هذا، وترفض أي فرق طبيعي بين الولد والبنت.

وتعترف سيمون دي بوفوار بأن الزواج هو المصير التقليدي للمرأة، لكنها تفرق بين الزواج والحب. فالزواج يفهم على أنه وظيفة اجتماعية اقتصادية. وفي هذا الموضوع كتبت هذه الكلمات التي أثارت كثيراً من الجدل حول «الجنس الثاني»: «مبدأ الزواج مبدأ فاحش، لأنه يحول إلى حقوق وواجبات تبادلاً يجب أن يقوم على الانطلاق التلقائي، أن نطالب زوجين تربطهما بعض المصالح العملية والاجتماعية والمعنوية، بأن يمتع كل منهما الآخر طول حياته ضرب من العبث الخالص». قد يكون كل هذا صحيحاً، والزواج القائم على الدوافع الاقتصادية - فحسب - أسوأ نوع من العبودية يمكن أن يكون.

ومع هذا، هناك حقيقة غنية عن البيان ألا وهي: أن الناس لم يجدوا حتى الآن علاقة أساسية بين الرجل والمرأة يمكن أن تحل محل الزواج.

وتبدأ س. دي بوفوار الفصل الخاص بالأم بعرض موضوعي لموضوع الإجهاض، وترى أنه من الضروري في فترة يهدد فيها العالم التضخم السكاني ومجاعة عامة قد تشمل كوكب الأرض كله، أن تطرح صراحة للبحث موضوعاً لم تجرؤ الأخلاقيات التقليدية على بحثه حتى اليوم، موضوعاً يجب تخليصه من طابعه السري وأصدائه الفاسدة أولاً وقبل كل شيء، فضلاً عن أنه مشكلة يومية عامة أقرب إلى كل منا أكثر مما نتصور.

إن خطر الإجهاض يضع المرأة على مستوى يختلف كل الاختلاف عن مستوى الرجل في كل ما يتعلق بالجنس، والحب، والزواج والحياة، لدرجة أن الطفل يصبح في قلب القضية النسائية، حتى قبل أن يقبل أو يرفض. فالإنجاب هو القضية الكبرى لا بالنسبة للمرأة فحسب،

بل بالنسبة للرجل أيضاً. فهو إيمان بالمستقبل وفعل خلاّق بمعنى الكلمة، ولابد أن يفترض فلسفة معينة للوجود، وعلى ضوء الفلسفة الوجودية بالذات، علينا أن ننظر إلى النتائج التي توصلت إليها الكاتبة في «الجنس الثاني».

كثيراً ما عاب النقاد على س. دي بوفوار عدم تفهمها لوظيفة الأمومة عند المرأة وعدم إعطائها أهمية كافية للعلاقة التي تقوم، في أغلب الأحيان، بل وفي كل والحالات، بين المرأة الحامل والطفل الذي تحمله.

إن التشاؤم الأساسي في «الجنس الثاني» لا يفسره إلا جزئياً رفض الكاتبة إعطاء الأمومة المكانة التي تستحقها في حياة المرأة، وهي مكانة يستحيل علينا تحديدها بالضبط. فكتاب س. دي بوفوار ينخرط في حركة أكبر منه، ألا وهي ثورة الفلسفة الوجودية كلها على عبث الحياة التي تكتفي بتكرار نفسها. وعندما تعترف الكاتبة بأنها تشمئز من سر الجنين الغامض «تلك المادة الرجراجة التي تتكون في الرحم»، وعندما تتحدث عن الجنين الذي يبدأ حلقة تنتهي إلى الموت، تفعل ذلك بوصفها فيلسوفة: فالمادة اللزجة سالفة الذكر لا تخص داخل المرأة فحسب، بل تختلط أيضاً بغثيان الوجود الذي يعرفه الرجال، وإذا كانت تركز على الاغتراب المتمثل في الحمل، وتجربة الوضع والعواطف المتضاربة التي تكنها الحامل للجنين الذي تحمله، فذلك لأن الحامل تخدم الحياة العبثية، لا الوجود الواعي.

وإذا نظرنا إلى الكتاب من هذه الزاوية، وجدنا أنه يقترح على الأقل نتيجتين لا يمكن إلا أن نقبلهما: الأولى أن الإنجاب التزام، بل أخطر أنواع الالتزام مادام يتوقف عليه مستقبل كائن بشري. والثانية أن المرأة جعلت لكي «توجد» بوصفها كائناً بشرياً أولاً، وقبل كل شيء، وتتلخص الفكرة الأساسية في الكتاب في أن الأمومة ليست سوى إحدى إمكانيات اكتمال المرأة، إمكانية تنخرط في حركة فكرية كبرى، ولا يمكن أن تكتمل ذات المرأة بالأمومة إلا إذا اختارت تلك الأمومة بمنتهى الحرية.

إذن السبيل الوحيد لكي لا تكون المرأة تلك المربية الهوائية، القلقة تارة،

والصادية تارة أخرى، هي إبقاؤها على علاقتها الأساسية المحسوسة، بالعالم الخارجي، لكن إلى أي حد يمكنها ذلك؟ يتوقف مستقبل المرأة كله على الإجابة عن هذا السؤال.

ويصطدم تحرير المرأة أساساً بنوع الرفض اللاشعوري والمقاومة المبهمة من قبل النساء أنفسهن، والرجال أيضاً بطبيعة الحال، والموضوعان مرتبطان.

إن مستقبل المرأة وخلاصها يتمثلان أولاً، في ما يبدو، في مشاركتها الفعالة في المسؤوليات التي تحملها الرجال وحدهم حتى الآن، وانعكاس حريتها على العالم الخارجي إذن، قد يكون النشـــاط المهني السبيل الوحيد إلى أن تكتســـب المرأة، في آن واحد، استقلالها الاقتصادي، وتلك ميزة لا تقدر بمال.

إن ارتقاء المرأة أماً كانت أم لا، عاملة كانت أم بورجوازية، ينخرط في الواقع في الحركة العاملة التي تدفع البشرية إلى درجة أعلى من الحرية والوعي، بفضل مستوى معيشي أعلى. وبعد هذا التطور بقدر من الراحة المادية، واســـتخدم منطقي للموارد التي تضعها الحضارة في متناول يد كل منا. وعلينا أن نتصور حياة المرأة مستقبلاً داخل هذا المنظور المتغير دائماً.

هكذا حالت س. دي بوفوار أن تحدد وضع المرأة في المجتمع الحديث منددة بأسطورة الأنوثة، ذلك السراب الذي طالما ساعد المرأة على قبول تبعيتها للرجل وسلبيتها أمامه. ما بينت أن الحدود التي تصطدم بها المرأة ليست طبيعية، بل ناتجة عن القانون والأخلاق، وأن التبادل منعدم في العلاقة بين الجنسين إذا حاولت المرأة أن تستقبل مهنياً أو عاطفياً. حاول الرجل المهدد في تفوقه المزعوم أن يعيق تطلعها إلى المســـاواة، عندئذ لا يسع المرأة إلا أن تلجأ إلى السلبية والكبت أو العدوان. وكلتا الحالتين أبدع ما تكونان عن الأصالة.

كما حاولت الكاتبة أن تكتب من جديد تاريخ المرأة والشـــكل الذي اتخذته في أعمال بعض الكتاب أمثال بريتون، وكلوديل ود. هـ لورنس...

إلخ، لكي تؤكد الأدوار المتناقضة المتكاملة التي تضطلع بها المرأة.

وسواء كانت زوجة أو أماً، خاضعة أو متحررة، فاضلة أو مبتذلة، تعرف المرأة دائماً بالنسبة للرجل لا بالنسبة لنفسها. لكن التطور الاجتماعي والاقتصادي ساعد على اكتساب المرأة استقلالها على المستويين المهني والعاطفي، وإذا كانت المرأة المستقبلية تضطر أحياناً إلى أن تؤكد ذاتها على مستوى التحدي، فذلك يرجع إلى أن التطور النفسي متأخر بالنسبة لبداية التحرر، والمساواة الكاملة بين الجنسين أن يتخليا عن سراب الأنوثة من أجل حقيقة الإخاء والمحبة.

لم تقف س. دي بوفوار عند حد الحديث عن المرأة عامة، بل تجاوزته إلى الحديث عن نفسها وتجربتها الخاصة في سيرة ذاتية تغيرت عناصرها على مر السنين، في هذا الصدد تعد «مذكرات فتاة عاقلة» (1958) وثيقة لا تضارع، تتحدث عن الظروف التي اختارت فيها فتاة تربت على احترام القاليد بعض القيم، اختياراً حراً، وإن كان ثمن ذلك قطع صلتها بكل ما تلقته من ذويها.

في هذا الكتاب تتحدث الكاتبة عن طفولتها البورجوازية، وتواصل الحديث إلى أن تنتهي إلى لقائها مع سارتر. وفي عام 1960 واصلت س. دي بوفوار سيرتها الذاتية في كتاب ثان عنوانه «شرخ الشباب»، غطت فيه الفترة بين 1929 و1944. تقول لنا الكاتبة، في الصفحات التمهيدية، إنها نوت أن تقصر حديثها على العشرين سنة الأولى من حياتها. لكنها أحست شيئاً فشيئاً، بضرورة مواصلة الحديث،، يبدأ الكتاب مع خريف 1929، لقد وضع نجاح س. دي بوفوار في «الأجريجاسيون» حدا لحياة التبعية ضيقة الأفق التي تحدثت عنها في كتابها الأول. إنها من الآن فصاعداً حرة في اختيار حياتها، حرة في اكتشاف عالم البالغين الذي لا يصرف عنه إلى القليل.

لقد حدثتنا في كتابها الأول عن الظروف التي التقت فيها سارتر، أما الآن، فقد ارتبطت حياة كل منهما بالآخر، بالرغم من الصداقات المختلفة التي ستحاول أن تفرق بينهما. في عام 1931، عين سارتر

في ميناء القاهرة، بينما عيّنت سيمون في مارسيليا، لابد إذن من أن ينفصلا. الإجازات وحدها ستمكنهما من أن يلتقيا. هكذا قاما بأولى رحلاتهما إلى إسبانيا وبريطانيا.

وسرعان ما نقلت سيمون إلى مدينة روان. وساعد هذا التقارب المفاجئ على تيسير الحياة لها ولسارتر. هكذا خاض الاثنان تجربة الحياة أمام خلفية عاصفة متمثلة في فترة ما بين الحربين. ومن ثم كانت الاكتشافات والصداقات والرحلات، والمحاولات الأولى في الكتابة. ودخلت حياتهما وجوه جديدة، منها على سبيل المثال، أولجا التي أوحت إلى سيمون دي بوفوار بالملامح الرئيسة للشخصية النسائية الأولى في «الضيفة».

وفي عام 1938 انتقلا إلى باريس، وبدأت سيمون كتابة «الضيفة» بينما كان خطر الحرب يزداد يوماً بعد يوم، وفي عام 1939 بدأت مرحلة جديدة في حياة الكاتبين، مرحلة سيطر عليها الالتزام السياسي والأدبي، وأسر سارتر. وهرب في ربيع 1941 وأخيراً نشرت س. دي بوفوار روايتها الأولى، وبدأت في الحال كتابة روايتها الثانية، وتنتهي هذه الوثيقة المهمة عن فترة تربو على الـ 15 عاماً بالحديث عن تحرير باريس.

وفي عام 1963 نشرت س. دي بوفوار الجزء الثالث من مذكراتها تحت عنوان «قوة الأشياء» التي تواصل فيها سيرتها الذاتية بصراحة خلت من الغرور، وتتحدث فيها عن الفترة التي انقضت بين عام 1944 وتحرير باريس. ومنذ عام 1944، أصبحت كاتبتنا شخصية عامة، واختلطت أكثر من ذي قبل بالأحداث السياسية، والملاحظ أن عدداً من التجارب التي نشرت من قبل غابت في هذا الكتاب، والذكريات هنا من كل نوع: ملامح من الحياة السياسية والاجتماعية، حديث عن الكتب والأقلام، لقاءات... إلخ، وترى الكاتبة أن لكل شيء أهميته، لأن كل واقعة ليست جوهرية في حد ذاتها. وابتداء من الحرب تصبح قصة س. دي بوفوار قصة مؤلفاتها التي نشرتها على مر السنين، الروايات أولاً، ثم كتابها عن «الجنس الثاني» ثم أحداث مايو 1958 وتولي الجنرال ديجول الحكم.

وينتهي الكتاب عام 1963 واستقلال الجزائر، وتختتم الكاتبة كتابها بهذه الكلمات: «أهم شيء حدث لي، منذ عام 1944 هو أنني تقدمت في السن».

يتضح من كل هذا أن سيمون دي بوفوار وجه بارز مؤثر من الوجوه الأدبية التي ترتسم على خلفية قرننا العشرين. ولربما كانت أفضل مثال للكاتب الذي وفق إلى المطابق شبه التامة بين حياته ومؤلفاته ووقف موقف الفنان الصادق الأصيل المتعاطف إلى أقصى حد مع الإنسانية.

والآن في عام 1981 هل يمكن أن نقول إن المرأة قد تحررت، كما تريد س. دي بوفوار؟ وإلى أي مدى؟ إذا أخذنا بعض الأمثلة، وجدنا أن المرأة الأمريكية قد تساوت بالرجل إلى حد جعل الرجل يطالب بالمساواة بها، في حين أن المرأة في بعض بلاد العالم الثالث، لاتزال مشدودة إلى دائرة الأسرة والتقاليد وأوضاع اقتصادية بعينها، وبين هذين النقيضين نرى المرأة وقد تبوأت أعلى المناصب، وأصبحت رئيسة دولة، ورئيسة وزراء ووزيرة وزعيمة... إلخ.

إن كثيراً مما طالبت به س. دي بوفوار قد تحقق للمرأة اليوم. ولنذكر أن الشريعة الإسلامية أفردت للمرأة مكانة تليق بها. وأعطتها حقوقاً تكفل لها الحياة الحرة الكريمة. وإذا كنا نتفق مع س. دي بوفوار في كثير من النقاط، فإننا نختلف معها في نقاط أخرى، كإباحة الإجهاض، الذي يعتبر بمنزلة قتل للنفس المنهي عنه شرعاً، والمساواة التامة بين الرجل والمرأة. فهذا النوع من المساواة - علاوة على أنه مستحيل تقريباً - قد يفضي إلى قلب الأوضاع، بحيث تكون المرأة هي أول من يدفع ثمن ذلك... والحديث عن هذا الموضوع قد يطول... وفي ما يتعلق بعالمنا العربي خاصة، نقول: إن المرأة، سافرة كانت أو محجبة، عاملة كانت أو ربة بيت، لن تتحرر... إلا إذا تغيرت نظرة الرجل إليها.

الجاحظ والكتابة للعامة*

د. وديعة طه نجم **

يكاد الجاحظ أن يكون أول كاتب عربي يهتم بجميع طبقات الناس، وينقل حكاياته عن شخصيات من عامة الشعب... يجالسهم ويسمع أحاديثهم، ويصفهم بالبعد عن الكذب والنفاق، وهو ما يبدع فيه الآخرون!

هذه الحكاية يرويها القاضي المحسن التنوخي... من كتاب القرن الرابع الهجري في معرض حديث له في كتاب «الفرج بعد الشدة» ضمن حكايات بعض من تعرض لمخاطر قطاع الطريق أو امتحن بسرقة ماله من قبل اللصوص، ثم جاءه الفرج بسبب من الأسباب قال:

«حدّثني عبدالله بن عمرو الحارث الواسطي السراج المعروف بأبي أحمد الحارث، قال: كنت مسافراً في بعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردي فقطع علينا، وكان بزي الأمراء لا بزي القطاع، فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه وجدته يدل على فهم وأدب، فداخلته، فإذا برجل فاضل يروي الشعر ويفهم النحو، فطمعت فيه، وعملت في الحال أبياتاً مدحته بها».

---

* العدد -308 يوليو 1984

** كاتبة من العراق

فقال: «لست أعلم أن هذا من شعرك ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة لأعلم أنك قلته». وأنشدني بيتاً.

قال: فعملت في الحال إجازة له ثلاثة أبيات. فقال لي: أيّ شيء أُخذ منك لأرده عليك؟

قال: فذكرت ما أُخذ مني، واستضفت إليه قماش رفيقين كانا لي فرد جميع ذلك. ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها كيساً فيه ألف درهم فوهبه لي. قال، فجزيته خيراً ورددته عليه.

فقال لي: لم لم تأخذه؟

فواريت في كلامي.

قال: أحب أن تصدقني.

فقلت: وأنا آمن.

قال: نعم.

قلت: لأنك لا تملكه، وهو من أموال الناس أخذته منهم الساعة ظلماً، فكيف يحل لي أخذه؟

فقال لي: أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص عن بعضهم، قال: إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجرّدوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص فقراء إليها. فإذا أخذوا أموالهم وإن كره التجار أخذها، كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا.

فقلت: بلى قد ذكر ذلك الجاحظ، ولكن من أين يعلم أن هؤلاء استهلكت الزكاة أموالهم؟

فقال: لا عليك، أنا أحضر هؤلاء التجار الساعة وأريك بذلك دليلاً صحيحاً أن أموالهم لنا حلال.

ثم قال لأصحابه: هاتوا التجار.

فجاءوا، فقال لأحدهم، منذ كم تتجر في هذا المال الذي قطعناه عليك؟

قال: منذ كذا وكذا سنة.

قال: فكيف كنت تخرج زكاته؟

فتلجلج وتكلم بكلام منه لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يخرجها. ثم دعا بآخر، وقال له:

إذا كان معك ثلاثمائة درهم وعشرة دنانير وحال عليك الحول فكم تخرج منها للزكاة؟

فما أحسن أن يجيبه. قال للآخر:

إن كان معك تجارة ولك دين على نفسين، أحدهما ملي والآخر معسر، ومعك دراهم وكان الحول حال على الجميع، كيف تخرج الزكاة؟ قال، فما فهم السؤال فضلاً عن أن يتعاطى الجواب، نفر منهم ثم قال لي:

خذ الآن الكيس.

قال: فأخذته وساق القافلة ليتصرف فيها.

فقلت: إن رأيت أيها الأمير أن تنفذ معي من يبلغني المأمن كان لك الفضل. ففعل ذلك، ونجوت من أذاه.

إن هذا اللص الظريف المتزيي بزي الأمراء لا بزي القطاع، لم يكن قاطع طريق عادياً، بل هو أشبه بشخصية (روبن هود) الذي شاء أن يأخذ حق الفقراء بيده من الأغنياء. وهو يرى أن هذا المال هو زكاة أموال لم يؤدوها، بل لم يعرفوا مقدارها الواجب عليهم. وهو فوق علمه بحق الفقراء في الزكاة من أموال الأغنياء، يبدو شخصاً «ذا فهم وأدب» مثقفاً يفهم الشعر ويقرأ الأدب، ويستشهد بكتب السلف لإقرار حقه الذي يستلبه بالقوة!

فأما كونه ظريفاً أديباً صاحب فهم وعلم، فتلك قضية، ولكن كونه يتخذ من كتب أبي عثمان الجاحظ مصدراً لعلمه ووسيلة للاستشهاد على ما يذهب من طلب الحق فذلك هو ما يستحق الوقوف عنده.

والجدير بالذكر أن هذه الإشارة إلى رجل من اللصوص قرأ بعض كتب أبي عثمان واتخذها شاهداً، ليست فريدة في بابها.

فقد جاء في روايات أخرى للتنوخي بأن امرأة من العامة شهدت ذات مرة أمام أحد القضاة، وأنها استشهدت كذلك ببعض ما ورد في كتب الجاحظ وكأنها على معرفة وثيقة من اطلاعها على ما جاء فيها.

هؤلاء الناس من العامة لم يقرأوا كتب الجاحظ قراءة عابرة، ولكنهم يبدون وكأنهم أمعنوا النظر فيها، واطلعوا على محتواها باهتمام واتخذوها شواهد على ما يذهبون إليه.

تُرى ما سر هذه العلاقة بين العامة وأديب متكلم كانت له شهرته ومنزلته في الحياة الفكرية والأدبية طوال ما لا يقل عن قرنين من الزمان هما الثاني والثالث للهجرة؟

قبل الدخول في بحث هذه التساؤلات، يجب أن نتذكر أن الجاحظ يعد من أوسع الكتّاب اهتماماً بحياة الناس، بجميع طبقاتهم وأنماط تفكيرهم واتجاهاتهم، وقد كتب رسائل وكتباً تناول في بعضها أصحاب الحرف بجميع أنواعها، وأصحاب التجارات والصناعات، كما تناول اللصوص والمكدين وأصحاب الحيل والارتزاق بكل وسيلة. فقد كان المجتمع العباسي الذي عاش فيه الجاحظ مجتمعاً زاخراً بكل هذا وغيره، وقد شاء الجاحظ أن يكتب عن كل ما فيه.

ونعود إلى حديث التنوخي وحكاية اللص الأديب، فنقول: إن كتاباً بعنوان «كتاب اللصوص» قد ورد فعلاً بين الكتب التي ألّفها الجاحظ.

وهذا الكتاب - وإن لم يصل إلينا كاملاً حتى الآن - فإن مقتطفات منه أو إشارات إليه قد جاءت في أماكن مختلفة من كتب الجاحظ نفسه، أو من كتب سواه، ويمكننا من خلالها أن نستدل على طبيعة موضوعه وأن نعرف شيئاً عنه. ويسمى الكتاب أحياناً بكتاب «حيل اللصوص»، ويقول عنه أبوعثمان الجاحظ نفسه إنه صنّف فيه «حيل لصوص النهار»، و«حيل سراق الليل» وأنه جمع فيه لطائف الخدع - كما يقول.

ويبدو كذلك أن الجاحظ نقل حكايات الكتاب عن شخصيات من العامة، وهو كثيراً ما ينقل عنهم دون تحرج أو تردد، بل يصفهم بالبعد

عن الكذب والتزيد، ويقول إنه كان يجالسهم ويسمع أحاديثهم، وقد نقل عنهم كثيراً من الروايات التي تدور في بيئتهم.

وفي كتاب الحيوان (موسوعة الجاحظ المشهورة برواياتها الأدبية وبمعارفها العامة).

أورد الجاحظ وصيته، قال عنها إنها وصية عثمان الخياط للشطار واللصوص، ينصحهم بنصائح خلقيـــة تخص طبقتهم. والوصية، إن لم تكن جزءاً منقولاً عن كتاب اللصوص نفسه، فهي على الأقل دالة على طبيعة عناية الجاحظ بهذه الطبقات من الناس، ونقل كلامهم وتصوير شخصياتهم ومفاهيمهم التي لم تعد ملتزمة بالمفاهيم السائدة في المجتمع، بل ربما هي أقرب إلـــى تقاليد الصعاليك وأهل الفتوة وإلى الشطار، ومادامت هذه الجماعات قد احتلت حيّزاً في الحياة الاجتماعية، فإن وجودها كان لابد أن يلفت نظر الجاحظ واهتمامه، فراح ينقل صوراً من حياتها في كتاباته.

لعل الجاحظ أول كاتب عربي يتخذ هذا الموقف الجريء في الاهتمام بجميع طبقات الناس، من دون الاقتصار في الكتابة على طبقة خاصة، ولقد كان لموقف الجاحظ هذا ردود فعل متباينة بين معاصريه والكتاب الذين جاءوا بعده. فانقسموا تجاه كتاباته إلى فريقين:

فريق رأى في كتاباته خروجاً علـــى المألوف وهدراً لمفاهيم الأدب والأخلاق، فراحوا يوجهون إليه التهم بأنه قد أفسد بكتاباته أخلاق الناس، وأنه راح يعلم الفســـاق وجوه السرقة والحيل، كما اتهم بأنه أفسد على التجار تجاراتهم بالكتابة عن «غش الصناعات»، لأنه يكشف عن غش البضائع والحيل في إخفائها، وإلى آخر ذلك من أوصاف وصفت بها رســـائله وكتبه المتعددة المتنوعة الموضوعات، التي تناول فيها الجاحظ حياة المجتمع من حوله، بمحاسنه ومساوئه... فلم يتعود الكتاب في عصره على جعلها في مستوى الموضوعات الأدبية التي يتناولها الأدب أو الكاتب، ذلك أن مفهوم الأدب حتى عصر الجاحظ كان لايزال تحت تأثير الأدب التهذيبـــي الذي يكتب للخاصة فقط.

وتجمع فيه الشواهد الشعرية والحكم والأمثال والخطب والأقوال من أجل أن يتأدب به المتأدبون من أبناء الخاصة. وذلك هو الأدب الذي سيطرت عليه شخصيات من الكتّاب أمثال عبدالحميد الكاتب الديواني، وابن المقفع... الأدب الذي ورثه الكتّاب الديوانيون عن تقاليد فارسية قديمة، لم يكن مفهوم الأدب فيها إلا للخاصة، أما عامة الناس فليس لها مواضع أو اعتبار في أدب هذه الطبقة.

أما الجاحظ فله رأي آخر في مفهوم الأدب وفي كل ما يكتب. فهو للخاصة كما هو للعامة. ولعله الكاتب الذي أعاد للأدب العربي نظرته الشمولية التي تحضن جميع فئات الناس دون تمييز بينها، فالأدب يكتب عنها ويكتب ويوجه إليها.

من هنا دأب الجاحظ على جمع حكايات السماكين والصيادين وأصحاب الحرف السوقية المختلفة، بل حتى نساء العامة كان لهن صور تمثلهن في كتبه، فلم يكن كاتب قبله يجرؤ على جعله في كتاب. ومن هنا وجه إلى الجاحظ نقد شديد لأن طريقته في النقل والتناول لجميع طبقات الناس، لم تكن مألوفة في الأدب المكتوب بعد، ولكن هذه الطريقة كان لها اتباع من كتّاب القرون التالية، وهنا يأتي دور الفريق الآخر.

أما الفريق الآخر، فيمثله مجموعة من كتّاب القرن الرابع والخامس الهجري من بينهم المحسن التنوخي، وأبومنصور الثعالبي وأبوحيان التوحيدي والراغب الأصفهاني. ولا يفوتنا ذكر أصحاب المقامات كبديع الزمان الهمذاني والحريري. وقد أصبحت شخصية المكدي الأديب البارع المحتال بكل حيلة من أجل العيش، هي شخصية بطل المقامة، وهي شخصية تستمد أكبر مقوماتها من كتابات أبي عثمان الجاحظ عن هذه الطبقة في عصره. أمثال خالد بن يزيد المكدي (في كتابه البخلاء) وأبي فاتك قاضي الفتيان، وغيرهما من شخصيات المكدين والقصّاصين والمحتالين التي أبرزها الجاحظ في كتاباته وجعلها مداراً لحكاياته.

لقد كان الجاحظ أول من وجّــه النظر إلى وجود هذه الفئات في مجتمع الحاضرة العباســية، متميزة عمّا ألفــه المجتمع من تقاليد ومفاهيم في الخلق والعادات. فبينما تعــد الحاجة والفقر والكدية (التسوّل) أموراً يداريها الناس ولا يصرّحون بها، صارت هذه الأمور شيئاً آخر في نظر هذه الفئات والجماعات من الشطار أو الفتيان. فالفقر أو الحاجة أو البؤس أصبحت من الأمور التي يجب أن تواجه بشجاعة وعزم. وممارسة سرقة أموال الأغنياء لم تعد في نظرهم جريمة، بل صارت فريضة، والأموال المســتلبة غنائــم تقرن بغنائم الجهاد والحروب في سبيل الله. فعثمان الخياط (وهو ليس خياطاً للملابس ولكنه يخيط الجــدران - بعد فتحها ببراعة كأنه يخيطها خياطة)، الذي ورد ذكره عند الجاحظ سابقاً وهو يوصي أصحابه اللصوص بوصايا، تعود شخصيته للظهور ثانية في كتابات الراغب الأصفهاني، يوصي أصحابه بوصايا تبدو غريبة في نظر المجتمع، ولكنها تنسجم مع مفاهيم طبقته حيث يقول لهم:

«لم تزل الأمم يسبي بعضها بعضاً، ويسمّون ذلك غزواً، وما يأخذونه غنيمة، وذلك من أطيب الكسب. وأنتم في أخذ مال الغدرة والفجرة أعذر. فسمّوا أنفسكم غزاة كما سمي الخوارج أنفسهم شراة».

واللص في نظر هؤلاء «أحسن حالاً من الحاكم المرتشي والقاضي الذي يأكل أموال اليتامى».

ومع ذلك فقد كانت لهم مقاييس من الفتــوة والمروءة بحيث إنهم كانوا يقولــون (كما يروي ابن الجوزي الفقيه الحنبلي المشــهور في القرن السادس):

«الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ســتر امرأة». وعثمان الخياط نفسه كان يقول إنه لم يعتد قط على جار له مهما كان... فالجوار له حق في نظرهم يعلو على كل حق...

ولعل أقوالاً كهذه التي ترددت في كتب الجاحظ هي التي استشهد بها لص التنوخي المذكور، ولقد بقيت شخصية عثمان الخياط وأمثاله

من (حكماء اللصوص!) قدوة يقتدي بها هؤلاء، شـــاهداً على هذه الطبقة عبر العصور.

ويصف التنوخي لصاً ظريفاً آخر كن يطلع قريباً من بغداد بأنه كانت «فيه فتوة وظرف، وإنه إذا قطع لم يعرض لأصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الألف. وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً قاسمه عليها فترك شطر ماله في يديه وأنه لا يفتش امرأة ولا يسلبها ...».

لقد كان هذا الاتجاه في أدب الجاحظ بوادر أولى نحو أدب واقعي يتناول حياة الناس اليومية ويقدمها للقارئ بجميع صورها المشرقة أو المعتمة، ينطق بلسانها ويصوّر أحوالها وطبيعة تفكيرها، وينقل كل ما يدور عنها من حكايات وأحاديث.

على أن الاتجاه إلى نقل كل ما يخص العامة لا يعني بأي حال من الأحوال أن الجاحظ أو هؤلاء الأدباء كانوا يجعلون من هذه الطبقة قدوة يقتدون بها أو ينصحون باتباعها. فقد يتردى بعض هؤلاء في حياتهم وفي ضيق أفقهم إلى مستوى لا يليق بالإنسان أن يقتدي به. ومن هنا كان موقف الجاحظ واضحاً في أن الخاصة من العلماء - ولاسيما المتكلمين من المعتزلة الذين كان الجاحظ نفسه من اتباعهم - يجب أن يكون في أيديهم قيادة العامة وإرشـــادهم، فالخاصة من العلماء أشبه بالعقل المدبر الموجه لوظائف الحواس (التي يشبه بها العامة) وليس للحواس قدرة على التصرّف من دون العقل.

وهكذا، يبقى أدب الجاحظ معيناً ثراً لمعرفة خفايا مجتمع ازدهر بشتى الأنماط والفئات من الناس، عايشه الجاحظ بكل قدراته وتوثبه العقلي، وقدمه لنا في كتاباته طوال فترة قاربت قرناً من الزمان (نحو منتصف القرن الثاني إلى منتصف القـــرن الثالث) هي الفترة التي عاشها أبوعثمان.

سلين... الأديب الفرنسي وربع قرن على رحيله *

د. زينب عبدالعزيز **

على الرغم من مرور ربع قرن على وفاته، فإن أثره في الحياة الأدبية الفرنسية لم يتوقف، وعلى الرغم من كل محاولات التشهير به والربط بينه وبين النازية ومعاداة السامية، فإن اسم هذا الأديب الفرنسي الكبير بقي أقوى من أن يطمس. فكان العام الماضي عام تكريم لهذا الأديب الراحل في ذكرى مرور ربع قرن على وفاته.

من أهم الأحداث الأدبية التي احتلت الصدارة في المجال الأدبي الفرنسي في نهاية عام 1986 الاحتفال بمرور ربع قرن على رحيل الأديب لوي فرديناند سلين، الذي يعد واحداً من الذين تصدّوا لتزايد النفوذ الصهيوني في فرنسا، بل كان أعنف الأدباء الذين دانوا اليهود الصهاينة.

ويعتبر سلين من كبار الروائيين الفرنسيين الذين ظهروا في النصف الأول من القرن العشرين، فعلى الرغم من الصمت الذي واكب رحيله بعض الشيء، فقد خرج النقاد عن صمتهم، ليثروا مجال النقد الأدبي الفرنسي بعشرات الدراسات المتعلقة بحياته وبأعماله.

---

* العدد -349 ديسمبر 1987

** أكاديمية من مصر.

فقد نشأ لوي فرديناند ديتوش، المعروف باسم سلين في أسرة متواضعة، واضطر للعمل وهو في الثانية عشرة من عمره، لكي يتمكن من استكمال تعليمه، حتى حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، ثم التحق بكلية الطب. وفي عام 1914 تطوّع في الحرب العالمية الأولى، وأصيب في العام التالي إصابة بالغة في ذراعه. وعقب انتهاء الحرب راح يمارس مهنة الطب في الأقاليم، إلا أنه كان يشعر في قرارة نفسه أن ذلك الطريق الذي يسلكه ليس ما يبحث عنه حقيقة، فبدأ يتنقل بين إنجلترا وإفريقيا وجنوب أمريكا، حيث عايش عن قرب آلام العبيد ومعاناتهم، ثم استقر به المطاف في إحدى ضواحي باريس، حيث راح يعالج الفقراء، وبدأ مشواره مع الكتابة. وتلك الفترة هي التي عبّر عنها في روايته الثانية «الموت بالتقسيط» التي ظهرت عام 1936م.

أما الرواية الأولى التي كتبها سلين، فكانت بعنوان «رحلة في آخر الليل»، وقد نشرت عام 1932، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، هذه الرواية فريدة من نوعها في الأدب الفرنسي، لما تتضمن من أحداث ومواقف، فهي أشبه ما تكون بثورة بركانية صاخبة، ثورة دفعتها شتى التجارب الإنسانية الطاحنة، لتنطلق صرخة مدوية في غياهب ليل لا نهاية له.

لكنها كانت في الوقت نفسه صرخة تعاطف عميقة الأصداء، تكشف عن آلام المعدمين في ذلك المجتمع الرأسمالي الغارق في الوحل، فأتت الرواية وكأنها نهر متدفق من الوحل الأسود الذي لا خلاص منه ولا من ظلماته. كاد سلين يحصل على جائزة «جونكور» الأدبية عن هذه الرواية، لولا تراجع بعض الأصوات في آخر لحظة، وكان لهذا الحدث أصداؤه الواسعة في التأثير على الجمهور. فلم يكن جمال

الأسلوب هو أول ما لفت الأنظار إلى رواية «رحلة في آخر الليل»، وإنما صراحة المؤلف الشديدة في الوصف والتحليل والإدانة، وهي صراحة فريدة من نوعها آنذاك، فقد لجأ سلين إلى استخدام الأسلوب الشعبي الفج، بكل ما فيه من قذف، وفظاظة، واستثارة، بعد إعادة صياغته بشكل أدبي له بنيانه المعماري الخاص. وذلك ما يمكن مقارنته بما قام به الأديب البريطاني جيمس جويس بالنسبة للغة الإنجليزية، إلا أن محاولة سلين كانت أكثر جرأة، وأكثر ابتكاراً، بحيث اعتبرها النقاد ثورة لغوية أولاً، ثم تجديداً في الإيقاع.

ومن أهم العناصر التي بلورها سلين في هذه الرواية إحساس الشعور بالوحدة الذي يعتصر الإنسان وسط جدرانه الأربعة، أيّا كان وضعه، وأيّاً كانت صلابته. مرارة الوحدة في خلفية إيقاع الحياة اليومية، حيث لا توجد أية رابطة حقيقية بين الأشخاص، وحيث تقتصر الصلات الإنسانية - في خير حالاتها - على بعض المجاملات العابرة، إنها صفحات بائسة يستشف منها القارئ أن الإنسان ليس وحيداً في محنته فحسب، وإنما يتخبط ويصارع في أعماقه برودة ليل أصم، لا إشراق بعده.

تقع هذه الرواية الملحميّة في منتصف الطريق بين الرواية بمفهومها العام، وبين السيرة الذاتية، إلا أنها لا تحيد أبداً عن فكرة التعبير عن المجتمع المتطاحن، وما يعتريه من ضياع، إنه يصطحب القارئ معه ليعايش أبطاله في مجازر الحرب، وفي صراعاتهم اليومية.

أما الرواية الثانية «الموت بالتقسيط» التي نشرت عام 1936، فقد تناول فيها الأديب بعض مراحل شبابه، وما عاشه من تجارب مريرة في تنقلاته بين الطبقات الاجتماعية الدنيا. ولقد واصل سلين في هذه الرواية - من حيث الأسلوب -

نفس الخط الذي بدأه في الرواية الأولى، وهو الابتعاد عن الجملة التقليدية، وعدم الالتزام بالقيود اللغوية، واستخدام التعبيرات الشعبية بشتى صورها، فأتى أسلوبه بإيقاع جديد، يعتمد على عدد من المقاطع القصيرة المتلاصقة التي تفصل بينها بعض علامات الوقف، لكنها تكوّن في مجملها صورة أكثر نبضاً وحيوية.

تعتبر رواية «الموت بالتقسيط» بالنسبة للرواية الأولى «رحلة في آخر الليل» عودة زمنية إلى الوراء، عودة إلى طفولة البطل نفسه، أي إن هذه الرواية عبارة عن مزج أدبي بين الواقع والخيال، عبر ملحمة للتحليل النفسي الدقيق، ملحمة تعبّر عن ثورة الذات، والشعور بالاغتراب، من خلال تطوير طبقة البورجوازية الصغيرة في باريس. ولا يمنع ذلك الطابع الدرامي للرواية من وجود لمحات باسمة عابرة، تزيد من سخرية الواقع ومرارته، مما يضفي على رؤية سلين مزيداً من الإيقاع الشاعري الوجداني.

وفي ذلك العام نفسه بدأ نشاط سلين السياسي يتبلور، ليتخذ موقفه الشهير ضد التوغل اليهودي الصهيوني في فرنسا، ذلك التوغل الذي وصل آنذاك إلى السيطرة على شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية، وكم حذّر من ذلك في الثلاثينيات مردّداً: «إن اليهود يغزوننا ويدفعوننا صراحة إلى الحرب».

وأهم مؤلفات سلين في هذه الفترة فضلاً عن المقالات الحادة الطابع، الكاشفة بلا مواربة، أبحاث ثلاثة، الأول بعنوان «خطيئتي» عام 1936، والثاني بعنوان «ترهات من أجل مذبحة» عام 1938، ثم «الورطة» عام 1941. وعلى الرغم من النجاح الساحق لهذه الأعمال التي كانت تؤرخ الواقع السياسي لفرنسا في تلك الفترة وتعكسه، فقد قامت الرقابة

بمصادرة أول بحثين بعد صدورهما بأشهر عدة، كما قام رجال الشرطة بسحب أعداد البحث الثالث ومصادرتها.

ولا تعد هذه المؤلفات الثلاثة مجرد إدانات للتوغل الصهيوني بشكل خيالي، أو افتراضي، لكنها كتابات مدعّمة بالوثائق والإحصائيات والأرقام، والأدلة القاطعة التي يكشف بها سلين عن أساليب ذلك التوغل، خاصة في ما يتعلق بالمجال الثقافي والإعلامي. والآن، وبعد مرور ما يقارب من أربعين عاماً على هذه الأبحاث، وعلى أحداثها، فإن النقاد يعتبرونها من أهم الوثائق التي تسمح بتحليل المجتمع الفرنسي حينذاك، بالإضافة إلى ما تتيحه رواياته من متابعة وتحليل.

وفي منتصف عام 1944 هاجر سلين من باريس بصحبة زوجته ليستقر في الدنمارك، أو لينفي نفسه إليها، إلا أن السلطات الفرنسية اتهمته بالخيانة، وتم القبض عليه في ديسمبر عام 1945، وظل معتقلاً مدة أربعة عشر شهراً. ولا شك في أن موقف سلين السياسي، وقضية إدانته بالتواطؤ مع النازية بحاجة إلى إعادة فتح ملفاتها، إذ إن ما يبدو من كتاباته أن موقفه لم يكن في الواقع بدافع التواطؤ ضد وطنه، وإنما كان بدافع الوطنية، دفاعاً عن ذلك الوطن ضد التوغل الصهيوني الثابت تاريخياً أنه كان يسيطر سيطرة تامة على المجتمع الفرنسي في تلك الفترة.

وقد تم الإفراج عن سلين بعد ذلك، وحدّدت إقامته في مسكنه، وفي عام 1949 أعيد فتح ملفات قضيته أمام محكمة العدل الفرنسية التي حكمت عليه بالسجن عاماً، مع دفع غرامة قدرها خمسون ألفاً من الفرنكات، إلا أن المحكمة العسكرية برّأته من هذه التهمة استناداً إلى موقفه كمحارب وطني قديم.

وفي شهر يوليو 1951 استقر سلين مع زوجته في بلدة

ميدون جنوب باريس، حيث راح يمـــارس مهنة الطب في بعض الأحيان، مكرّســـاً كل وقته للكتابة. وتتسم مؤلفاته في هذه الفترة بازدياد لمحة السخرية في أسلوبه، وبرؤية جادة ثاقبة، وإن ظل سليط اللسان، لا يرحم خاصة كل مَن عادوه أو شاركوا باتهامه. وأهم المؤلفات التي ظهرت له في الخمسينيات، الثلاثية التي بدأها برواية «أحد القصرين» عام 1957، والتي يقص فيها رحلته وهو في طريقه إلى المنفى، وتم نشر الجزء الثالث منها بعد وفاته بثمانية أعوام. وتتسم عودة سلين إلى المجال الأدبي في فترة ما بعد المنفى بنفس العناصر والمعطيات التي ارتبط بها منذ بداية مسيرته الطويلة الصاخبة، فبعد التزامه بالتعبير عن ويلات الحرب العالمية الأولى، والاستعمار، والحياة في تلك الضواحي النائية للمدن الصناعية الكبرى، التي راح يشـــبهها بالمذابح، أو مسالخ الأجساد البشرية، وكلها رؤى لم يعقب عليها كأديب فحسب، وإنما راح يصوّرها بنبضاتهـــا، وتدفق إيقاعاتها المتقطعة، راح يعبّر عن وحشية الحروب والاستعمار، كما راح يستلهم أحداث الحرب العالمية الثانية، وينقب في أحشائها بالمبضع نفسه، لكن بنظرة أكثر تطوراً، وكأنه يعيد توزيع تلك الألحان العتيدة، ليعبّر عن الإنسان البسيط، ذلك الإنسان الضحية نظراً لطيبته.

وإذا كان سلين في بادئ الأمر يعبّر عن نفسه كناية، تاركاً للقارئ مهمة استشفاف الواقع من الخيال، أو مهمة تحديد السيرة الذاتية من الخيال الروائي، فإنه في المرحلة الثانية من مؤلفاته يعبّر عن نفسه، ويستعين بسيرته الذاتية بلا مواربة. فإذا كان القارئ يتلمس ملامح المؤلف في المرحلة الأولى، من خلال غلالة الشخصيات والأحداث، فقد أصبح يراه في أعماله الأخيرة، يقوم بدور الشخصية الرئيسة التي

يتعامل معها مباشرة. أما الملامح الأساسية لمؤلفاته ورواياته بعد المنفى، فضلاً عمّا بها من انعكاسات كراهيته للحروب، وللمخططات السياسية الكبرى لاحتواء المجتمعات الأخرى، فهي تدور حول الآفات الإنسانية، ومن أهمها الريبة، والشك المدمّر الذي يتغلب على كل شيء، ويبتلع كل ما في الإنسان من سعادة واستقرار وعطاء.

أما من حيث الأسلوب، فأوضح ما يوصف به إجمالاً، هو أنه أشبه ما يكون بالمطرقة التي يقرع بها فكر القارئ، حتى يوقظه من غيبوبة طال مداها. وفي واقع الأمر أن أسلوب سلين يتميز بسرعة، لا تعكس إيقاع الأحداث، وتداخل تدفقها فحسب، وإنما تسمح للقارئ بالامتزاج بالنص، ليعايش الجو الإبداعي لتلك الأعمال. وعلى الرغم مما يقوله بعضهم من أن مفردات حواره تفزع القارئ أحياناً، فلا شك في أن مؤلفاته تعد كمّاً متماسكاً، لا يمكن تجاهله، فهي جزء لا يتجزأ من التاريخ الأدبي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي لفرنسا في ما بين عامي 1930و1960.

ومن جهة أخرى فإن أسلوب سلين الأدبي، بكل ما فيه من تجديد وابتكار اتجه تدريجياً نحو التبسيط اللغوي، والنظم في الإيقاع الداخلي، وذلك مـــا يمكن وصفه – وفقاً لقول سلين نفسه – بأنه أسلوب أشبه ما يكون بالنغم الموسيقي الذي يكوّن سمفونية ذاتية الإيقاع. إنه أسلوب لا يمكن لأي قارئ أن يغفله، مهما كان موقفه من كتابات سلين.

كان سلين يعتبر الأشخاص والأحداث جزءاً من تكوين اللغة وبنيانها، فاللغة – في نظره – هي المجال الوحيد الذي يمكن إعادة تكوين أشلاء الإنسان في أبعادها.

ومنذ وفاة ســـلين لم يتوقف تأثيره فـــي الأجيال التالية من الأدباء، بل اســـتمر تأثيره عميق البصمات والأصداء،

من حيث تناوله للقضايا المعاصرة ومعالجتها بوضوح، وقد وصل في ذلك المضمار إلى المستوى الملحمي في التعبير. ومثلما كان في مهنته الأصلية طبيباً كانت مؤلفاته علاجاً اجتماعياً، بفضل تشخيص الآفات وتحديدها بلا مواربة. لذلك يعتبره النقاد منذراً وشاهداً على عصره، كما يعتبرونه شريكاً وضحية للأحداث التي كشف عنها وأدانها بصراحة لم يسبقه إليها أحد.

لغة الحوار في المسرح العربي مشكلة بلا حلّ! *

د. حياة جاسم محمد **

المسرحية نوع أدبي يتميز عن الأنواع الأدبية الأخرى باختفاء صوت الشاعر أو الكاتب وانتفاء السرد، فهي تتكون من خلال ما تقوم به الشخصيات من أفعال، وما تتبادله من حوار، ولكن هذا الحوار ظل مشـكلة بلا حل، فهل نكتب بالفصحى أم بالعامية أم بلغة ثالثة؟

الحوار ثانوي في الرواية، لأن الكاتب يسرد الأحداث ويطورها، ويصف الشخصيات ويكشف عن نفسياتها، أما في المسرحية فالحوار أساسي، وهو ما به تقوم المسرحية وتتشكل، حتى أن «رينيه ويلك»، في النظرية الأدبية، يجعل الأنواع الثلاثة المجردة هي: السرد والحوار والأغنية.

إن للحوار في المسـرحية وظائف خطيرة، ويقسم «ميليت» و«بنتلي» في كتابهما «فن المسرحية»، هذه الوظائف إلى نفعية وغير نفعية. أما الوظيفة غير النفعية للحوار فهي أنه يروق ويمتع لمـا فيه من جماليات، ولكن هذه الوظيفة ثانوية إزاء الوظائف النفعية المتعددة للحوار، وأهمها تطوير عقدة

---

* العدد -171 أكتوبر 1989

** كاتبة من العراق

المسرحية، أي مجموع أحداثها، وطريقة ارتباط هذه الأحداث، ويتم هذا التطوير عن طريق مصاحبة الأفعال التي تقع خارج المسرح، أو التي تحصل في ماضي المسرحية، وكذلك الإشارة إلى ما يتوقع حدوثه في المستقبل.

والوظيفة النفعية الأخرى للحوار هي الكشف عن الشخصيات بتوضيح أبعادها المظهرية والاجتماعية والنفسية، وذلك يقتضي أن يكون الحوار مناسباً للشخصية من حيث عمرها مثلاً، ودرجة ثقافتها، ونوع نفسيتها، انبساطية كانت أو انطوائية، حادة أو هادئة، متفائلة أو متشائمة، وما إلى ذلك من الاختلافات النفسية الأخرى.

إن اللغة هي أداة الحوار المسرحي على الرغم من وجود التمثيل الصامت الذي يظل استثناء لا يخرق القاعدة، وعلى الرغم من تأكيد المسرح الحديث على الأصوات والأشياء في عروضه إلى درجة كبيرة. وفي المسرح العربي تكون لغة الحوار مشكلة كبيرة تفرض نفسها على الشاعر أو الكاتب المسرحي، وعلى القارئ أو المشاهد، والدارس الباحث. ومصدر هذه المشكلة وجود ثنائية الفصحى والعامية في اللغة العربية.

فانطلاقاً من البديهيات الفنية التي تقدمت لابد للشخصيات، في المسرحية العربية، أن تتكلم لغة عربية ملائمة لمستواها الاجتماعي والثقافي ولتكوينها النفسي، وهذا يعني أن الفصحى قد تبدو غير مناسبة للشخصيات التي لم تتعلم أو هي محدودة التعليم، وأن العامية أنسب لها. وتكون النتيجة أن تختلف لغة المسرحيات العربية تبعاً لاختلاف العامية في الأقطار العربية المختلفة، وهو اختلاف كبير يقف حائلاً دون التواصل الذي تسعى إليه المسرحية مع مشاهديها وقرائها، وتظل فاعلية المسرحية محدودة بحدود القطر الذي كتبت بعاميته، أو أقطار قليلة تفهم عامية ذلك القطر. وكون العامية المصرية بحكم انتشارها الواسع مفهومة في الأقطار العربية جميعها استثناء لا يقاس عليه، ولا يغير من أبعاد المشكلة المدروسة ولا من النتائج المترتبة عليها.

لقد فرضت مشكلة اللغة نفسها على الكاتب المسرحي العربي منذ أول تجربة في كتابة المسرحية في العربية، عام 1847، وهي تجربة اللبناني مارون

النقاش. وذهب الكتّاب المسرحيون العرب مذاهب مختلفة في مواجهة هذه المشكلة.

أما مارون النقاش نفسه فقد رأى أن يستخدم في مسرحيته الأولى «البخيل» الفصحى والعامية معاً، فاختار الفصحى للشخصيات التي تؤهلها خلفيتها الاجتماعية والثقافية لاستخدامها في الحوار، في حين اختار للشخصيات الأخرى أن تتكلم العامية المحلية للقطر الذي تنتمي إليه، فأم ريشا الخادمة تتحدث العامية اللبنانية، وعيسى يتحدث العامية المصرية حين يتنكر بزي كاتب مصري، ويتحدث غالي ونادر كما يتحدث أتراك قليلو المعرفة بالعربية. وإلى ذلك أشار النقاش نفسه في تقديمه مسرحية «البخيل»، ووثق لذلك محمد يوسف نجم.

وأخذ بالطريقة نفسها ميخائيل نعيمة من لبنان، في مسرحيته «الآباء والبنون» التي يعالج فيها صراع الجديد والقديم متمثلاً في صراع الأبناء والآباء. وقد كتب هذه المسرحية عام 1916، ونشرها في كتاب عام 1917. وقد ناقش هو الآخر قضية لغة الحوار في مقدمة كتبها لمسرحيته، وبين أنه لم يجد حلاً للمشكلة سوى الجمع بين الفصحى للمتعلمين والعامية لغير المتعلمين، وزاد على ذلك أن جعل إحدى الشخصيات تتكلم العامية وإن لم تكن أمية تماماً، لأن العامية توافق طباع تلك الشخصية ومداركها، وأنه مال إلى العامية في حديث الشخصيات المتعلمة مع غير المتعلمة «في بعض المشاهد التي تليق بها العامية أكثر من الفصحى» دون أن يحدد طبيعة هذه المشاهد.

وهناك بعض المسرحيات من النتاج المسرحي المعاصر تجمع بين الفصحى والعامية، منها على سبيل المثال: «بلدي يا بلدي» لرشاد رشدي، «آه يا ليل يا قمر» لنجيب سرور، الذي استخدم في استهلالها (البرولوج) شعراً حراً بالفصحى والعامية في سائرها، «الواقد»، «الخطاب»، «ليلة مصرع جيارا» لميخائيل رومان، وكذلك «النار والزيتون» لألفريد فرج، والصفحات الدرامية التي كتبها نعمان عاشور واستمدها من تاريخ الجبرتي وعنونها «شعب مصر». ولم تشر أي من المسرحيات الأخيرة إلى مشكلة الفصحى والعامية

أو تبرر استخدامهما معاً.

مازالت الفصحى وسيلة تعبير لدى الكثير من كتّاب المسرح العربي، وقد اتضح هذا الاتجاه منذ بداية التجربة المسرحية العربية في إنتاج الرائد الثاني أبي خليل القباني من سورية، فقد استخدم الفصحى في مسرحياته، ما كان منها تاريخياً أو مستمداً من تراث القصص الشعبي أو مقتبساً أو مترجماً. كذلك فعل سليم النقاش ونجيب الحداد في ما ترجما أو ألّفا من مسرحيات، والشيخ سلامة حجازي في مسرحه الغنائي، فقد كان لفرقته مسؤول خاص عن اللغة مهمته ضبط الألفاظ ضبطاً صحيحاً، ومراعاة أداء الممثلين لها أداء فصيحاً لا يشوبه لحن. وحرص علي أحمد باكثير على استخدام الفصحى في المسرحيات الكثيرة التي كتبها، التي تنوعت ما بين تاريخية وسياسية واجتماعية معاصرة.

واستعمل توفيق الحكيم الفصحى في جل مسرحياته على اختلاف اتجاهاتها الفنية، ولم يركن إلى العامية إلا في القليل منها. أما في المسرحيات العراقية والمسرحيات السورية فتشكل الفصحى تياراً غالباً.

إن الفصحى بالطريقة التي استخدمت بها في المسرحية العربية، قاصرة عن القيام بالمهمات الفنية المتوقعة منها، هو قصور ليس في طبيعة الصفحى نفسها، لكن الكتّاب المسرحيين أحياناً ينطقون الشخصيات فصحى لا توجد إلا على صفحات الكتب القديمة، وتضطرهم غرابة بعض المفردات إلى شرحها في هوامش، وما يقال عن المفردات يصدق على التعابير وتكوين الجمل والصور والأخيلة. إن ذلك كله يبعد المسرحية عن روح العصر ويؤدي إلى انصراف الجمهور عنها، فلا بد لكل مسرحية، حتى التاريخية، من أن تكون صادرة عن روح العصر ومنسجمة معه. والقصور الآخر يبدو في استخدام فصحى واحدة لشخصيات المسرحية جميعها مهما اختلفت مستوياتها الاجتماعية والثقافية، فيبدو غير المتعلم أو قليل التعليم بعيداً عن المعقولية والواقع وهو ينطق فصحى غريبة لا يستخدمها حتى مثقفو العصر.

التزم الرائد الثالث للمسرح العربي يعقوب صنوع من مصر، بالعامية لغة للحوار في جميع مسرحياته التي كتبها وقدمها على المسرح المصري

ابتداء من عام 1870، وكان هدفه من تأسيس مسرحه، كما ورد عنه، إرشاد مواطنيه إلى الطريق الذي يؤدي بهم إلـــى الرقي والمدنية، ولعل هذا دفعه لاختيارالعامية لتناسب مدارك الجمهور المصري حينذاك، ولتناسب شخصيات مسرحياته ووضعياتها، وكانت جميعها مستمدة من واقع المجتمع المصري المعاصر في وقته.

وتواصل استخدام العامية في الحوار لدى عدد من كتّاب المسرح المصري ممن جاء بعد صنوع، وكذلك اســتعملها محمد عثمان جلال، فيما ترجمه عن الفرنسية، أو مصّره، من ملاه لموليير ومآس لراسين، حيث اختار الزجل المصري وسطاً، وكذلك في المســرحية الوحيدة التي ألفها. وبرّر المترجم اختياره الزجل بأنه يتبع أصلها المنظوم، ويجعل نظمها يفهمه العموم، وأن اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام، وأوقع في النفوس عند الخواص والعوام، ولكنه لم يدلل على رأيه ذلك فنياً.

وآثر الكاتب المســرحي المصري محمد تيمور العامية في جميع ما كتبه من مسرحياته إلا مسرحيته الأولى التي كتبها بالفصحى، ثم أعاد كتابتها بالعامية، لأنه وجد العامية، كما يقول، أكثر مطابقة للحقيقة والواقع. وتابعه في ذلك، في مصر أيضاً، إبراهيم رمزي وعباس علام في بعض مسرحياته، معللاً ما فعله بأنه فضل أن يتوجه إلى الشعب مستخدماً لغته لكي يتمكن من التصدي للملاهي التي يعرض فيها ما يسيء إلى أخلاق الناس ويفسد آدابهم. كذلك استخدم سيد درويش ومنيرة المهدية العامية في مسرحهما الغنائي، والريحاني في ملاهيه وهزلياته، وعلي الكسار الذي ذكر أنه يريد مخاطبة الشعب بلغة يفهمها، لكي يمكنه من معرفة أمراضه ووسائل علاجها. وقد لجأ إلى العامية يوسف وهبي في عدد من مسرحياته الجادة، ومحمود تيمور في مسرحياته الواقعية المعاصرة، وتوفيق الحكيم في بعض مسرحياته الأولى، ومنها «المرأة الجديــدة» (1923)، «حياة تحطمت» (1930)، وبعض مسرحياته ذات الفصل الواحد، مثال: «الزمار» (1932)، «جنسنا اللطيف» (1935). وشهد النصف الثاني من الخمسينيات مرحلة جديدة في مسيرة المسرح المصري بدأت بعرض مسرحية «الناس اللي تحت» لنعمان عاشور،

وكان ذلك عام 1956. ومن أهم مميزات هذه المرحلة كما حددها الناقد جلال العشري، التصاقها بالواقع المصري المعاصر في موضوعاتها وشخصياتها وحوارها، ولذلك استبدلت الفصحى بالعامية، وظهر جيل من كتّاب المسرح المصري، هو جيل ما بعد ثورة 1952، يستخدم العامية فيما يكتبه من مسرحيات جادة ملتزمة، تتمتع بالنضج الفني الذي لم يتوافر لكثير من المسرحيات التي سبقتها. وترك لنا مسرح الستينيات في مصر تراثاً مسرحياً كبيراً كانت العامية لغة حواره، وأبرز كتابه: نعمان عاشور، سعدالدين وهبة، ألفريد فرج، يوسف إدريس، رشاد رشدي، ميخائيل رومان، نجيب سرور، محمود دياب، علي سالم وآخرون ممن واصل معظمهم الكتابة في السبعينيات وبعضهم في الثمانينيات.

وفي العراق كتب يوسف العاني للمسرح العراقي، منذ بداية الخمسينيات، مسرحيات ملتزمة تعالج قضايا سياسية واجتماعية من واقع العراق المعاصر حين كتابتها، وهي مسرحيات كما يذكر العاني نفسه، كتبت لتمثل ومثلت بالفعل، ولذلك جعل المؤلف كلا من الشخصية المسرحية والجمهور موضع اهتمامه.

إن إعادة كتابة الحوار بالفصحى عند نشر المسرحية ليست حلاً لمشكلة لغة الحوار في المسرحية العربية، فمن البديهيات المعروفة أن المسرحية تشاهد، ولا يكتمل وجودها إلا بعرضها على خشبة المسرح. وإذن، فمازالت المشكلة قائمة، وستظل المسرحية المكتوبة بالعامية محدودة الفاعلية بسبب عاميتها تلك. وبالإضافة إلى ذلك، فإن إعادة الكتابة تتطلب من الكاتب جهداً فنياً ووقتاً، كما أن من العبث واللامعقول أن يكتب الكاتب نسختين من كل مسرحية يؤلفها، ولابد أنه غير مقتنع بإحداهما.

وفي المسرح الكويتي اتجاه واضح في معالجة القضايا الاجتماعية المحلية والمعاصرة، مما أدى بكتّاب هذا النوع من المسرحيات إلى اتخاذ العامية لغة الحوار. وتطغى العامية على المسرح الجزائري، وتظهر واضحة في النتاج المسرحي في تونس والمغرب.

استخدم توفيق الحكيم الفصحى في أغلب مسرحياته، والعامية في القليل

منها، ولكنه في مسرحية «الصفقة» ومن بعدها «الورطة» جرّب استخدام لغة ثالثة، كما يدعوها، ويجددها بأنها لغة التخاطب في الحياة اليومية، ولكنها مع ذلك قريبة إلى العربية الصحيحة. وهي لن تحتاج عند التمثيل إلى نقلها إلى العامية، وبذلك لن يكون للمسرحية نصان بل نص واحد، ينطقه الممثل عامياً ويقرؤه القارئ فصيحاً.

إن ما يقترحه الحكيم ليس بقادر على أن يحقق للمسرحية العربية شمولية يحول استخدام العامية دون تحققها، فإن الارتفاع بلغة التخاطب وتقريبها من الفصحى، في مصر وحدها، بالمقترحات التي أشار إليها الحكيم يتطلب جهداً ووقتاً من الأدباء والدارسين للاتفاق على الرخص والاختزالات والتغييرات المطلوبة لإيجاد اللغة الجديدة، وإلا فإن كل كاتب سيجتهد في ذلك، وستتكون، في مصر وحدها، لغات لا لغة واحدة جديدة ويصير الصدع كسراً بدل أن يرأب. إن اللغة الثالثة الجديدة حين تظهر، ستكون لغة المسرحيات المصرية، لأنها قائمة، أساساً، على التقريب بين استعمالات العامية المصرية والفصحى، وإن لكل قطر عربي عاميته التي تختلف عن العاميات الأخرى في مفرداتها وتراكيبها وتكوين جملها، ولذلك فإن إيجاد لغة ثالثة يقتضي وقتاً وجهداً في كل قطر عربي، أو في أحسن الأحوال في أقطار قليلة تتقارب عامياتها، للاتفاق على التجاوزات والاختزالات المطلوبة.

وعلى الرغم من ذلك ستظهر لغات جديدة بدلاً من لغة واحدة منشودة، بالإضافة إلى أن اللغات الناتجة ستكون لغات مصنوعة وليست لغات طبيعية تفرضها احتياجات الواقع، وسيظل المسرح العربي، بعد تلك الجهود كلها، إقليميا لا يحقق التواصل الشامل المرجو له. وقد ناقش محمد غنيمي هلال، في كتابه «النقد الأدبي الحديث» اللغة الثالثة التي استخدمها الحكيم في مسرحيته «الصفقة»، وأشار إلى ركاكة العبارات وعاميتها.

إن الدليل على قصور لغة الحكيم الثالثة يظهر في أن الحكيم نفسه لم يستخدمها في غير مسرحيتيه المذكورتين سابقا، ولم يستخدمها سواه من الكتاب المسرحيين في مصر على الرغم من مضي زمن طويل على دعوة الحكيم إليها، ظهرت مسرحية «الصفقة» عام 1956 - وكذلك لم تقم في

الأقطار العربية الأخرى أي محاولة نظرية أو جهود عملية لإيجاد لغة ثالثة بديلة.

إذن، هل هي مشكلة دون حل؟ بدءاً، ينبغي الإشارة إلى أن المسرح، مثل أي فن آخر ليس الواقع نفسه، وإنما هو فن وصنعة، وله جمالياته المعروفة. وليست مهمة الفن - حتى الواقعي منه - نسخ الواقع وإنما إغناؤه وتفسيره مستخدماً في ذلك وسائل فنية مختلفة، ومستعيناً بخيال الجمهور الذي يسد الفراغات ويرى على المسرح ما قد تقصر طاقات العرض المسرحي عن توفيره. وكما يتقبل الجمهور مشهد غابة مرسومة على ستارة على أنها غابة حقيقية تجرى فيها الأحداث، وكما يستسيغ الجمهور نوعاً معيناً من الإنارة ويجد بها ضوء القمر دونما قمر حقيقي، كذلك ينبغي التعامل مع لغة الحوار في المسرحية على أنها لغة فنية لا لغة الواقع نفسه كما هي، وتلك حقيقة يتفق عليها الباحثون.

إن استخدام الفصحى «المحدثة» المعاصرة في الحوار يمكن المسرح العربي في التغلب على المشكلة الفنية، مشكلة مناسبة اللغة للشخصية، وعلى ما يسببه استخدام العامية من محدودية وانغلاق، ويحقق كذلك الارتفاع بلغة الجمهور، فليس المفروض في المسرح أن يهبط بالجمهور، وإنما يفترض فيه أن يرقى بالجمهور وهو يمتعه ويسليه، وأن يسمو بمشاعره وأفكاره ولغته، وذلك ما حققته وتحققه المسارح الجيدة في أنحاء العالم. وما يقال عن المسرح يصدق على وسائل الاتصال الجماهيري، لاسيما التلفاز.

إن مشكلة لغة الحوار في المسرح العربي جزء من مشكلة أكبر هي الابتعاد عن الفصحى في التخاطب والحوار حتى في أوساط المثقفين في المناسبات الثقافية، بل وحتى في التدريس على اختلاف مستوياته. وفي دروس اللغة العربية نفسها. وهذه المشكلة على خطورتها، لم تحظ بالاهتمام والعناية اللازمين، ولم تُبذل جهود جادة من أجل البدء بتجاوزها. لن يكون إحلال الفصحى «المحدثة» المعاصرة محل العامية أمراً ميسوراً، ولكن يمكن تحقيق العسير حين يتوافر الاعتقاد بأهمية الهدف والاستعداد للعمل، ألا نبدأ؟

شيء من الماضي *

أمينة شفيق ** *

أمسكت ابنتي بيدي وهي تشدّني إلى داخل المتجر الكبير. كنا قد أمضينا اليوم كله نبحث معاً عن طرحة زفاف تتناسب مع موديل فستانها. بعد المرور على متاجر عدة والبحث والتفضيل بين عشرات الطُرَح، استقر رأيها على تلك التي في هذا المتجر. فوردها الصناعي الأبيض يشبه إلى حد ما تلك الرسومات التي يتشكّل منها نسيج فستانها الأبيض الذي سترتديه في ليلة عمرها، وعمري أنا كذلك. ولم يكن أمامنا إلا نصف ساعة على موعد الإغلاق. لذلك أخذت بيدي وهي تهرول، وأنا وراءها متعبة مجهدة وفاقدة لتوازني العام.

لمحته. أو بتعبير أدق، لمحت شيئاً منه. لم يكن هو بالتحديد، ذلك الإنسان الذي عرفته منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً. وإنما لمحت شيئاً مما كان عليه منذ تلك السنوات القليلة أو الكثيرة. لم أكد ألمحه، حتى أدرت وجهي عنه. ثم عدت دون وعي مني أنظر إليه مرة ثانية. وجدته ينظر إلي ثم يدير وجهه عني لينظر إلى امرأة تسير بجانبه. بالقطع إنها زوجته. ألقيت نظرة سريعة عليها، فوجدتها تحمل وجهاً لطيفاً، ولكن قامة قصيرة إذا ما قورنت بقامته الطويلة. سمعت صوت ابنتي تناديني: «أمي، أمي أسرعي، لاتزال أمامنا زيارة إلى الحائكة» فهرولت مسرعة وراءها.

اتجهنا معاً إلى قسم طرح الزفاف. حدّدنا طلبنا ثم استدرنا لندفع الثمن ونتسلّم

---

* العدد -447 فبراير 1996

** كاتبة من مصر

الطرحة. في استدارتي، وجدته أمامي وهو يستمع إليها تقول له: «هذه هي الطرحة التي اختارتها هناء». فهمت أنه يشتري طرحة زفاف ابنته الكبرى. فقد قيل لي منذ فترة طويلة إنه تزوج وأنجب ثلاث بنات.

كنا زميلين في الجامعة. التحقنا بالسنة الأولى معاً. صعدنا السنوات الجامعية واحدة بعد الأخرى، معاً. ومنذ السنة الأولى ونحن على اتفاق. وكلما مرت بنا السنوات الجامعية زاد تقاربنا. كان ذلك بعلم غالبية الزملاء الجامعيين، أو زملاء الدفعة كما كنا نسمي بعضنا بعضاً. تعامل معنا الجميع على أساس أننا على اتفاق. حتى أساتذتنا الجامعيون، فقد كانوا يباركون هذه العلاقة الواضحة الصريحة العلنية. إذا رأى أستاذ أحدنا بمفرده، سأل عن الآخر بلا «لف أو دوران». وهكذا انتظر الجميع لحظة التخرج ثم العمل لكي تتوّج هذه العلاقة بالرفاء والبنين. المشكلة التي لم أكن أتوقعها، أن تشكّل تلك السنة التي تزيد من سني على سنه، العقبة في هذا الزواج، كنت أكبر منه بعام واحد. رفضت أسرتي فكرة زواجي من رجل أكبره بعام. كما قبلت أسرته الفكرة على مضض وبلا ترحاب، إنما باستسلام غير مشجع، وكانت صدمة لكلينا. حاولنا إقناع الأسرتين، لكن بلا جدوى وبلا نتيجة. المشكلة أني كنت الابنة الوحيدة لوالدي. اضطررنا للتباعد. في البداية كنت أتابع أخباره بكل عواطفي. مع الوقت تباعدت عني أخباره، كنت أتذكره من حين إلى آخر خاصة إذا التقيت زملاء الجامعة، أو إذا وجدت نفسي في مكان جمعني به.

كانت المفاجأة أن ألتقيه في هذه الظروف. أرافق ابنتي وترافقه زوجته. ماذا لو كنا بمفردينا، هل كنا سنتحادث، وما نوع اللقاء وما موضوع الحديث؟ أفكار سريعة شغلت فكري في لحظات. أفقت منها لحظة أن أمسكت ابنتي بيدي لتشدّني إلى خارج المتجر: «أمي، ماذا بك، أسرعي فالحائكة في انتظارنا».

ارتدت ابنتي ثوبها الأبيض. وضعت الطرحة بوردها على رأسها. وقفت أمامي تستعرض النتيجة، ما أجملها من عروس! نسيت ما حدث من ساعات، فرحت بكل ما أنا فيه، زوجة وأما وحماة. في المساء، اقترب مني زوجي وسألني: «ماذا فعلتما اليوم؟»، كان كل شيء رائعاً يا «أبو أجمل عروس في العالم»، غازلني: «البنت لأمها»، غازلته: «لا، لأبيها».

رائحة أخيرة *

هناء أحمد عطية **

رحت أطرق بابه المواربِ طرقات عدة دون جدوى، ولما أطللت برأسي بين الضلفتين رأيته جالساً في آخر الصالة فوق مقعد كبير دون أن ينتبه إليّ، وكان رأســه مائلاً قليلاً كأنه في غفوة، وعيناه المتسعتان مثبّتتين على الجدار المواجه، أخذت أقترب منه بخطوات بطيئة دون أن يتحرك، وحين وقفت أمامه لمصافحته، رفع رأســه بتثاقل وأخذ يتفحصني، ورأيت عينيه تنضحان بذلك البياض المنطفئ، وراح يمدّ كفّه المنتفخة في وهن، قائلاً بصوت خافت: أذكر وجهك.

قلت متعلثمــة: لقد تقابلنا مــرات عدة في ذلك المقهــى، منذ... أتذكر!

حدّق إليّ بوجهه الغائب وقال: لم أعد أسمع.

ومدّ ذراعيه أمامي قائلاً: انظري... لقد أتلفوا شراييني! ولما نظرت كانت الأوردة الكبيرة منتفخة انتفاخاً هائلاً، ثم أشــار إلى الشريان الممتد من الذراع اليمنى، وقال: من هنا يقومون بغسلها، لقد توقفت الكليتان تماماً.

فكرت أن أسأله عن أشياء كثيرة لكنني لم أفعل، ووجدتني أحدّق في الباب المغلق للغرفة الوحيدة بالبيت، وخيّل إليّ أنني سمعت غطيطاً يأتي

---

* العدد -483 فبراير 1999

** كاتبة من مصر.

من خلفه، وعاودني ذلك الدوار المفاجئ، فجلست إلى المقعد المقابل له وتشاغلت بالتعرّف على المكان، واكتشفت أنه بلا أثاث سوى المقعدين ومنضدة صغيرة أمامه وكوب فارغ، وكان ضوء النيون حاداً وخانقاً.

أخرج من جلبابه أوراق بيضاء مطوية عدة، وقلماً وعدسة مكبّرة، ثم قال: اكتبي هنا ما تريدين بخط كبيـــر، إنني دائماً ما أحمل تلك الأوراق في جيبي. وابتسم، ثم راح يردّد بعض أبيات من قصائده التي أعرفها بصوت متحشرج كتبت: قصيدة رائعة.

قال: كتبتها في قطار، وكانت هناك في آخر العربة امرأة، وحيدة، تضحك بجنون ثم أخذت تلصق وجهها بزجاج النافذة.

شرد طويلاً ثم استطرد: أذكر وجهك جيداً. وصمتنا للحظات طويلة، رحت أفكّر فيها بتلك السيدة وضحكاتها.

ثم راح يعبث بالكوب الفارغ هامساً: هل معك خطابات لي؟

أشرت برأسي بالإيجاب.

أخرجت الخطاب من حقيبتي وحين أخذت أغلقها، لمحت زجاجة العطر وأحمر الشفاه، فشعرت بغثيان ورغبة في التقيؤ. أعطيته الخطاب وراح يخرجه من الغلاف بحذر، ولمحت شـيكاً ملحقاً به. قال: لولا الأصدقاء...!

وشـعرت برغبتي في الماء، فتناولت الكوب الذي أمامه وأشار إلى الحمام فمضيت، وكان الحبل المعلق في منتصفه مزدحماً بملابس لم تجف بعد.

عدت إلى مقعدي وحين فرغ من قراءة الخطاب أخذ يتأملني بنظراته المرهقة، وقال: هل تأخذينني إلى النهر؟ أريد أن أراه.

ابتسمتُ بصعوبة وأنا أشير برأسي ورأيته يحدّق إلى الفراغ وأطراف أصابعه تنقر نقرات خافتة فوق مسند المقعد، ثم قال: ستأخذينني إلى النهر! كتبت: نعم، غداً سآتي.

قال: اتركي الباب مواربا.

ورحت أنزل الدرج وضـوء الصالـة يبتعد، وفي العتمة سـمعته يسعل.

نساء عالمات في الأندلس *

سلمى الحفار الكزبري **

قد لا يعرف كثيرون أن المرأة العربية في الأندلس أسهمت في انتشار العلم وتألق الحضارة إبان العصر الذهبي للحكم الأموي فيها بفضل نبوغها في الفقه والبلاغة والتعليم.

إن ما شاع عن دور المرأة في ذلك المجتمع إبان تلك الحقبة الطويلة من الزمن، وما ذكرته كتب التاريخ قد ركّز على موهبتها الشعرية، وعن ذكائها وظرفها بصورة خاصة. واليوم أود التحدث عن النساء العالمات اللواتي أتت على ذكرهن وأثرهن الحميد في الأندلس أمهات كتب الأدب والتاريخ العربية، وبعض الكتب الصادرة في إسبانيا في هذا القرن العشرين بأقلام باحثين ومؤرخين مرموقين.

جميع المصادر التي لدينا تؤكد أنه كان للمرأة العربية الأندلسية دور مميز في ازدهار الثقافة وتطور المجتمع، ولا ريب في أن ظهور مواهب تلك النساء، من شاعرات ومدرسات وعالمات يعود لسببين رئيسين، أولهما البيئة الأندلسية المتطورة والسمحة التي وُجدن فيها، وثانيهما

---

* العدد -484 مارس 1999م

** كاتبة من سورية

الاستقرار السياسي والنهضة التي شملت حواضر الأندلس الكبيرة كقرطبة وإشبيلية وبلنسية وغرناطة وسرقسطة ورندة وحتى مختلف أرجـاء الأندلس منذ القرن الثامن الميلادي، وحتى القرن الثالث عشر منه. تلك البحبوحة العامة في العيش، وذلك الاستقرار الأمني الطويل المدى، إلى جانب التطور الاجتماعـي المذهل الذي حافظ على الديانة الإسلامية متمسكاً بجوهرها من غير أي تزمّت وأي غلو كان السبب الذي حفّز الناس إلى الأخذ بالعلم، والاهتمام بنشره، والعناية الفائقة بالفنون على أنواعها، وإنشـاء المدارس والمكتبات العامة والخاصة واستقطاب العلماء والشعراء والفنانين من الشرق، أي من البلاد العربية كالحجاز والعراق وبلاد الشام. والدليل على ما أقول بما يخص النسـاء العالمات هو أن عليّـة القوم في الأندلس استقدموا من الشرق بعض النساء العالمات لكي يدرسن أبناءهم وبناتهم اللغة والفقه والأدب والعروض.

من تلك العالمات ذكرت لنا كتب التاريخ العربي الأندلسي (وهي كثيرة ومعروفة ومتوافـرة كنفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبدربه وغيرها كثير) اسـم عالمة مرموقة حجازية المنبت اسمها «عابدة المدينة» (نسبة إلى المدينة المنورة) التي درسـت الفقه والبلاغة في قرطبة، وعاشت فيها قادمة من الحجاز، وقد اشتهرت بالفصاحة والفقه، إذ كانت تروي عن أنس بن مالك الصحابي، كانت عابدة من الجواري المدنيات اللواتي كان الأمراء والوجهاء يحضروهن من الحجاز بعد تأديـة فريضة الحج، ولقد حظينَ في الأندلس بمكانة سامية حسدتهن عليها الحرائر لتفوّقهن في العلم والفقه والحديث والأدب. ولقد تزوج

«عابدة» بشر بن حبيب الأندلسي ورزق منها كل أولاده. أما الإماء اللواتي كن ينجبن للأمراء ولداً فكن يصبحن زوجات لهم مكرمات.

كما اشتهرت في قرطبة العالمة «إشراق» التي دُعيت إلى الأندلس وأقامت فيها وعلّمت أبناءها وبناتها محفوفة بكل تكريم، و«إشراق» عرفت برواية الشعر وتفسيره، فقال عنها المؤرخ سليمان بن نجاح: «أخذت عنها علم العروض، وقرأت عليها «النوادر» لأبي علي القالي، و«الكامل» للمبرد.

ولابد من ذكر امرأتين نبغتا بالعزف على العود وبالظرف والأدب هما «فضل» و«قمر»، فلقد حرص أمراء الأندلس الأمويون وخلفاؤها ووجهاؤها على رقي مجتمعهم وتقدم العلوم والفنـــون فيه دون إقصاء المـــرأة، مما ثبت أركان ذلك الرقي وذلك التقدم، لأن أي مجتمع في العالم، عبر العصور، لا يمكن له أن يحقق الازدهار الشامل دون مشاركة نسائه وإطلاق حرية العمل لهن حينما أثبتن قدراتهن في الإسهام والعطاء.

إن من واجب الباحث في هذا الموضوع أن يشـــير إلى واقع تاريخي مهم هو أن الفاتحين الأول للأندلس الذين استوطنوا فيها من عرب وبرابرة كانوا رجالاً فقط، بلا نساء في بداية الفتح، وأنهم اختلطوا بالعرق الإسباني بسرعة إن الإسلام يجيز للرجل تعدد الزوجات، وعندما استقر الحكم العربي في الأندلس أخذ الأمراء نســـاء عربيات، وإماء من الشرق حباً منهم بتقليد ما كانت تفاخر به قصور الخلفاء العباسيين في بغداد، حيث كان للإماء فيها دور كبير في تنشيط الفنون وانتشار الأدب والشعر. يقول الأديب والمؤرخ الأستاذ أحمد أمين في كتابه «ظهر الإسلام»: «إن الخطة التي وضعها حكام الأندلس الأمويون كانت تهدف

إلى نقل ما كانت تفاخر به قصور الخلفاء في الشـــرق، ولاسيما العباسيين، حيث كان للإماء فيها دور كبير في ازدهار الفنون والعلوم»، فهنالك في بغداد، كان يشترط في الإماء اللواتي يشترونهن التمكّن من اللغة وإجادة العزف والغناء، وقول الشعر إلى جانب الجمال، ولكن الفارق كان كبيراً بين معاملة العباسيين للإماء اللواتي كنّ يتدربن في بغداد ثقافياً وفنياً خاصاً، ويصبحن بعد ذلك محظيات أو وصيفات، أو زوجات للأمراء والنبلاء، وبين الإسبانيات اللواتي تزوجهن أمراء الأندلس ووجهاؤها فأسلمن وتعلّمن اللغة العربية التي عمّت شبه الجزيرة الأيبرية على مدى بضعة قرون، وأنجبن جيلاً عربياً أندلسياً مطعماً بالعرق الإسباني جمع بين حرارة الشرق وجاذبيته وجمال الغرب ورقته.

عندما نعود إلى الأجيال اللاحقة من النساء الأندلسيات اللواتي جئن خليطاً لعرقين قرناً في إثر قرن، ذا صفات متميزة من الجمـــال الخُلقي والخلقي نقـــف على نبوغ عدد كبير من النساء، فنذكر «لبنة» العالمة في اللغة وفي الرياضيات التي احتضنها قصر الحكم الثاني يوم كانت جامعة قرطبة في عهده أعظم جامعـــة عربية لتدريس الرياضيات والفلســـفة والطب والفلك والكيمياء والفقه والأدب، وأول جامعة علمية في القارة الأوربية كلها. كما نبغت آنذاك الشاعرة القصصية «رضية» التي أطلق عليها معاصروها لقب: «الكوكب الساطع»، وقد قامت برحلة إلى الشرق العربي بعد وفاة الحكم الثاني، ولقيت في عواصمه اســـتقبالاً عظيماً وتكريماً بالغاً. أما «عائشة بنت أحمد القرطبية» فلقد أحاطها الخليفة عبدالرحمن الثالث (الملقب بالناصر) بكل احترام، واعترف بسمو مكانتها العلمية، إذ

كانت تملك مكتبة خاصة بها مؤلفة من أندر المخطوطات التي نقلت جزءاً كبيراً منه بخطها. ومن اللواتي ذكرهن لنا التاريخ بالتمجيد «صفية بنت عبدالله الكاتبة التي تفرّغت لنقل المخطوطات، واشتهرت ببراعتها في جودة الخط وجماله، وفي الإنشاء.

وعندما انتقلت الخلافة من الحكم الثاني إلى ابنه هشام تسلمت أمانة السر في بلاطه امرأة تدعى «نظام»، وهي التي كانت حسبما ذكرت لنا المصادر العربية والإسبانية، متفوّقة في تدوين الوثائق السياسية والإدارية، بخط جميل، على أسس نهج علمي برعت به، فحافظت على مركزها المرموق في البلاد، حيث أحيطت بما تستحق من تقدير وإكرام.

وإذا انتقلنا من العاصمة «قرطبة» إلى إشبيلية نتوقف عند مدرسات وعالمات باللغة والأدب، والفن الموسيقي، نابغات، أسهمن في نشر التعليم فنذكر منهن: «مريم بنت يعقوب الأنصاري»، التي كانت تطوف على بيوت إشبيلية لتعليم بناتها وأبنائها الصرف والنحو والأدب في خلافة المهدي صاحب إشبيلية في القرن الحادي عشر.

إن أخبار أمثال هذه النساء العالمات في الأندلس الواردة في كتب التاريخ كثيرة جداً ومبعثرة لم يسبق أن ألقيت عليها الأضواء، كما نتمنى، لجمعها في دراسة حديثة تطلع عليها أجيالنا الصاعدة وتستفيد منها. لقد ذكر «المقري» في «نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب» عدداً كبيراً من النساء اللواتي تفرّغن للعلم والتعليم ونسخ المخطوطات وأكثر من ثلاثين شاعرة مجيدة، وذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه: «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» الدور المهم الذي قامت به المرأة في نشر

الثقافة وتطوير المجتمع والسمو بالفن، ونشر المستعرب الدكتور «خوان فيرنيه Juan Vernet» أستاذ اللغة والأدب والتاريخ العربي في جامعة برشلونة كتاباً باللغة الإسبانية عنوانه: «المسلمون الإسبان» قبل ثلاثة عقود تقريباً، وكتاباً آخر لا يقل أهمية عنه بعنـــوان: «بمَ تدين الثقافة لعرب إسبانية» تُرجم إلى اللغة الفرنسية عام 1985. والدكتور فيرنيه عالم ومؤرخ وكاتب معاصـــر مرموق من منطقة كاتالونيا متفرّغ لإلقاء الأضواء على الحضارة العربية في الأندلس منذ مطلع شـــبابه، ومرجع موثوق للبحث عنها في مؤلفاته المنشورة المتعددة. ولا يختلف اثنان من الكتّاب والباحثين العرب والغربيين على أن الفكر العربي قد وجد في الأندلس أرضاً خصبة، وبيئة مشجعة على النمو والازدهار، وأن المرأة فيها قد وجدت منطلقاً لمواهبها، وحافزاً على استكمال شخصيتها لأنها تتأثر كثيراً بالمحيط الذي تنشأ فيه وتعمل، فترتقي فكرياً وثقافياً وفنياً عندما يرتقي، كما تنعزل وتطمس مواهبها، وتلجم قدراتها، عندما يتخلف عن الركب العلمي والحضاري.

رسالة لم تُرسل*

ملك حاج عبيد **

اعذرني يا أبي فما وقفت قبل اليوم موقف الناقد لك، فقد كنت في نظـــري الرجل الكامل. عندما رســـمت صورة لفتى أحلامي شكلتها من ملامحك.

كنت مثلي، وأتمنى أن تبقى. كنت الشـــجرة الحانية القوية التي أستند إليها وأتفيأ ظلها.

رأيت دموعك يوم رحلت أمي، ورأيت الحزن الذي أحنى القامة الشامخة، يومها لجأت إلى صدرك فأحسست بالأمان.

سبع سنوات وأنت تسكب علي حباً وحناناً وعطاء.

سبع سنوات قفزت فيها من عالم الطفولة إلى دنيا الصبا.

عرفت صبوة القلب وتفتح الجســـد، عرفت اللهفة للآخر والاندفاع إليه، ولكنك كنت عندي المثال الذي يسمو على الصبوة واللهفة.

كنت أعتقد أن التعب قد خـــلا إلا من الزوجة الرائعة التي رحلت والأولاد الذين وهبتهم حياتك.

اليوم عرفت أن القلب قد تحوّل من قبلته.

---

* العدد -487 يونيو 1999م

** كاتبة من سورية.

لن تعرف مقدار صدمتي عندما رأيت هذه الفتاة تنزل من سيارتك.

قلت إنك مسـافر وبت ليلتك خارج البيت، ولكنك كنت في المدينة وهذه الفتاة معك.

تواريت لئلا تراني. لا أريد أن أراك محرجاً أمامي، لا أطيق إغضاءك أمام نظرات تسألك:

أين كنت البارحة؟

في بيتنا الريفي كانت ليلتك؟ هل نامت على سرير أمي، هل جلست على مقاعدنا؟ هل شربت القهوة في شرفتنا؟

مازلت أذكرها بقامتها الممشوقة وبنطلون الجينز الملتصق بجسدها، بعينيها المكحولتين الوقحتين وقرطها الكبير، ووداعها لك بنظرة من تعرف أنها ستلاقيك.

سارت في الشارع بمشيتها الغريبة، ومضيت بسيارتك وبشعرك المكلل بالبياض وظهرك المثقل بالأعباء.

أعرف أنها صبوة النفس وأعرف أن الإنسان لا يقدر على الاحتمال.

رغم ألمي أقول لك:

ابحث عن رفيقة تقضي بقية عمرك معها، ابحث عن قلب يحبك لأنك جدير بالحب لا عن مراهقة تبيعك المتعة بالمال.

أرجوك لا تجعلني أتوارى مرة ثانية لئلا أراك، أنت عندي أقوى من الزلل لأنك أنت المثال.

أتمنى للشـجرة التي أظلّتني أن تبقى شامخة، وأتمنى ألا يخسر حبي لك وهج الإعجاب وروعة النقاء.

ابن بطوطة يصوم رمضان *

ابتهال سيد علي **

يتمنى الفرد أحياناً أن يجلس إلى مائدة إفطار رمضان في جزر المالاديف أو الصين ويحتفل بعيد الفطر أو عيد الأضحى مع مسلمي الهند أو مالي، وغيرهما من البلاد الإسلامية، هذا عن الوقت الحالي، ولكن ماذا عن مظاهر وعادات الاحتفال بشهر رمضان المعظم وعيدي الفطر والأضحى في القرن الثامن الهجري وتحديداً في الفترة بين عامي 725هـ و754هـ، وذلك بقلم ووصف رحالة عربي شهير هو «ابن بطوطة»، الذي وُلد بمدينة طنجة المغربية عام 703 هـ، وخرج منها وعمره 22 عاماً مستهلاً سلسلة من الرحلات واسعة النطاق جاب فيها أقطاراً عدة من قارة آسيا وإفريقيا وأوربا ولمدة 28 عاماً.

خرج ابن بطوطة من طنجة في شهر رجب عام 725هـ بهدف حج بيت الله الحرام، ومر على عدد من مدن المغرب العربي طوال شهري شعبان ورمضان حتى وصل إلى تونس، وهناك أظله عيد الفطر المبارك.

ويصف احتفال أهل تونس بالعيد، قائلاً: «أظلني بتونس عيد

---

* العدد -493 ديسمبر 1999

** كاتبة وباحثة من مصر.

الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة، ووافى السلطان أبو يحيى راكباً، وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب...».

ويكمل الرحّالة العربي مسار رحلته عبر الشمال الإفريقي حتى وصل إلى مصر، وذكر أن ثاني شهر رمضان يهل عليه أثناء رحلته للحج كان وهو في مدينة «أبيار» في دلتا مصر، حيث حضر مع قاضي المدينة (عزالدين المليحي الشافعي) يوم الرّكبة أي يوم رؤية هلال رمضان.

ويؤرخ ابن بطوطة لتقاليد الاحتفال بليلة الرؤية في مصر عام 727هـ حيث يجتمع فقهاء كل مدينة أو قرية وعلية القوم بها بعد عصر يوم 29 شعبان في دار القاضي، ومنها إلى مكان مرتفع في خارج المدينة في موكب ضخم يحفه النساء والصبيان لرؤية هلال الشهر الكريم.

وتصادف يوم وصوله إلى مدينة دمشق يوم التاسع من رمضان، ويذكر من فضائل الدمشقيين في الشهر الكريم أنه لا يتناول أحد من أهلها الإفطار وحده البتة، فالأمراء والقضاة يدعون أصحابهم والفقراء للإفطار معهم، بينما يجتمع العامة في دار أحدهم أو في مسجد، ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون معاً.

ويورد ابن بطولة موقفاً فاضلاً لمدرس المذهب المالكي في دمشق نورالدين السخاوي معه في رمضان، حيث دعا ابن بطوطة للإفطار عنده إلا أن الأخير اعتذر لإصابته بحمى شديدة، فبعث في طلبه واستضافه إلى يوم عيد الفطر، وأمر بإحضار طبيب إلى أن استردّ ابن بطوطة عافيته وشفاه الله، وبدأ في التحرّك مع الركب الحجازي قاصداً مكة.

ويسهب ابن بطوطة في وصف مكة المكرمة بجبالها وأبوابها والكعبة المشرفة وأبواب المسجد الحرام والحجر الأسود وغيرها من المشاعر المقدسة علاوة على عادات أهلها في شهر رمضان حيث

يبدأ الاحتفال به مبكراً منذ غرة رجب، حيث يقول «إذا هلّ هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوق، ويخرج في أول يوم منه راكباً ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه ويسير الجميع إلى الميقات ومنه إلى المسجد الحرام للصلاة ركعتين، ثم يُقبِّل أمير مكة الحجر الأسود ويشرع الجميع في الطواف سبعة أشواط، وعندما يكمل الأمير شوطاً يندفع المؤذن الزمزمي (رئيس المؤذنين) الذي يكون أعلى قبة زمزم بالدعاء والتهنئة بدخول شهر رجب...».

وإذا هلَّ رمضان تضرب الطبول عند أمير مكة وتجدد الحصر في المسجد الحرام ويتضاعف عدد الشمع والمشاعل، وتتفرّق الأئمة فرقاً هي الشافعية والزيدية والحنفية والحنبلية، ويجتهد كل فريق في قراءة القرآن وإحياء ليالي رمضان.

وفي وقت السحور يردد المؤذن الزمزمي الأدعية، ويرد عليه المؤذنون في سائر مآذن المسجد الحرام الخمس، فإذا قرب الفجر انطفأت القناديل، وبدأ الأذان، وكان من عادة أهل مكة في تلك الآونة أن لديارهم أسطحاً، فمن بعدت داره عن المسجد الحرام يبصر انطفاء القناديل في أعلى المآذن فيبدأ الصوم.

وبعد أداء شعائر فريضة الحج خرج من مكة وتوجه إلى العراق ماراً بالعديد من المدن والحواضر، ومنها الكوفة وبغداد وأصفهان. وعاد مرة أخرى إلى مكان للحج عام 728هـ، حيث أقام بها لمدة عامين وخرج منها قاصداً اليمن ثم مقديشيو (عاصمة الصومال حالياً)، وزار شرق إفريقيا ثم ركب البحر مرة أخرى متجولاً في مدن الخليج العربي، وعاد للحج للمرة الثالثة عام 732هـ ومن مكة انطلق إلى صعيد مصر ومدن الشام ومن مدينة اللاذقية بحراً سافر في «قرقورة كبيرة» - يقصد مركباً - إلى بلاد الروم وبر الأتراك.

وهلّ عليه شهر رمضان في بداية جولته في بلاد الروم في بلدة «أكريدور»، فكان إفطاره في ضيافة سلطانها أبو إسحاق بك بن

الدندار بك وذلك أن أهل تلــك البلاد يتناولون في بداية الإفطار «الثريد»، وهو عبارة عن عدس يسقى بالسمن والسكر، تبرّكاً بالرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي عيد الفطر يخرج أهالي مدينة «لاذق» إحدى حواضر بلاد الروم حاملين الأســلحة في موكب ضخم ومعهــم الأبقار والغنم والخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدّقون بلحومها قبل صلاة

عيد الفطر.

ومن طريف ما تعرض له ابـــن بطوطة في مدينة بلغار - مدينة الصقالبة في الشمال من البحر الأســـود - أن أذان العشاء فيها حلّ أثناء إفطاره المغرب وطلع الفجر عقب صلاة العشاء والتراويح فوراً وذلك لأنها بلاد شديدة البرودة قصيرة الليل شتاء وقصيرة النهار صيفاً.

وفي بلاد السلطان محمد أوزبك، سلطان الترك، اضطر إلى تناول لحوم الخيل التي كانت أكثر ما يتناوله أهل تلك البلاد.

ثم تابع ابن بطوطة رحلته شرقاً ماراً بخوارزم وبخارى وسمرقند وترمذ وخراسان حتى وصل إلى كابول عاصمة الأفغان.

ووصل ابن بطوطة إلى الهند عـــام 734هـ حيث عاش فيها فترة طويلة وتقلد منصب قاضي دلهي حاضرة ملك الهند والسند، وقد وصف بإســـهاب بالغ موكب خروج السلطان محمد شاه بن غياث الدين تغلق ملك الهند والسند إلى صلاة العيدين، فيذكر أن في يوم العيد تزيّن الفيلة في السلطنة بالحرير والجواهر ويخصص للسلطان ستة عشر فيلاً ترفع عليها مظلات حريرية مرصعة بالجواهر وذات قوائم من الذهب الخالص ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه ووراءه القضاة والوزراء ورجال السلطنة. وفي عيد الأضحى ينحر السلطان جملاً برمح يسمّونه «النيزة».

وإذا عاد السلطان للقصر تبدأ مباهج وأفراح العيد، حيث يجلس على سرير ذهبي في حديقة قصره ويتوافد عليه الولاة من أركان الســـلطنة للتهنئة بالعيد وفي يد كل واحد منهم صرة بها دنانير ذهبية مسكوكة باســـمه ويلقيها في إناء ذهبي يوزع السلطان منه على الوافدين والغرباء والفقراء.

وتوقد في القصر المبخرة العظمى وهي برج مصنوع من الذهب الخالص، كما يـــرش فتيان القصر ماء الـــورد والزهر على عامة الهنود.

وفي عام 743هـ أبحر في مهمة رسمية إلى بلاد الصين محملاً بالهدايا من ملك الهند والسند إلى ملكها، وتعرّضت رحلته لأهوال جسيمة أدت إلى ضياع الهدايا وتعرّضه للأسر، وقد مر عليه شهر رمضان في مدينة هنور - في جنوب الهند حالياً - ومن حسن طالعه أن سلطانها كان مسلماً، فكان يدعوه للإفطار معه برفقة الفقهاء وكبار رجال المدينة، ووصف طريقة تقديم الإفطار، حث تحضر مائدة نحاسية عيلها صحاف مثلها، وتأتي جارية حسناء ملتحفة بثوب حريري فتقدم قدور الطعام بين يدي السلطان فتبدأ بالأرز أولاً وعليه السمن والفلفل والزنجبيل والليمون والمانجو المملحة، يليه الدجاج والسمك ويختم الإفطار باللبن الرائب.

ويذكر ابن بطوطة أنه أمضى في هنور وجزائر ذيبة المهل (جزر المالديف) وسريلانكا وبلاد المليبار ثلاث سنوات لا يأكل فيها إلا الأرز ولم يذق الخبز قط فيها حتى صار لا يستسيغ الأرز.

وفي جزر «ذيبة المهل» التي كانت تحكمها السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين أرسل إليه وزيرها بكسوة للخروج معه في موكب عيد الفطر، ويصف ابن بطوطة المشهد بأن الطريق من دار الوزير إلى المسجد تزين وتفرش وتغرس نخل النارجيل (جوز الهند) وأشجار الموز على جانبي الطريق وتمد بينها شرائط ملوّنة، وإذا مر موكب الوزير على أحد المنازل يخرج صاحبه ويرمي أمام الوزير ثوباً حريرياً أو قطنياً وبعضاً من الودع (عملة البلاد حينذاك).

وسافر بعد ذلك إلى سيلان (سريلانكا) وزار فيها جبل سرنديب الذي يزعم أهلها أن به أثر قدم سيدنا آدم عندما هبط من الجنة إلى الأرض، وواصل بن بطوطة رحلته إلى بلاد بنجالة وبلاد المعبر (إندونيسيا وبنجلاديش) حتى وصل إلى الصين.

وقد عاد ابن بطوطة إلى بلاده في عام 750هـ، ومن الطريف أن ذلك كان في بداية شهر رمضان المعظم، وقد انطلق منها مرة أخرى في رحلة إلى بلاد الأندلس وإلى إفريقيا.

ما بين الحلم والواقع *

فاطمة حسين **

لكَم أعترف، بأنني كلما تصفّحت مجلة العربي، يخيّل إلي بأنها تكاد تكون الساحة الوحيدة التي يلتقي فيها المواطنون في سلام ووئام، في هذا الوطن العربي التعيس، هذا إن لم تكن فعلاً هي الساحة الوحيدة. يبيّن لنا ذلك أننا قد نكون شعب «لسان» أو شعب «قلم وورق»، ولكننا قطعاً لسنا شعب فعل وتطبيق.

فـ«العربي» تحلّق بنا كل شهر مرة، في موقع ما بين السماء والأرض، نترك على الأرض خلافاتنا وما يلحق بها وما تحتويه من مشاعر سلبية تصل إلى حدود الغيرة والحسد والأنانية...إلخ، التي تأخذنا إلى نحر الواحد منا للآخر. ثم نقذف بالأمل في الفهم والتفاهم إلى السماء حتى يبقى معلقاً هناك لا نطاله. ذاك الأمل بالوحدة العربية ذات الظل الظليل التي تستوعب الطاقات المتناثرة من فكر وعلم وفن

* العدد -496 مارس 2000

** كاتبة صحفية كويتية.

لنستثمرها بناء لثقافة اليوم وحضارة الغد.

لكن «سكاكين» السياسة المصنوعة من المصلحة المغرقة في ذاتيتها (فرداً أو أسرة أو فخذاً أو قبيلة، أو جماعة أو ملة أو حزباً أو طائفة) تقف بالمرصاد لذلك الأمل. هذه السكاكين الحادّة هي التي تعمل في تلك الطاقة تفتيتاً، حتى يبدو كل إنجاز عربي يحمل في طياته نقصاً ما، فلا المكاسب السياسية تكتمل ولا الاقتصادية ولا الثقافية ولا حتى المكاسب الاجتماعية. فهناك دوماً - في منتصف الطريق أو في نهايته - نقص ما، هناك خلل، نفطن له أو لا نفطن، ولكننا نتعهد للتاريخ بعدم تكراره، وإننا سوف نتجاوزه في المرة القادمة ولكننا لا نفعل. وبتكرار التجربة تصبح هذه عادة، والعادة تتحول إلى سمة تصل في نهاية المطاف إلى ثقافة عامة تعم المجتمع.

لذلك، فإن الأمور عندنا تقفز إعلامياً أو إعلانياً ما بين التميز - غير ذي المثيل - وما بين الإخفاق - وأيضاً غير ذي المثيل - دون توقف عند الجودة فعلاً بدرجاتها المختلفة، إذ إن السلطة، ظاهرة كانت أو خافية، تفرض «التميز» حكماً على أمر ما، كما أنها تفرض أيضاً الإخفاق حكماً على أمر آخر، باستخدام وسائل الإعلام والإعلان المملوكة لها كلية. فالتميز كائن لكل ما يحقق المراد، والإخفاق كائن لكل ما لا يحقق هذا المراد.

في جو كهذا يصبح طبيعياً أن يغيب النقد العلمي والموضوعي

للأحداث، فهو محرّم على المستوى السياسي، مقيد على المستوى الاقتصادي، ذاتي النزعة على المستوى الثقافي، مرفوض على المستوى الاجتماعي. ونأسف، فقط نأسف على وضع لا يجد فيه النقد مكانه بالرغم من ضرورة وجوده للأمم الراغبة في الحياة. أما نحن فيحلو لنا أحياناً أن نتصور بأننا واحدة من تلك الأمم، لكن يبدو أن حلمنا بالتقدم الذي نلهج به شفاهة ونسطره بالقلم على الورق تحريراً لا يلبث أن يتصاعد إلى السماء غيمة تنتظر ريحاً عاتية تسقطها علينا مطراً يمتزج بدمع أمة لا تعرف أين تتجه وتلتذ بالبكاء على أطلالها، معلنة وبصراحة قاتلة عجز الحاضر أن يصل ما بين الماضي التليد والمستقبل المجهول.

لذلك – أعترف – بأنني كلما أمسكت بمجلة العربي – المواطن العربي الوحيد في هذه الأرض الذي يتجول بحرية ما بين الخليج والمحيط – شعرت بأنني أقف وسط واحة ندية تستقر وسط صحراء قاسية تمتد ما بين الكويت والمغرب العربي، صحراء ولكنها زاخرة بنباتات برية غير ذات جذور وغير قابلة لإعادة الإنبات، يغيب فيها معنى التنمية الحياتية ويغيب عنها.

أتصوّر، أنه ولهذا السبب تغيب الابتسامة عن وجه العربي، لأنه لا يكتفي بحمل همّه الشخصي كما يفعل الإنسان في الأمم المتقدمة، بل إنه يحمل – مضطراً – همّه فوق همّ الوطن فوق هم المواطن. ينوء بحمله – المسكين – ويعجز

عن الإنتاج فيعجز المجتمع – بالتبعية – عن التطور، وتعجز القيادة السياسية عن القيادة نحو التشريع التنموي والتنفيذ. وهكذا نحكم على أنفسنا بالجلوس على مقاعد محطة قطار العالم الحديث، نشهد مروره، يروّعنا صوته، نفزع، ثم ندعك آذاننا وننتظر القطار التالي.

أيّ بلادة هذه!

تحرر المرأة العربية... ذلك اللحن الذي لم يتم *

فريدة النقاش **

تاريخ المرأة العربية في القرن العشرين وتجربتها هما تاريخ الحداثة وتجربتها في الوطن العربي، فقضية تحرير المرأة تدخل في صلب كل القضايا الكبرى التي عرفها القرن. خرجت غالبية بلدان الوطن العربي من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهي محتلة تستنهض قواها للخلاص من الاحتلال.

وادعى المحتلون في كل مكان أنهم إنما يحملون رسالة الحداثة إلى البلدان المستعمرة (بفتح الميم)، ويعلمونها النظم الإدارية الجديدة مع لغاتهم، وينقلون إليها قيم الحرية والإخاء والمساواة وحرية المرأة، كما ادعى نابليون حين قام بحملته ضد مصر في نهاية القرن الثامن عشر وتعرض لهزيمة منكرة. لكن الواقع يقول لنا إن الحملة الفرنسية حين خرجت من مصر بعد أن حاربها المصريون رجالاً ونساء بكل قوة حملت معها المطبعة التي جاءت بها. وحين دخل الفرنسيون إلى الجزائر بعد هزيمتهم في مصر باثنين وثلاثين

---

* العدد -497 أبريل 2000

** كاتبة من مصر

عاماً وأنشأوا فيها المستوطنات حاولوا اقتلاع اللغة القومية للبلاد لتحتل الفرنسية مكانها، وكان الطابع الأساسي لاستعمارهم في إفريقيا وآسـيا وأمريكا اللاتينية ثقافياً وعامل تشوه للثقافات الوطنية لبلدان المستعمرات.

وفي القلب من ثقافة الشـعوب تقع قضية المـرأة بتناقضاتها والتباساتها، وكثيراً ما ترى الشعوب أن خصوصيتها القومية هي امرأة تجسد شرف الوطن، وطالما عوقبت المرأة باسم هذا الشرف.

وفي الجزائر مثلاً اتخذت مقاومة النساء للاحتلال واشتراكهن في الحرب ضد المحتلين شكل التمسك بالزي القومي للبلاد الذي تغطي به المرأة رأسها ونصف وجهها، وقد استخدمت النساء هذا الزي القومي لإخفاء الأسلحة والمنشورات ونقلها من مكان لمكان. وهو الزي نفسه الذي حين بدأت المرأة الحديثة تتخلى عنه لأسباب عملية جرى اتهامها بخيانة الدين من قبل قوى سياسية تسعى لبناء دولة دينية في الجزائر، ومع ذلك حين استقلت الجزائر حصلت المرأة على بعض الحقوق دون حقوق أخرى.

وفي بلدان عربية أخرى تمرست فيها قوى سياسية كبيرة خلف الدين الذي بدا أفضل تعبير عن هويـة مجروحة ومهزومة في مواجهة العنف الاستعماري قديمه وجديده.

وتداخلت عمليات مقاومة الاحتلال مع نشوء الحداثة في كل البلدان المحتلة، والحداثة تعني على المسـتوى الفلسفي تحرير الفرد وإطلاق إمكاناته كافة، وعلى المسـتوى الإنتاجي هي نشر الصناعة وعلى المستوى الإداري اتباع النظم الجديدة في الإدارة، وعلى المستوى السياسي هي الديمقراطية بما تتضمنه من كفالة حق الاقتراع العام والتعددية السياسية وتداول السلطة، والإصلاح الديني بما يؤدي إلى فصل الدين عن السياسة وبقائه شأناً شخصياً بين الإنسان وربه. فإذا فحصنا تاريخ الأقطار العربية في كل بلد على حدة أو في تشـابكاته، فسوف نجد أن هذه القيم والآليات

جميعاً لم تنضج أبداً حتى نهايتها أو تستقر في بلد واحد أو في كل البلدان، فبقي الفرد مكبلاً بالسلطة الأبوية أو سلطة القبيلة والعشيرة، ولم تنتشر الصناعة على نطاق واسع لتصبح هي المصدر الرئيس للثروة، إلا عندما انفجرت الثروة النفطية في بلدان الخليج ونشأت حولها صناعات متقدمة كجزر معزولة ومرتبطة أساساً بالأجانب، حتى النهضة الصناعية الكبرى التي قامت في بعض البلدان في منتصف القرن سرعان ما تعرضت للتصفية بطريقة أو أخرى، وباتت النظم الإدارية الجديدة بدورها مرتبطة بالقطاعات المتقدمة في المجتمع وفي الصناعة، أو ظلت البيروقراطية القديمة تعشش في بقية مؤسسات المجتمع حيث نظم الإنتاج ما قبل الرأسمالية التي لم تختف بعد.

وباستثناء تجربة تداول السلطة في المغرب قبل عامين، فإن نظما استبدادية معادية للديمقراطية، عشائرية أو قبلية أبوية، تفرض حالات الطوارئ وتقيد الحريات وتحاصر حركة الجماهير ومنظماتها، وهي لاتزال تتحكم في مقدّرات ومستقبل الشعوب العربية، بل وتبدد طاقاتها لمواجهة المشروع الصهيوني العنصري الاستيطاني في فلسطين.

ونتيجة لكل هذه العوامل تعثرت مسيرة الإصلاح الديني وحوصرت من قبل الفقه المحافظ والتفسير النصي، وجرى عزل أو تهميش دعاة الإصلاح الديني في كل البلدان العربية بلا استثناء حتى يومنا هذا ومنذ نفي ابن رشد وأحرقت كتبه.

ويرتبط الإصلاح الديني ارتباطاً وثيقاً بقضية تحرير المرأة التي يهيمن على مصيرها التخلف.

وأصبح الانتقال إلى الاشتراكية هدفاً مطروحاً على جدول أعمال القرن منذ بدايته، وتأثرت به إلى حد كبير نظم التحرر الوطني التي طرحت بدورها مسألة العدالة الاجتماعية كقضية محورية، وفي ظل هذا الهدف نفسه دار صراع مرير في الوطن العربي بين

النظم المحافظة والنظم التحررية حول مستقبل الأمة، وكانت قضية المرأة إحدى القضايا المحورية الكبرى في هذا الصراع لأنها تقع في صلب كل من التحرر والديمقراطية والإصلاح الديني، خاصة بعد أن اندفعت المرأة إلى سوق العمل المنظم وهي التي عملت دائما خارجه. بل إن ثورة التصنيع التي عرفتها بعض بلدان المنطقة في الثلث الأول من القرن وفي منتصفه جعلت الطلب على الأيدي العاملة النسائية يشتد، ولذا طرح موضوع تعليم المرأة وتدريبها على نطاق واسع، وأصبحت النساء جزءاً لا يستهان به من قوة العمل الحديثة فضلا عن اشتغالها التقليدي والقديم بالزراعة والحرف المنزلية.

ولم تعد المناداة بتعليم المرأة والدفاع عن حقها فيه مجرد ثورة فكرية كما قادها مفكرون ليبراليون من أجل تربية أجيال جديدة صالحة إذا ما تعلمت كما طرحها كل من رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين بعده في مصر، أو الطاهر الحداد بعد ذلك في تونس، بل أصبحت حاجة اجتماعية واقتصادية لنمو الإنتاج وتطور المجتمع وتحديثه.

شاركت النساء العربيات إذن بصور متفاوتة في عمليات التحرير والتحديث معاً، في ثورة 1919 في مصر ضد الاحتلال الإنجليزي لعبت جماعة النساء أدواراً بطولية لم تدرس بعد، وإنما درست البطولات الفردية كما هي الحال في كتابة التاريخ الأساسية التي نسبت إنجازاته الكبرى للأفراد العظماء حتى زماننا هذا. وشاركت النساء السوريات في ثورة 1925 ضد الاحتلال الفرنسي، وشاركت النساء الجزائريات في حرب التحرير لثمانية أعوام متصلة ضد الاستعمار نفسه وسقطت الشهيدات وأسرت الأسيرات، وانخرطت النساء الفلسطينيات في ثورة 1936 ضد نذر الاحتلال الصهيوني المتواطئ مع الإنجليز لبلادهن، ولعبن بعد ذلك دوراً مركزياً في الكفاح المسلح وفي الانتفاضة، ولعبت النساء المصريات دوراً مرموقاً

في الهبة الشعبية الكاسحة سنة 1946 ضد الاحتلال والرجعية والملكية معاً، بل وساهمن في بلورة شعارات التقدم الاجتماعي والاشتراكية التي كانت تمهيدا لثورة يوليو 1952. وحين أمم جمال عبدالناصر قناة السويس مواصلاً مسيرة العالم النامي لاسترداد ثرواته الوطنية من أيدي المستعمرين كما سبق أن أمم مصدق بترول إيران، ثم وقع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 كانت النساء في مقدمة المقاتلين ومنظمي المقاومة الشعبية للاحتلال، ويمكن تأليف الكتب عن إسهام النساء العربيات في الثورة والتحرير، لو أننا شئنا أن نسلط الضوء فقط على هذا الإسهام الفعال في حركة التحرر الوطني على مدى القرن، لكنه الإسهام الذي كان جزءاً عضوياً من حركة شاملة.

ومع ذلك حصلت المرأة العربية في ظل التحرر على حقين أساسيين كافحت طويلاً من أجلهما، هما حق العمل وحق التعليم، ونجحت في تثبيت هذين الحقين كبديهيات في كل من الواقع والذهنية العربية رغم محاولات بعض قوى الإسلام السياسي التشكيك في هذين الحقين كبديهيات، ورغم نشوء دعوات تعيد طرح حقي التعليم والعمل وتربط بينهما وبين دور المرأة في الأسرة الذي وجدت فيه الدور الأساسي، بل ووضعته في تناقض جزئي مع نوعية التعليم الذي يمكن أن تتلقاه المرأة، وفي تناقض كامل مع عملها خارج المنزل، ونشأ ما يمكن أن نسميه بـ «اليوتوبيا الإسلامية الرجعية» التي ترى مستقبلنا الجميل الممكن قد تحقق فقط في الماضي الذي ينبغي علينا استعادته. وقد نجحت هذه القوى غالباً، ولأسباب موضوعية، في حجب يوتوبيا إسلامية أخرى ذات طابع تقدمي ومستقبلي ترى أن مستقبلنا هو من صنعنا ومن صنع الأجيال القادمة التي عليها أن تقرأ الإسلام قراءة تاريخية وتستلهم تراثه العقلاني، شكلت هذه اليوتوبيا التقدمية غالباً خطاً ثانوياً وإن قوياً في تراث الثقافة العربية الإسلامية.

وعلى كل حال تعلمت المرأة العربية ودخلت إلى قوة العمل على مدى القرن، وخاصة منذ منتصفه حتـــى نهايته، ومع ذلك وفي عصر تعرف فيه الأمم المتحدة الأمي بأنه ذلك الذي لا يعرف لغة الكمبيوتر، فإن ما يزيد قليلاً على النصف من النساء العربيات يرزح تحت وطأة الأمية الأبجدية.

ولم تتساو المرأة العاملة في الأجر مع الرجل العامل إلا في المؤسسات الإنتاجية التي قادها القطاع العام، ولأن المجتمع العربي لم يعترف بعد بالوظائف الإنجابية للمرأة باعتبارها وظائف اجتماعية تقوم بها المرأة لمصلحة المجتمع كله وهي تجدد الجنس البشري، فإن الشرط النسائي أبقى ملايين النساء بعيداً عن فرص التدريب والترقي في المهن والأعمال، وأدى عملياً إلى فروق واسعة في الأجور بين النساء والرجال. ومن جهة أخرى، وفي ظل وصفات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للبلدان النامية - والعربية من بينها - ترتبت على عمليات الخصخصة وانسحاب الدولة من الخدمات والتخفيض المتواصل للعملة المحلية وبناء ما يسمى بالمشروعات الصغيرة مقابل تفكيك القطاع العام الصناعي ومنع الدولة عملياً من الدخول في ميدان الاستثمار، كما كانت الحال في ظل هيمنة نظم التحرر الوطني، كل هذه العوامل أدت إلى بروز أوضاع متناقضة للنساء. فهن ينخرطن على نطاق واسع في صفوف العمل الهامشي وغير المنظم، فضلاً عن عملهن في مجموعة من الصناعات الرئيسة مثل صناعة الأغذية والنسيج والسجاد والإلكترونيات والحرف التقليدية والتي تنتظم في مجموعة من المنشآت الصغيرة ولا تخضع للرقابة أو التفتيش على شروط العمل، لأن العاملات والعاملين فيها لا ينتظمون في العمل النقابي بحكم صغر المشروع الذي يعملون فيه، فضلاً عن التقييد الشديد لحقوق التنظيم النقابي أو الحزبي حتى يستحيل إنشاء هذا التنظيم في غالبية البلدان ويصبح بالغ الصعوبة في بعضها. وهكذا تتدفق إلى سوق العمل عمالة نسائية بالملايين في كل بلدان

الوطن العربي، لكنها عمالة بلا حقوق، وكأننا نعود القهقرى إلى القرن التاسع عشر في أوربا حين وقع استغلال وحشي على النساء والأطفال في المصانع وكانوا أيضاً بلا حقوق من أجل الإسراع في التراكم الرأسمالي الذي سرعان ما جرى تصدير فائضه لفتح المستعمرات. والآن يجري استغلال قوة العمل وبخاصة النساء والأطفال بصورة همجية في بلداننا لمصلحة الشركات متعددة الجنسية، ولكي تحقق الطبقات الغنية في كل من شمال العالم وجنوبه تراكماً بسرعة الضوء ترعاه المؤسسات المالية الدولية التي نشأت على اتفاقية للأمم المتحدة في «بريتون وودز»، وهي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وأذكر هنا الأمم المتحدة عمداً لأنها هي نظرياً المنظمة التي تدير شؤون العالم على أساس من العدل والمساواة، بينما تلك المؤسسات التابعة لها هي التي ترعى الاستغلال المنظم على نطاق عالمي خاصة استغلال النساء والأطفال بينما هي - أي الأمم المتحدة - تنظم المؤتمرات العالمية للمرأة التي كان آخرها المؤتمر الرابع في بكين عام 1995. كذلك دخلت إلى ميدان المشاركة السياسية بدءاً من منتصف القرن في مصر أولاً حين تضمن دستور 1956 حق المرأة في الترشيح والانتخاب، وتبعتها الغالبية العظمى من البلدان العربية، باستثناء دول الخليج التي تمنع المرأة من المشاركة في الحياة السياسية، ما عدا عمان وقطر أخيراً، بينما تخوض المرأة الكويتية جنباً إلى جنب القوى الديمقراطية في المجتمع معركة قاسية من أجل تأمين حقوقها السياسية التي تقف بعض التيارات الدينية ضدها بقوة وثبات، فإذا كانت المشاركة السياسية للمرأة العربية في كل البلدان هي مسألة وقت، أي إنها قادمة لا محالة على مشارف القرن الجديد، فإن حقوق المرأة كإنسان كامل المواصفات والأهلية في قوانين الأسرة والجنسية والحقوق المدنية في البلدان العربية سوف تبقى موضوعاً لصراع طويل في القرن القادم. وباستثناء قانون الأحوال الشخصية في تونس الذي وضع المرأة

على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات داخل الأسرة، ووفر للنساء كل حقوقهن المدنية، فإن قوانين الأحوال الشخصية في بقية البلدان العربية دون استثناء، وفي نهاية القرن لاتزال قوانين قائمة على التمييز ضد المرأة واعتبارها كائناً أدنى لابد من فرض الوصاية الأبوية عليه، فهي لا تستطيع تزويج أو تطليق نفسها، ولا تستطيع استخدام جواز سفر دون إذن الزوج أو الأب، وتفقد في وجود الأب حق الوصاية على أبنائها، وتعجز عن السفر دون موافقة رجل من الأسرة، ولا تستطيع أن تمنح لزوجها الأجنبي أو لأبنائها منه جنسيتها، بل وفي غالب الأحيان لا تستطيع أن تلتحق بالعمل أو تواصله دون موافقة الزوج الذي يحق له أن يمنعها أصلاً من الخروج للمساهمة في الحياة السياسية أو مواصلة التعليم إن شاءت.

أي إن قوانين الأحوال الشخصية يمكن نظرياً وعملياً أن تبطل تفعيل كل الحقوق الأخرى في العمل والتعليم والمشاركة السياسية التي حصلت عليها المرأة بعد نضال طويل. إن ما حدث عبر قرن من الزمان كان عملية التهميش المتواصل لكل فكر ديني مستنير في ما يخص قضية المرأة أو حرية الفكر والاعتقاد بدءاً من قول الإمام محمد عبده في مصر بأن تعدد الزوجات يمكن إبطاله فقهياً، مروراً بسعي الطاهر الحداد في تونس لإعادة تفسير كل ما يعطل المساواة التامة بين الرجل والمرأة، وصولا إلى المفكر السوداني محمود محمد طه الذي دعا النساء لرفض أي وصاية عليهن باسم الدين، وكان أن حوكم ونفذ فيه حكم الإعدام، وأخيرا المفكر المصري نصر حامد أبوزيد الذي قال بالمساواة التامة بين الرجال والنساء على أسس دينية، وكان نصيبه هو تطليق زوجته ابتهال يونس منه بحكم محكمة بدعوى أنه مرتد، وهو حكم صدقت عليه محكمة النقض.

وباختصار، لا يحرر النساء إلا النساء أنفسهن، ولما كانت مساهمات

النساء المتنوعة في قضايا تحرير الأوطان والمشار إليها سابقاً قد اختارت دائماً أن تؤجل المطالب النسائية الخاصة حتى يتحرر الوطن كله أو حتى يجري بناء الاشتراكية التي كانت مطروحة على جدول الأعمال، فقد كان على النساء أن يدفعن ثمن هذا التأجيل مضاعفاً. وقد بينت خبرتنا الطويلة والمريرة أن ما يسمى بترتيب الأولويات أو المقايضة على حق بحق آخر كأن نرضى ببرنامج واسع للإصلاح الاجتماعي مثلاً مقابل التضييق على الحريات السياسية، أو نرضى بحقوق المرأة السياسية دون حقوقها المدنية قد أدى غالباً إلى نتائج سلبية بل وكارثية في بعض الأحيان. وتعلمت الحركات النسائية الجديدة في أواخر القرن العشرين دروس الماضي وحفظتها عن ظهر قلب، ورفضت كلية ما يسمى بترتيب الأولويات، ولم تجد أي تناقض بين كفاحها ضد الصهيونية والهيمنة الأمريكية من جهة، وكفاحها من أجل حقوق المرأة كاملة غير منقوصة من جهة أخرى، ورفضت فكرة الاختيار بين الحقوق الديمقراطية أو المساومة عليها، فالنضال من أجل قانون جديد لمباشرة الحقوق السياسية أو ضد التطبيع مع العدو الصهيوني، أو ضد استغلال الكادحين أصبحت موضوعة الآن على قدم المساواة مع النضال من أجل قوانين أحوال شخصية جديدة عادلة تنهض على مبدأ المساواة وتقيم الأسرة على أسس صحية وحرة. يحدث ذلك في أوساط التنظيمات النسائية الجديدة، رغم أن الغالبية العظمى من منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان التي انتشرت على امتداد الوطن العربي لم تعين قوانين الأحوال الشخصية باعتبارها قوانين مقيدة للحريات حتى الأحزاب التقدمية التي تناضل من أجل مجتمعات جديدة، ومن أجل التغيير الشامل أخذت هي الأخرى تساوم على حقوق المرأة، وكأنها تتواطأ ضمنياً مع الجماعات الإسلامية السياسية المحافظة، التي أخذت تحتل مساحات متزايدة في المشهد. وهي الجماعات التي ترى في المرأة عورة وتسعى لإخفائها وراء

الحجاب والنقاب وإعادتها إلى البيت، أو كأن هذه الأحزاب تخاف من قوة تأثير العادات والتقاليد في المجتمع فتسكت عنها.

ولم تكن مصادفة أن الغالبية العظمى من المنظمات النسائية الجديدة في الوطن العربي قد اختارت أن تؤسس مرجعيتها الفكرية على المواثيق الدولية وخاصة اتفاقية إلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة، وهي تسعى لتأكيد حضورها في أوساط النساء الكادحات والشعبيات، لأنها لا ترى في تحرير المرأة قضية نجاح بعض النساء في الوصول إلى المراكز المرموقة أو احتلال مقاعد الوزارة، أو إجادة العزف المنفرد في مجال أو آخر، بل ترى أن تحرير المرأة هو تحرير الجميع وبخاصة النساء من صنوف القهر المزدوج والاستغلال والتمييز كافة. وتحرير النساء لن يكون منفصلاً أو يتم بمعزل عن تحرير الشعب كله وبناء مجتمع جديد قائم على المساواة وتوزيع ثروات البلاد بالعدل بين منتجيها من رجال ونساء، واستكمال تحديث المجتمع العربي وتحريره بدحر مشروعات الهيمنة الصهيونية والإمبريالية والطبقية على مقدراته، ومثلها مثل قضايا تحرير الوطن وتحرير الإنسان وبناء الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ومكافحة التسلط والاستبداد القبلي والعشائري والجمهوري. وحين نلتفت نحن النساء العربيات إلى الخلف ونطل على مائة عام انقضت من تاريخ أمتنا وتاريخنا الخاص كنساء، فإننا نستطيع ونحن مرتاحات الضمير أن ننظر إليه بامتنان، رغم كل ما يفور بداخلنا من الغضب، ذلك الغضب الذي نحبه، لأنه الطاقة التي سنندفع بها لإنجاز ما فاتنا، فمن دون إنجاز ما فاتنا ستخرج أمتنا من التاريخ، ولكننا سوف نسعى بكل جد لأن نكون في قلب التاريخ نساءً ورجالاً عرباً وبشراً قبل كل شيء نشارك الجميع في الإنسانية.

الحرمة (أجلّك الله) *

فاطمة يوسف العلي **

منذ أخرجت آدم من الجنة، وهي مصدر قلق لأبناء آدم وحتى مصدر قلق لبعض بنات حواء المعدودات من نسلها المبارك، والمشاركة معها في المسؤولية المتوارثة منذ خرج سيدنا آدم من الجنة ولم يعد رغم محاولات الوصول إليها ولو عن طريق تلك الحرمة نفسها دون جدوى.

أستطيع أن أسمي هذه السنة التي قبلها والتي لن تتكرر في حياتنا بسنة «الستات» وهذه السنة بسنة «الأصفار»، فقد حضرت فيها عدداً من المؤتمرات النسائية التي ظللت الشهور بأزهار وورود صنعت باقة معرفية جميلة شملت كل أركان الوطن العربي، فمن مؤتمر المرأة في المغرب ثم تونس إلى مؤتمر المرأة في اليمن ولبنان حتى انتهى المطاف ونزلت الرحال على شاطئ النيل الذي يتراسل مع أضواء المقطم في الجانب الآخر، وكان الاحتفال برجل برغم رفع شعار المرأة، لأن هذا الرجل هو أول من رفع صوته مشيداً بحواء، مدافعاً عن حقها.

أنت لا شك تعرفه، إنه قاسم أمين، هذا الرجل الذي ستجد مدرسة تحمل اسمه تقريباً في كل عاصمة عربية بما فيها الكويت، وعادة تكون مدرسة بنات، وهذا نوع من التقدير الخاص لا يجرؤ رجل آخر على المطالبة بمثله، قاسم أمين كان قاضياً، ولذلك استقر العدل في قلبه واستوطنت

---

* العدد -500 يوليو 2000

** كاتبة كويتية

مشـــاعر الإنصاف في ضميره، ولا بد أنه كان بريئاً جداً ونظيفاً جداً، وحياته مكشوفة جداً وإلا ما جرؤ على إعلان دعوته إلى تحرير المرأة، وكســـر الصف الرجولي والانضمام إلى صفوف «الأعداء» مع أن هؤلاء الأعداء موجودون في كل مكان وفي حماية من يعادونهم من الرجال.

وفي مؤتمر تحرير المرأة في القاهرة تألفت مسيرة ضخمة من مائتين من الضيوف، وأقصـــد الضيفات بالمؤنث والضيفـــان بالمذكر في تآلف وتناصر تحت شعار «تحرير المرأة» الذي كان عنواناً للكتاب القنبلة الذي لايزال يتفاعل ويثير التأييد والمعارضة والاتهام منذ تم تأليفه وبعد قرن من الزمان.

وفي معية هذا الكتاب ولتحيته أقبلت مواكب النساء من مختلف الأقطار العربية تشيد برائد رجل لم يكن مثل بقية رجال زمانه وليس مثل بقية رجال زماننا، فمع الأسف لاتزال حياتنا إلى اليوم تنتظر تجديد الوعد بظهور قاسم أمين جديد يعيد عرض القضية ويعيد الدفاع عن المرأة العربية أو «الحرمة» التي «أجلك الله» أيها القارئ الرجل أن تكون من نوعها.

وتبقى المرأة الكويتية هي الملاذ والمرجع والحقيقة التي لابد أن نحافظ عليها، وهنا أيضاً لا بد أن أشيد بالجهود الواعية التي تبذل في اتجاه ترشيد الموقف العام نحو تجديد دعوة سمو أمير البلاد وولي عهده - عندما قمنا نحن نساء الكويت بلقائهما لتجديد الشكر والامتنان - وتأكيدهما لنا بالدعوة لوضع قضايا المرأة وحقوقها تحـــت الضوء، وتعديل ميزان المجتمع بإعطاء المرأة حقها السياســـي في أن تكون مشاركة في توجيه الرؤية والسياســـة والحياة العامة بما يتناسب ومســـؤولية الوجود ذاته لكونها نصف المجتمع، ونصف الحياة، بل أحياناً أكثر من النصف بكثير، ودعوتهما الطيبة إلى تجمع حلقة الاتصال وغيرها من التجمعات النسوية الكويتية التي نتمنى ألا تصل إلى حد الإحباط حيث تتصاعد هنا أو هناك صيحات منكرة وغير موضعية تحاول أن تسبح ضد التيار، تيار التاريخ وتيار الحقيقة وتيار العدل، رافعة شعارات تفسرها لصالحها، وتعاند بها المسيرة العامة للدولة الكويتية العصرية التي تساوى تحت لوائها المواطنون كافة في حق المواطنة والإنسانية.

غموض البدايات وأسئلة الحاضر وآفاق المستقبل *

سعدية مفرح **

رحلة طويلة قطعتها القصة القصيرة في الكويت حتى تخلص نفسها وتكتشف هويتها، وخلال تلك الرحلة قدمت شهادة صادقة للحياة وللواقع.

«تلك القوة المجهولة الخارقة الكامنة بين ذرات المغناطيس تجذب إليها القطع العديدة من المعادن: أشبه شيء بذلك الجسم الذي يمثل الشباب الغض والجمال الكامل فيجذب إليه حبات القلوب ونظرات العيون... تلك المجموعة الرائعة الجذابة مصوغة بصورة امرأة من البشر أطلق عليها أهلها اسم منيرة...».

بهذه المقدمة الأنيقة بدأت أول قصة كويتية كتبها الشاعر خالد الفرج ونشرها في العددين السادس والسابع من مجلة الكويت الصادرين في شهري نوفمبر وديسمبر عام 1929.

وعلى الرغم من أن «منيرة» بطلة خالد الفرج تنتحر في ختام القصة بسبب عجزها عن مواجهة ما آلت إليه أحداثها المأساوية،

---

* العدد -517 ديسمبر 2001

** شاعرة وكاتبة من الكويت

إلا أن ذلك الموت الاختياري العاجز يفتح الباب واسعاً أمام حياة مستقبلية للفن القصصي برمته في الكويت. فبعد فترة توقف تلت ظهور أول محاولة قصصية منشورة استمرت ما يقرب من عشرين عاماً، بدأت إرهاصات حياة قصصية جديدة تنشط على صفحات الصحف والمجلات التي كانت قد بدأت بالصدور بانتظام في كويت الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وعلى الرغم من أن تلك البداية الجديدة كانت بداية مرحلة نشطة على صعيد الكم القصصي الذي أنتج، فإن ذلك الإنتاج كان بدائياً إلى حد ما على صعيد الكيف.

يرجع كثير من الذين أرّخوا للفن القصصي في الكويت سبب ذلك التوقف غير المتوقع الذي أعاق المسيرة الطبيعية التي كان من المفترض أن تكون مسيرة القصة القصيرة في الكويت، إلى اختفاء الفضاء الصحفي عن الخريطة الكويتية والمتمثل بتوقف مجلة «الكويت» الرائدة عن الصدور، خاصة أن البلاد كانت تفتقر لأي منابر نشرية أخرى في ذلك الوقت، وفي هذا الصدد يقول الشاعر والباحث خالد سعود الزيد في كتابه «قصص يتيمة في المجلات الكويتية»: «إن لنشأة القصة الحديثة في الكويت علاقة حميمة بالصحافة، خاصة بميلاد مجلة الكويت لعبدالعزيز الرشيد التي صدرت عام 1928، فلما توقفت مجلة الكويت بعد سنتين من صدورها احتجبت القصة وتوقفت عن الظهور».

لكن هذا قد لا يتسق مع مثابرة كثير من شعراء ذلك الزمان على الاستمرار في نشر نتاجاتهم الشعرية في كثير من الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في العواصم العربية القريبة من الكويت مثل المنامة وبغداد، والعواصم الأخرى مثل القاهرة، وهكذا فعل أيضاً الكتّاب الذين دأبوا على كتابة المقالات الاجتماعية والسياسية، خاصة أن كثيراً من تلك الصحف والمجلات كانت تصل للكويت بانتظام، وقد اعتمد عليها أدباء ومثقفو ذلك الزمان

كمصدر مهم من مصادر ثقافتهم الحديثة. فلماذا لم يحذ الكاتب القصصي الكويتي المفترض وجوده في ذلك الحين حذو الشاعر والكاتب الصحفي بالنشر في الصحف والمجلات العربية؟ هل يعود ذلك إلى بدائية وضعف النتاج القصصي الذي توافر لهم كتابته في ذلك الحين مما جعله غير صالح للنشر في تلك المنابر الصحفية العربية الحافلة بنماذج أدبية عربية أصيلة ومترجمة متقدمة؟

ربما يكون هذا صحيحاً لولا أننا نلاحظ أن ذلك لا يتسق مع الدرجة الفنية الجيدة التي كانت عليها قصة «منيرة» كأول قصة كويتية منشورة، التي يصفها الدكتور سليمان الشطي في كتابه «مدخل إلى القصة القصيرة في الكويت» بقوله «إن هذه القصة حين النظر في ظرفها التاريخي قد ولدت وهي تبشـــر بنضج مبكر. لم تبلغه كثير من القصص التي كتبت بعدها بعشرين سنة أو أكثر، وإذا كانت الزاوية التي اختارها المؤلف كثيرة الطروق من عدد من المؤلفين، فإن الدخول في الموضوع، وطبيعة التناول، والاعتماد على الإيحاء، وأسلوب العرض المتميز، كلها نقاط تحسب لمصلحة هذه المحاولة الأولى».

ولعل مما يعضد ذلك الأمل أن الفـــن القصصي في الكويت بدأ بداية قويـــة جديدة مع عودة الحيـــاة الصحفية للبلاد في نهاية العقد الرابع من القرن العشـــرين، فما إن صدرت مجلة «البعثة» في شهر ديسمبر عام 1946 في القاهرة صوتاً صحفياً لطلبة الكويت الذين كانوا يدرسون في الجامعات المصرية حتى أفسحت مساحات واسعة على صفحاتها للقصص القصيرة التي كان يكتبها الطلبة الكويتيون وغيرهم من الكتّاب الكويتيين الذين بدأوا بمراسلة المجلة من الكويت، وهكذا ظهرت تلك القصص على صفحات المجلة الوليدة، بعضها غير موقع باسم الكاتب، وأخرى موقعة بأسماء مســـتعارة، بالإضافة إلى القصص التي

حرص أصحابها على توقيعها بأسمائهم الحقيقية.

ومع بداية الخمسينيات كانت القصة القصيرة قد فرضت وجودها في حياة الكويت الأدبية، وبالرغم من إقبال عدد لابأس به من الكتّاب الكويتيين على كتابة القصة القصيرة في البداية إلا أن كثيرين من هؤلاء توقفوا عن الكتابة بعد محاولات محدودة، وقد أغرت هذه الظاهرة الشاعر والباحث خالد سعود الزيد على تأليف كتاب عنوانه «قصص يتيمة في المجلات الكويتية»، جمع فيه تلك القصص الشوارد التي وردت بين تضاعيف الصحف والمجلات التي كانت تصدر في الكويت في الفترة الممتدة من سنة 1929 حتى سنة 1959. وقد أورد الزيد في كتابه 54 قصة قصيرة نشرت في المجلات الكويتية كتبها عدد كبير من الكتّاب الكويتيين، بالإضافة إلى 22 قصة قصيرة بأقلام كتّاب عرب نشرت في تلك المجلات، أما القصص المترجمة فقد جمع الزيد منها أربع قصص ترجمها كويتيون، وعشر قصص ترجمها عرب.

من بين الأسماء الكثيرة التي أوردها الزيد في كتابه الذي يقف به عند حدود العام 1955، والأسماء الأخرى التي لحقت بالركب ذاته، بعد ذلك ميّز الباحث الدكتور سليمان الشطي ثلاثة أسماء لثلاثة كتّاب قصصيين سماهم الروّاد وجعل منهم عنواناً للمرحلة القصصية التي تلت مرحلة خالد الفرج، وهؤلاء هم فهد الدويري، وفرحان راشد الفرحان، وفاضل خلف. يبرز من بين الثلاثة اسم فهد الدويري قاصّاً مميزاً وشيخاً للقصّاصين الكويتيين وفقاً لتعبير خالد سعود الزيد، فبالرغم من قلة إنتاجه القصصي بشكل عام إلا أن تميز شخصيته القصصية المهيمنة جعله في طليعة معاصريه.

ويرى الشطي أن «الركيزة الأولى التي يعتمدها وينطلق منها ويلح عليها هي أنه يريد أن يجعل الإحساس بالواقع إحساساً قصصياً، أن يحطم الوهم من أن القصة شيء منفصل عنه.

وهذا الإلحاح نجده في هذا الربط بين المتخيل المروي والآخر المستمد من نبض الواقع». وربما لهذا كان الدويري هو الأعمق حضوراً والأشد تأثيراً والأكثر أهمية من زميليه بالرغم من أنهما سبقاه إلى نشر نتاجاتهما القصصية في كتابين هما أول كتابين قصصيين صدرا في الكويت، أولهما لفرحان راشد الفرحان وهو عبارة عن قصة مطوّلة بعنوان «آلام صديق» وتشير الدلائل إلى أنها صدرت عام 1948، والآخر عبارة عن مجموعة قصص قصيرة لفاضل خلف بعنوان «أحلام الشباب» التي صدرت وفقاً لسليمان الشطي عام 1954، ووفقاً لخالد سعود الزيد عام 1957، وهذا هو الأرجح خاصة أن الشطي يشير إلى فاضل خلف على أنه أول من أصدر كتاباً! في حين أن الثابت أن الفرحان كان قد سبقه إلى هذه المهمة منذ العام 1948 قبل أن ينشر مجموعته الثانية عام 1972.

على أن مرحلة أخرى أبطالها أكثر نضجاً وأشد محافظة على مقدرات الموهبة، بدأت في الظهور مع بداية العقد الستيني من القرن العشرين في الكويت.

وقد تميزت الأسماء التي ظهرت في ذلك الزمن، وكوّنت المرحلة والجيل، بإخلاصها لفن القص وحرصها على إصدار نتاجاتها القصية في مجموعات صدرت تباعاً، ففي حين لم يصدر لرواد القصة في مرحلتهم التاريخية سوى كتابي الفرحان وخلف، حرص قصّاصور هذا الجيل على إصدار قصصهم في كتب مستقلة تباعاً، وقد كان إسماعيل فهد إسماعيل أسبقهم لذلك حيث أصدر مجموعته الأولى بعنوان «البقعة الداكنة» عام 1965، ثم مجموعته الثانية بعنوان «اللغة والأقفاص المشتركة» عام 1974، في حين أصدر سليمان الشطي مجموعته الأولى عام 1970، بعنوان «الصوت الخافت»، أما سليمان الخليفي فقد أصدر أولى مجموعاته بعنوان «هدامة» عام 1974، ثم توالى بعد ذلك صدور

العديد من المجموعات القصصية الأخرى لهؤلاء ولغيرهم ممن التحقوا بذلك الجيل، وكون الجميع الركيزة الأكثر تمثيلاً للقصة القصيرة الحديثة وفقاً لتيارات ومدارس واتجاهات فنية مختلفة كانت سائدة آنذاك.

ولعل قراءة سريعة لعناوين المجموعات التي صدرت لإسماعيل فهد إسماعيل وسليمان الشطي وسليمان الخليفي في الستينيات وبداية السبعينيات تشي بتلك الروح الجديدة التي أصبحت تسري بين تضاعيف القص الكويتي منذ ذلك الزمن.

وإذا كان خالد الفرج يمثل المرحلة الأولى وعنوانها أيضاً في تاريخ القصة الكويتية، وإذا كان فهد الدويري هو عنوان المرحلة اللاحقة، فإن أعمال إسماعيل فهد إسماعيل القصصية والروائية فيما بعد رشّحته لا لأن يكون عنوان المرحلة التي ظهر فيها من بين مجايليه وحسب، بل أيضاً أصبح عنواناً مستمراً ومؤكداً للقص الكويتي كله، وذلك بمثابرته على الكتابة والنشر، وقدرته الهائلة على ولوج كل بوابات القص واختراع بوابات جديدة لولوجها أيضاً، ونظرته القصصية الواسعة التي أدت به إلى أن يكون قاصاً عربياً يمتد بهمومه القصصية والروائية على مدى الخريطة العربية من المحيط إلى الخليج.

ولذلك يمكن استلال اسم إسماعيل فهد إسماعيل من فكرة المراحل القصصية المحترقة في الكويت بسهولة باعتباره اسماً مستمراً في المرحلة التاريخية التي ظهر فيها والمراحل التي تلتها أيضاً.

وبالرغم من الجدية التي تعاملت بها هذه الأسماء مع القصة القصيرة في بداياتهم، إلا أن عزوفاً ما عن القصة القصيرة ميّز مسيرتهم اللاحقة، فقد اتجه إسماعيل فهد إسماعيل بشكل كلي إلى الرواية، أما سليمان الشطي فقد أصدر بالإضافة إلى «الصوت الخافت» مجموعة أخرى عام 1982 بعنوان «رجال من

الرف العالي»، وثالثة بعنوان «أنـا... الآخر» صدرت عام 1995 تقاسمت معالجاتها الفنية الناجحة هموم المواطن المسحوق في بلدان العالم الثالث بشـكل عام، بالإضافة إلى هموم المواطن الكويتي تحت وطأة الاحتلال العراقي لبلده.

أما سليمان الخليفي فلم ينشر بعد «هدامة» سوى مجموعة واحدة صدرت عام 1978 بعنوان «المجموعة الثانية».

في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، كانت الظاهرة الأبرز في حركة القص الكويتي هي الحضور النسائي الذي تبلور بوضوح في تلك المرحلة، فصحيح أن المرأة القاصّة كانت قد شـاركت الرجل في تجارب بدائية عبر أسـماء قصصية نسائية ظهرت في مجلة البعثة بالذات، إلا أن مشاركتها ظلت مشاركة خجولة تمثلت في بعض الأسماء مثل ضياء هاشم البدر وبدرية مساعد الصالح وهيفاء هاشم وغنيمة المرزوق وغيرهن.

ولكن السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات شهدت ولادة الكثير من القصّاصات الكويتيات اللائي شاركن القصّاصين الرجال في تكوين ملامح المرحلة القصصية كلها، وبالرغم من أن كثيرات منهن قد توقفن عن الكتابة، أو ربما عن النشـر بعد محاولات قصصية ناجحة وناضجة، فإن هناك منهن من تابعن المسـيرة في الكتابة والنشر، وتقاسـمن مع القصّاصين الرجال قصص تلك المرحلة تقريباً بالتساوي، بل لعلنا نرصد كثيراً من الأسماء النسائية التي ظهرت في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات وتفوّق كماً وكيفاً على النتاج القصصي الرجالي المجايل لها.

فليلى العثمان التي بدأت منذ منتصف السـتينيات بكتابات نثرية بسيطة مثلاً، نشـرت مجموعتها القصصية الأولى عام 1976 بعنوان «امرأة في إناء» وتتابعت بعدها مجموعة كبيرة من المجموعات القصصية التي ترادفت بالصدور ومنها «الرحيل» عام 1979، و«في الليل تأتي العيون» عام 1980، و«الحب له صور»

عام 1982، و«فتحية تختار موتها» عام 1987، و«حالة حب مجنونة» عام 1989 و«55 حكاية قصيرة» عام 1992، و«الحواجز السوداء» عام 1994، و«يحدث كل ليلة» عام 1998.

وقد تكرّست ليلى العثمان عبر هذه النتاجات القصصية كأشهر اسم قصصي كويتي منذ ذلك الوقت وحتى الآن، ليس على صعيد النساء وحسب، ولكن على الصعيد القصصي العام كله.

وبالرغم من أن ثريا البقصمي عرفت أساساً كفنانة تشكيلية، إلا أن إسهاماتها الكثيرة في القصة القصيرة جعلت منها اسماً مرموقاً في عالم القص الكويتي المعاصر، وقد بدأت ثريا البقصمي مسيرتها القصصية عبر مجموعة «العرق الأسود» التي صدرت عام 1977، والتي استذكرت فيها مجموعة من القضايا الاجتماعية السائدة في المجتمع الكويتي القديم، أما مجموعتها الثانية التي صدرت عام 1988 بعنوان «السدرة»، فقد حاولت فيها أن تلج بوابة المجتمع الكويتي الحديث عبر مناقشة حية لقضاياه المختلفة، وفي مجموعتيها اللاحقتين «شموع السراديب» التي صدرت عام 1992، و«رحيل النوافذ» التي صدرت عام 1994، قدمت ثريا البقصمي شهادات قصصية عن مرحلة الاحتلال العراقي للكويت والتي عايشت الكاتبة تفاصيلها ومنعطفاتها الحادة وحاولت نقلها على الورق.

أما ليلى محمد صالح، فقد أصدرت حتى الآن ثلاث مجموعات قصصية، الأولى صدرت عام 1968 بعنوان «جراح في العيون»، والثانية صدرت عام 1994 بعنوان «لقاء في موسم الورد»، أما الثالثة فهي «عطر الليل الباقي» وصدرت عام 2000.

وقد شغل موضوع الغزو في التسعينيات عدداً آخر من كتّاب القصة القصيرة، فقد عادت فاطمة يوسف العلي للقص بعد ربع قرن تقريباً من التوقف عن الكتابة بعد صدور روايتها الأولى «وجوه في الزحام» عام 1971 بمجموعة قصصية عنوانها «وجهها

وطن» صدرت عام 1995. ولم تقتصر فاطمة العلي في معالجاتها القصصية في هذه المجموعة على موضـــوع الغزو بالرغم من العنوان الموحي للمجموعة، بل غاصت في هموم مجتمعية كثيرة في قصص الكتّاب التسع، لكنها عادت بتفصيل أكبر واهتمام أعمق لموضوع الغزو في مجموعتهـــا التالية والتي صدرت عام 1998 بعنوان «دماء على وجه القمر»، أما في مجموعتها الثالثة والتي صدرت عام 2001 بعنوان «التاء المربوطة»، فآثرت أن تقدم مقاربات قصصية لهموم إنسانية تنطق من منطلق نسائي خاص عبر اهتمام شديد بالتفاصيل النفسية للشخصيات.

وبالرغم من أن منى الشافعي بدأت الكتابة منذ فترة مبكرة من حياتها، فإنها لم تبدأ بالنشر إلا بعد الغزو العراقي للكويت، فقد نشـــرت مجموعتها القصصية الأولى عام 1992 بعنوان «النخلة ورائحة الهيل»، ومجموعتها الثانية «البدء مرتين» عام 1994، وفيهما قدمت الشافعي قصصاً ناضجة مكتوبة بلغة ذكية وأسلوب قصصي يراوح بين السرد والحوار برشاقة تليق بموضوعات القصص ذات الطابع الاجتماعي، وبخطاب ينحاز للمرأة ويعالج همومها.

وقد حلّقت عالية شعيب بعيداً عن سرب زميلاتها في الكويت ليس عبر لغتها الفنية العالية وحسب، وإنما أيضاً للجرأة الكبيرة التي ميّزت خياراتها القصصية وتسببت لها بمشاكل رقابية عدة.

وقد أصدرت عالية شعيب أولى مجموعاتها القصصية عام 1989 بعنوان «امرأة تتزوج البحر»، وانطلقت فيها من هموم المرأة ذات الطابع الأنثوي الخاص، أما مجموعتها القصصية الثانية والتي صدرت عام 1992 بعنوان «بلا وجه» فقد بلغت فيها الكاتبة جرأة كبيرة جداً باختيارها موضوعات شائكة وبلغة إيروتيكية في كثير من الأحيان، ولعل أهم ما يميّز الإصدارات القصصية لعالية شـــعيب ذلك الاحتفاء الكبير الذي توليه لعنصر اللغة، فكانت تلك القصص تمتاز بشعرية لغوية شفيفة.

ومازلنا مع القصّاصات الكويتيات، ومنهن خولة القزويني، وهي قاصّة لها نمط خاص في تجاربها القصصية الغزيرة التي صدرت حتى الآن، وفي هذه القصص تنحاز القزويني لموضوعات ذات مضامين إنسانية بهموم نسائية وتقدمها في إطار من المعالجات الأخلاقية والدينية، ومن العناوين التي صدرت للقزويني على هذا الصعيد «جراحات الزمن الرديء»، و«حديث الوسادة» و«حكايات نساء في العيادة النفسية»، و«امرأة من زمن العولمة».

وفي مجموعتها القصصية الأولى حاولت وفاءالحمدان أن تقدم معالجاتها الخاصة للقضايا الاجتماعية التي يعيشـــها المجتمع الكويتي»، وقد صدرت المجموعة بعنوان «الطيران بجناح واحد» عام 1989، أما المجموعة الثانية والتي صدرت بعنوان «الشمس لا تغرب مرتين» عام 1994، فقد صوّرت القاصة فيها صورة واقعية لحكايات المقاومة الكويتية خلال فترة الغزو العراقي للكويت، أما مجموعتها الثالثة «الريح تصفر لحنها» التي صدرت عام 2000 فقد تناولت فيها قضايا اجتماعية راهنة بلغة واقعية.

أما فوزية السويلم فقد صدر لها حتى الآن مجموعتان قصصيتان، الأولى بعنوان «طموحات خادمة» وصدرت عام 1995، وفي المجموعتين معالجات درامية لحكايات اجتماعية بأسلوب قصصي ممتع ولغة بسيطة حافلة بالتفاصيل.

لكن النساء، بالرغم من تميّزهن العددي والنوعي في القصة القصيرة، لم يكن وحدهن في ساحة القص، فقد كان للقصّاصين الرجال دورهم أيضاً، حيث ظهر في السبعينيات والثمانينيات عدد من كتّاب القصة القصيرة الذين واصلوا نشاطهم القصصي في التسعينيات دون أن يظهر جديد تقريباً!

فعبر ثلاث مجموعات قصصية صـــدرت له حتى الآن نجح محمد مسعود العجمي في تقديم نفسه قاصاً مميزاً، وقد صدرت مجموعة العجمي الأولى عام 1982 بعنوان «الشرخ» وقد عالج فيها

الكاتب علاقة الرجل بالمرأة في المجتمعات الذكورية المعاصرة، أما المجموعة الثانية فقد صدرت عام 1988 بعنوان «تضاريس الوجه الآخر»، وولج فيها العجمي بوابة المغامرة اللغوية باقتدار خاصة وهو يتناول ما يسمى بالقضايا الكبرى بعيداً عن الفردية والذاتية، أما في مجموعته الأخيرة «ظمأ وجراح» والتي صدرت عام 1992، فقد كشف فيها الكاتب عن ممارسات جنود النظام العراقي في الكويت أثناء الاحتلال بأسلوب يحتمي بالحكاية.

أما وليد الرجيب فقد أصدر كتابه القصصي الأول عام 1983 بعنوان غريب هو «تعلق نقطة تسقط طق»، وقد بشرت هذه المجموعة عند ظهورها بميلاد كاتب قصصي متميز يحتفي بهموم الإنسان البسيط بالذات، وقد تأكد هذا الخط القصصي لدى الرجيب في مجموعته الثانية التي صدرت عام 1989 بعنوان «إرادة المعبود في حال أبي جاسم ذي الدخل المحدود»، أما مجموعته الثالثة والتي صدرت عام 1992، بعنوان «طلقة في صدر الشمال» فقد كانت عبارة عن متوالية قصصية تتابعت على شكل سلسلة قصصية مثلت شهادة الكاتب على زمن الاحتلال، كما تضمن كتابه الصادر عام 1997 بعنوان «إيكاروس» بعض القصص القصيرة بالإضافة إلى نص الكتاب الرئيس وهو عبارة عن مسرحية مكتوبة باللهجة الكويتية.

أما وليد المسلم فقد قدم في مجموعته القصصية الأولى التي صدرت عام 1989 بعنوان «فقدان الهوية» صورة واضحة لأسلوبه القصصي الذي تميّز بحس درامي عال وظّفه للإجابة عن العديد من التساؤلات القلقة التي كانت تشعر بها شخصيات قصص المجموعة، وقد احتوت تلك المجموعة على 12 قصة بالإضافة إلى مقدمة شرح فيها الكاتب أسباب لجوئه للقصة القصيرة مأوى لموهبته الكتابية.

وقد تميّزت مسيرة ناصر الظفيري القصصية بالشغل الذكي

والدقيق على اختيار موضوعات غير مطروقة كثيراً، ففي مجموعته الأولى التي صدرت عام 1990 بعنوان «وليمة القمر» طرق الظفيري أبواباً لم تكن موصدة بالكامل أمـــام القص الكويتي، ولكنها لم تكن مفتوحة بالكامل أيضاً، وخصوصاً في تلك القصص التي روت حكايات الماضي، أما شهادته الخاصة على زمن الاحتلال العراقي، فقد جاءت عبر مجموعة بعنـــوان «أول الدم»، وفيها حاولت البحث عن جذور خفية للحدث، وصور انعكاســـه في سلوك الأفراد بعد انتهائه أيضاً.

أما طالب الرفاعي فقد فضّل دائماً الانحياز للآخر المهمّش في المجتمع الكويتي الجديد، فـــكان يحتفي بنوعية جديدة من الشخصيات على القص الكويتي، هي شخصيات المغتربين والذين يسمّون وفقاً للمصطلح المحلي بالوافدين، مما أكسب قصص الرفاعي نكهة مميزة انعكست على اللغة والأسلوب أيضاً، وقد تجلى ذلك في مجموعتي الرفاعـــي الأولى والثانية، وهما «أبو عجاج طال عمرك»، وقد صدرت عـــام 1992، و«اغمض روحي عليك» وقد صدرت عام 1995، أما مجموعته الثالثة فقد كانت بعنوان «حكاية رملية»، واستعرض فيها بعض القضايا الكويتية بأسلوب يشبه النقد الذاتي عبر القص. ويعتبر علي المسعودي القاص الوحيد الذي بدأ بداية مشتركة مع القاصّة منى الجامع، حيث أصدرا عام 1992 مجموعة قصصية تناصفا قصصها تحت عنوان «مملكة الشمس»، لكن المسعودي انفرد بعد ذلك بعدد آخر من المجموعات القصصية التي ميّزته بنوعية خاصة من القص اعتمد فيها على فكرة الاقتصاد اللغوي، والنهايات المفتوحة على أفق عابق بالأسئلة، وفي مجموعته «ر... جوع» التي صدرت عام 1994 قدم المسعودي نماذج مختلفة لشخصيات حيوية تعج صدورها بالحنين والعواطف المخنوقة، بالإضافة إلى نافذة جريئة تنفتح على مجتمع المغتربين في الكويت، أما في مجموعته «تقاطيع»

والتي صدرت عام 1998، فقد لجأ الكاتب لتكنيك جديد في كتابته اعتمد فيه على الاسترجاع بأسلوب بسيط ومقتصد.

أما جاسم الشمري فقد صدرت مجموعته الأولى عام 1992 بعنوان «أمي عينان وبريق» وهي تحمل قلق البدايات وتساؤلاتها العفوية، لكنه في مجموعته اللاحقة والتي صدرت عام 1998 بعنوان «بدوياً جاء... بدوياً رحل» حمل القصص من الإجابات الحارقة ما تجاوز حرقة الأسئلة، بأسلوب لغوي تميّز بالإيجاز والبساطة.

في قائمة مختارة بأفضل مائة رواية عربية نشرت في نهاية القرن الماضي، وهو القرن الذي يمثل عملياً عمر الرواية العربية بشكل عام، أعدها اتحاد الكتّاب المصري، ورد عنوانان من عناوين الرواية في الكويت أحدهما للكاتبة ليلى العثمان وهو عنوان روايتها الأولى «وسمية تخرج من البحر»، والآخر لإسماعيل فهد إسماعيل، وهو عنوان روايته السباعية «إحداثيات زمن العزلة»، وقد أكّد هذا الاختيار قائمة أخرى مشابهة صدرت عن اتحاد الكتّاب العرب في دمشق.

وبالرغم من أننا لا نعوّل كثيراً على مثل هذه القوائم في تقييم الأعمال الأدبية من الناحية الفنية، فإن للاختيار دلالته الخاصة في الواقع الثقافي الكويتي، فالفن الروائي هو الفن الأدبي الأحدث ظهوراً في الكويت، بالرغم من الإرهاصات البدائية المبكرة، ولذلك، فإن ما تحقق من إنجازات كويتية على صعيد هذا الفن يمكن اعتباره من الإنجازات المهمة جداً.

ومن اللافت أن الرواية في الكويت ظهرت بعد ظهور القصة القصيرة بسنوات طويلة، ويعود تاريخ صدور أول رواية كويتية إلى عام 1962 حيث صدرت رواية «مدرسة من المرقاب» لعبدالله خلف، ثم بعدها بثماني سنوات صدرت رواية «كانت السماء زرقاء» لإسماعيل فهد إسماعيل، حيث صدرت عام 1970 بالرغم من أنه

أشار في مقدمتها إلى أنه كتبها عام 1965، بعدها صدرت رواية لخليل الوادي بعنوان «إيه أيتها الصغيرة» عام 1970، وفي العام التالي صدرت روايتان هما «المستنقعات الضوئية» لإسماعيل فهد إسماعيل» و«وجوه في الزحام» لفاطمة يوسف العلي، وهي أول رواية كتبتها امرأة في الكويت، وقد كتبتها فاطمة وهي مازالت دون العشرين من عمرها، فكانت إنجازاً أدبياً أضيف لسجل المرأة الأدبية في الكويت، صدر بعدها لإسماعيل فهد إسماعيل رواية ثالثة بعنوان «الحب» عام 1972 قبل أن تتقدم امرأة أخرى هي نورية السداني بروايتين صدرتا في العام نفسه هما «الحرمان» و«واحة العبور». بعدها انفرد إسماعيل فهد إسماعيل بالساحة الروائية في الكويت بقية العقد السبعيني كله والنصف الأول من العقد الثمانيني، حيث أصدر في تلك الفترة والفترة التي تلتها في بقية الثمانينيات عدداً من الروايات المهمة والتي كرّسته اسماً روائياً في طليعة الروائيين العرب بشكل عام، ومن هذه الروايات «الضفاف الأخرى» و«ملف الحادثة» و«الشياح» و«خطوة في الحلم»، و«الطيور والأصدقاء»، و«النيل يجري شمالاً - البدايات» و«النيل يجري شمالاً - النواطير»، و«النيل الطعم والرائحة». لكن الحدث الروائي الأهم بالنسبة لإسماعيل فهد إسماعيل كان حدث الغزو العراقي للكويت عام 1990 والذي استغرق سبع روايات كاملة صدرت تحت عنوان موحد هو «إحداثيات زمن العزلة» وعرفت بالسباعية، تناول فيها الكاتب موضوع الغزو بتفاصيله الروائية الدقيقة بما يشبه التوثيق التاريخي قبل أن يعود لرواياته الإنسانية الشفيفة والتي عبقت برائحة الآخر الغريب، فأصدر في التسعينيات بالإضافة إلى السباعية عدداً آخر من الروايات منها «يحدث أمس» عام 1998، و«بعيداً إلى هنا» عام 1998، و«الكائن الظل» عام 1999، و«سماء نائية» عام 2000.

وقد اختطت طيبة الإبراهيم لنفسها خطاً مميزاً في الحركة الروائية الكويتية لا يشـــاركها فيه أحد، وقد تمثل هذا الخط بإصدار مجموعة من الروايات تندرج تحت مسمى أدب الخيال العلمي، وتناولت فيها موضوعات عدة اســـتندت في معالجتها لها إلى التنبؤات العلمية، قد صدر لطيبة الإبراهيم حتى الآن عشر روايات معظمها ينتمي لخطها الخاص، وأشهرها «الإنسان الباهت» وصدرت عام 1968، و«الإنسان المتعدد» و«انقراض الرجل» وصدرتا عام 1991، و«البلهاء» وصدرت عام 2000.

أما وليد الرجيب فلم يصدر له سوى رواية واحدة ظهرت عام 1989 بعنوان «بدرية»، وقد عالج فيها أثر التغيرات الاجتماعية التي اجتاحت المجتمع الكويتي بعد ظهـــور النفط، وذلك على خلفية من الحياة السياسية في كويت الأربعينيات والخمسينيات، وبالرغم من النجاح النقدي الذي حظيت به رواية «بدرية» فإن ذلك لم يشجع الرجيب على المضي قدماً في طريق الرواية مكتفياً بتجربته اليتيمة.

ومن الأسماء التي أسهمت في تكوين المكتبة الروائية في الكويت أيضاً هناك الكاتبة القصصية خولة القزويني التي قدمت في هذا المجال عدداً من الروايات منها، «عندما يفكر الرجل»، و«مذكرات مغتربة» و«مطلقة من واقع الحياة»، و«البيت الدافئ»، و«سيدات وآنسات».

وقد اختطت خولة القزويني لنفسها في جميع هذه الروايات تقريباً خطاً خاصاً حاولت فيه أن تقدم توصيفات واقعية لهموم المجتمع الكويتي المعاصر بشكل عام.

وقدمت فوزية شويش السالم ثلاث روايات أصدرتها حتى الآن وهي «الشمس مذبوحة والليل محبوس» والتي صدرت عام 1997، و«النواخذة» التي صدرت عام 1998، و«مزون»، التي صدرت عام 2000. وفي كل رواياتها قدمت فوزية شـــويش السالم مغامرات

لغوية جريئـــة دارت في مجملها حول خيـــوط ماضوية مكتوبة بطريقة تدوينية تقترب فيها من الأسلوب الشعري في الكتابة والتدوين.

أما حمد الحمد فقد أسهم بروايتين دارتا في مجمل القضايا التي تعرضتا لها حول كثير من المقاربات الاجتماعية والسياسية للمجتمع الكويتي المعاصر بجرأة وواقعية، وقد صدرت الرواية الأولى بعنوان «زمن البوح» عام 1997، أما الثانية فقد صدرت عام 1999 بعنوان «مساحات الصمت رواية وقصص أخرى».

وعبر «ظل الشمس» التي صدرت عام 1998 قدم طالب الرفاعي محاولته الروائية الأولى منحازاً فيها لهموم الوافدين، وهم العرب والأجانب الذين يعملون في الكويت تحت وطأة من ضغوط مختلفة تنبثق في مجملها من الإحساس بالغربة بعيداً عن أسرهم التي يحلمون بالعودة لها بعد تحقيق حلم الثروة الذي لا يتحقق في الغالب.

لقد بدأت حكاية القص الكويتي بـ«منيرة» التي انتحرت لأنها لم تستطع مواجهة الأحداث التي ساهمت في صنعها، لكن الحكاية مازالت مفتوحة على الأفق.

عودة الباشا الميت *

إقبال بركة **

الذي يطالع «حديث عيسى بن هشام» ينتابه إحساس بأنه يتأمل مصر اليوم وليست مصر القرن التاسع عشر وهي تستورد بانبهار تقاليد الغرب، ومن يمعن النظر في أسلوب الكاتب محمد المويلحي يحس بالنزعة الإصلاحية ولكنها ليست في قالبها الوعظي التقليدي وإنما في قالب فكاهي بديع، فماذا يحدث للباشا الذي يعود بعد موته إلى الحياة في «حديث عيسى بن هشام» وكيف يرى الدنيا.. هل يتابع الحياة متقبلاً التغيير أم يعود إلى قبره مفضلاً الخلاص؟!

بسرعة مدهشة تطورت الحياة في مصر في بداية القرن العشرين، وتحولت القاهرة إلى ما يشبه حلبة السيرك: عدد لا حصر له من الأزياء واللغات الغربية والشرقية، سيارات ترام، تلفون، طرز جديدة من العمائر، حرف ومهن جديدة وأنماط متباينة من البشر.

ورغم ذلك كله فإن أفكار وعادات وأساليب الماضي كانت تأبى أن تتلاشى.

وتفتق ذهن شاب مصري في السابعة والثلاثين من عمره عن

---

* العدد -517 ديسمبر 2001

** كاتبة من مصر

فكرة عبقرية: مذا لو عاد باشا من باشـــوات محمد علي «الكبير» إلى الحياة؟ وكتب محمد المويلحي (1868 – 1930) رائعته «حديث عيسى بن هشام» ليجيب عن ذلك السؤال، ونشر فصولها مسلسلة عام 1905 ثم أصدرها في كتاب.

مؤلف الكتاب ابن إبراهيم المويلحي 1846 – 1906 الصحفي والأديب الذي كان يصدر مجلة «مصباح الشرق» الفكاهية الساخرة المزدحمة بالكاريكاتير، وله كتاب شهير بعنوان «ما هنالك»، سخر فيه من السلطان عبدالحميد ومن حاشيته، وكتاب آخر عنوانه «حديث موسى بن عصام». وقد أهدى محمد المويلحي كتابه الفريد إلى أرواح المرحومين والده الأديب إبراهيم المويلحي، والفكر الإسلامي جمال الدين الأفغاني والإمام العالم محمد عبده واللغوي الشنقيطي والشاعر البارودي وقال في تقديمه للكتاب: «والضعيـــف العاجز (المؤلف) يهدي هذا الكتاب إلى كل من يقرأه من أديب يجد فيه طرفاً من الأدب، وحكيم يرى في لمحة من الحكمة، وعالم يبصر فيه شذرات من العلم، ولغوي يصادف فيه أثراً من الفصاحة، وشاعر يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال».

الكتاب يحمل عنواناً ثانوياً هـــو «فترة من الزمن» وهو مثال على مقاومة المصريين لمحاولة إعادة مصر إلى الغرب وتشـــبثهم بإحياء التراث العربي القديم، لذلك كان مزيجاً من المقامة والرواية، وفصوله أقرب إلى القصص القصيرة وإن كان يربط بعضها بعضاً شخصية راوٍ واحد هو عيسى بن هشام الذي يحمل اسم بطل مقامات بديع الزمان الهمزاني، التي كانت تصف الحياة في بغداد القديمة. والرواية فيها تسلسل زمني حيث تبدأ بما يشبه الحلم يتجول الراوي بين القبو بحثاً عن العبرة، وفجأة يظهر له «الدفين»، ويكشف عن هويته: باشا تركي يدعى أحمد باشا المنيكلي، كان ناظرا للجهادية في عهد محمد علي، أي منذ أكثر من نصف قرن، يبعث من الموت، ولكن الباشا لا يعرف ذلك بالطبع، فهو يحرص على تغيير ملابســـه (الكفن) لكي

يذهب إلى ولي النعم الداوري الأعظم (محمد علي) ويقدم له فروض الولاء والطاعة، وفي الطريق إلى القلعة يعترض طريقه مكاري (مؤجر الحمير) ويتحدث إليه بلهجة وقحة لم يصادفها في حياته، فلا يطيق ذلك فيضرب المكاري بل يوشك أن يقتله، وبدلا من أن يستسلم المكاري كما كان يحدث في الماضي، إذا به يصر على أخذ حقه من الباشا التركي وعلى اقتياده إلى البوليس ثم تتطور الأحداث من «البوليس» إلى النيابة إلى المحامي الأهلي إلى المحاكم ويحتاج الباشا إلى مال لينفق منه ولكنه يكتشف أن كل أمواله قد تبددت على أيدي الورثة ولم يعد هناك إلا حفيد واحد يقيم في «لوكاندة» هربا من الدائنين، ويحاول الباشا الاتصال بحفيده ولكنه يصدم فيه، فيذهب للوقف ليسترد ما كان قد أوقفه من أموال، ويحاول الاتصال بأبناء كبراء الماضي الذين كانت تربطهم به صلة المودة والقربى، فيجد أغلبهم قد فارق الحياة أو على وشك ذلك وهنا يحدث التغيير الأول في حياة الباشا حين يبحث عن عمل، يمده بمورد مالي يعينه على التخلص من مصيبته.

يترك الكاتب قضية الباشا معلقة في المحكمة الشرعية ليتجول مع صاحبه في القطاعات المختلفة للمجتمع ليصفها لنا بالتفصيل في صور حية ساخرة وتفاصيل واقعية وحوارات شائقة، ونري معه الشـــرطي واقفا وفي يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه في صباحه من باعة الأسواق في محافظته على النظام والمعاون الذي يجدوه غارقا في نومه والصول الذي يأكل والقلم في أذنه وقد نزع طربوشه وخلع نعليه وحل أزرار ثيابه والمفتش الإنجليزي الذي لا يفهم العربية ولا يهتم إلا بالأوامر المستديمة الخاصة بزي المعاون وطربوشه ولحيته.. ووكلاء النيابة الذين يتحدثون عن النساء ولعب الورق والأوبرا، ونكتشف بداية تفشي الألفاظ الأعجمية في لغتنا العربية منذ ذلك الوقت خصوصا على ألسنة الشباب المبهورين بالخواجات المقلدين لهم في كل شيء، ولا يهتمون أو يتحدثون إلا عن

الكرافات والأوتوموبيل والمدموازيل وموضة الانتحار المتفشـــية بين الشبان الغربيين ويتخاطبون بـ «مونشير»، وكلها كلمات فرنسية.

وهو في أثناء ذلك لا يتوانى عن مناقشة ووصف مظاهر الحياة في عصره (بداية القرن العشرين) بأسلوب قصصي يكشف عن دقة ملاحظة وحس دقيق ورؤية ويقظته لما يجري حوله من أحداث ومن شخصيات، فيصف المحامي الأهلي وسمساره والدفترخانة والنيابة والمحاكم وقاضي المحكمة الأهلية والطب والأطباء والأعيان والتجار وأبناء الكبراء وموظفو الحكومة، ويصف تفشي الوباء في عصره ووباء آخر لا يقل خطراً هو مظاهر المدنية الغربية التي تتسلل إلى المجتمع المصري فتثير في نفس الشباب احتقاراً للماضي وكل ما يمثله.

ينسى المويلحي حكاية الباشا ناظر الجهادية، ويبدأ في حكاية ثانية بطلها عمدة ساذج قدم من الريف ليمضي أياما بالقاهرة، فإذا به يلتقي برجلين من المدينة هما الخليع والتاجر يســتغفلانه ويبتزان أمواله التي كســبها من بيع القطن، نتجول مع ذلك العمدة ونشهد سلوكياته في المجتمع وفي حديقة الأزبكية وفي المطعم وفي ألحان وفي المرقص وفي الملهى الليلي وفي زيارة الأهرام.. وغير ذلك.

والكتاب (في طبعته الرابعة) يتحدث عن رحلة أخرى إلى باريس، يصف فيها الكاتب تلك المدينة بإعجاب شديد خصوصاً متحف اللوفر الذي يسميه «القصر الكبير» وبرج إيفل الذي يجعله «المعجزة الثامنة»، إلا أن ذلك لا يمنعه من انتقاد ما شاهده بجناح مصر بالمعرض.

وقد تغلبت النزعة الإصلاحية التعليمية علي الكاتب، إلا أنه ألبسها ثوبا فكاهيا أعطاها الكثير من الحيويـــة، خاصة في المواقف التي تصف غطرسة الباشا التركي العائد من القرن الثامن عشر، وتصوره أن الباشوات الأتراك مازالوا على قمة النظام الاجتماعي كما كانوا في عهده، في الوقت الذي بدأت فيه الهيمنـــة التركية على مصر تنحسر، وبدأ الكثير من الباشوات الأتراك يعودون إلى بلادهم أما الذين بقوا فهم الذين تزاوجوا مع المصريين واندمجوا تماما حتى

انمحت معالمهم التركية إلا قليلاً.

إن القارئ يضحك من الباشـــا التركي المتعالـــي الذي ينظر إلى كل شيء حوله بدهشة واشمئزاز متشبثا بعصره الذي يفضله على الحاضر المتقدم، إلا أنه يتطور مع الوقت وبعد أن دار ولف وتعرف على أوجه الحياة الجديدة.

يمثل «عيسى بن هشام» حلقة الاتصال بين الماضي الذي يصوره الباشا والحاضر المندفع في تقليده للغرب. لقد تغيرت الحياة في مصر تماماً، وعلى مدى قرن كامل من الزمان (القرن التاسع عشر)، توغل الأوربيون فيها وبدلوا مظاهر الحياة وأثروا في العقليات وغيروا ملامح المجتمع حتى أن محمد علي باشا لن يتعرف عليها وسيتوه في شوارعها كما لو كان لم يولد ولم يعش بها يوماً واحداً. وقد ترك الكاتب نهاية القصة أو المقامة مفتوحة لأنه لم يكن واثقاً لأيهما سيحســـم الصراع. والعجيب أنك تقرأ ذلك الكتاب الجميل فيخيل إليك أنه يصف المجتمع المصري اليوم (في بداية القرن الحادي والعشرين) أي بعد وفاة محمد علي «باعث المدنية الحديثة» في مصر بقرن ونصف القرن وبعد صدور «حديث عيسى بن هشام» بنحو مائة عام!

الجديد حقا أن مصر تنبهت إلى موقعها الفريد وبدأت تتساءل: هل أنا شرقية أم غربية؟ هل أنا بحر متوسطية أم إفريقية؟! وانقسم المجتمع المصري على نفسه انقساماً حاداً يكاد يجعل منه شعبين لا شعباً واحداً: مجتمع الأرستقراطية الثرية ومجتمع عامة، الشعب، مجتمع «الهاي لايف» ومجتمع الطبقات الأخرى، الذي ينظر إليه على أنه متخلف وهمجي و«بلدي»! ومنـــذ ذلك التاريخ بدأت إرهاصات الازدراء والاتهام لكل ما هو رافض للتطور في مصر، مثل: بنت البلد، ابن البلد، الفلاحين والصعايدة وغير ذلك، ودخل الجيل الجديد من شباب مصر في صراع نفسي سيكون الأساس الذي تبنى عليه نهضتهم الحضارية والعصر الذهبي لكل الفنون في مصر.

أولادنا وصعوبات التعلّم *

سناء الترزي **

ما من بيت عربي إلا ويعاني - بدرجة أو بأخرى - صعوبات الدراسة لدى الأطفال، وهي مشكلة مزدوجة المسؤولية، أحد طرفيها سوء تدبير المناهج وتخلف طرق التدريس، وطرفها الآخر البيت ومـا يقدمه من دعم معنوي وغذاء، مرتبكين. وهذا المقال يحاول إضاءة الموضوع بشقيه، لعلنا نتخفف من وطأة هذه الصعوبات.

بداية تفرض بعض الأسئلة نفسها، عما هي صعوبات التعلم التي تواجه الطفل وكيف نتجنبهـا، وما دور الغذاء في تنمية الذكاء؟ وما السـبيل إلى الخروج من فكي الكماشة اللذين يحيطان بمستقبل أمتنا من خلال تعرض أطفالنا لهذا الحصار؟

لقد عقدت إحدى المدارس الخاصة ندوة بعنوان «كيف تكتشفين قدرات ابنك؟» دعي إليها خبراء في علم النفس التربوي من معهد الدراسات العليا للطفولة بجامعة عين شمس، وعلم النفس السريري (الإكلينيكي) بالجامعة نفسها، وأيضا خبراء من جامعة ماساشوستس الأمريكية، وكاتبة هذه السطور، كما حضر الندوة عدد من الطلاب والطالبات في المراحل التعليمية المختلفة.

في البداية تحدث د. إيهاب عيد الأستاذ بمعهد الدراسات العليا للطفولة

---

* العدد -530 يناير 2003

** باحثة من سورية مقيمة في مصر

بجامعة عين شمس، عن كيفية اكتشاف الطفل الذي يعاني صعوبات التعلم منذ الشهور الأولى، فقال: لابد أن نعرف أن هذا الطفل ليس متخلفا عقليا، وإنما هو يعاني بعض الصعوبات التي إذا ما عولجت تحول إلى عبقري، لأن معظم هؤلاء الأطفال يكونون شديدي الذكاء.

ويمكن للأم أن تكتشف أن ابنها يعاني هذه الصعوبات منذ الأشهر الأولى لولادته، حيث إنه غالبا ما يتأخر في الجلوس أو المشـي أو الكلام، ثم إنه يصعب عليه التركيز في لعبة واحدة لفترة طويلة، فنجده يتنقل بين أدوات لعبه دون أن يكملها، أما في مرحلة الدراسة فيجد الطفل صعوبة في متابعة كلام المعلمة أو نقل ما يكتب على السبورة، وقد لا يجيب عند النداء على اسمه حتى تقترب منه المدرسة أو الأم وتلمسه لينتبه إليها، كما يلاحظ عليه كثرة الحركة والاندفاع مما يؤدي إلى سقوط الأشياء من يديه أو من حوله.

وتحدثت كاتبة هذه السطور عن أن الساعات الطويلة في الاستذكار يوميا تصيب الطفل بالملل، والمعروف أن هناك حدا أقصى لقدرة التلميذ أو الطفل على التركيز حسب كل مرحلة عمرية، ويقدر بنصف ساعة متصلة عند سن ثماني سنوات، يحتاج بعدها إلى راحة لبضع دقائق لتغيير نوع النشاط، وهذا ما لا يعرفه أو يعلمه الكثيرون، كما أن هناك سبباً آخر يطلق عليه العلماء تعريف «صعوبات التعلم» فقد اكتشف علماء نفس الطفولة أن 20 في المائة من الأطفال في الولايات المتحدة يعانون فعلا هذه الصعوبات، ويتضاعف هذا الرقم في مصر والبلاد العربية، والأسباب تكون بعيدة عن مستوى الذكاء، فهؤلاء الأطفال لديهم مشكلة في التركيز تنتج عن خلل في توصيل إشارات المخ لباقي الأعضاء، مثل النظر والسمع والنشاط الذهني.

أي إن هذه المشـاكل هي نتيجة ما نطلق عليه تشويشا سمعيا أو بصريا، والمؤسف هنا أن كثيرا من الأشخاص لا يعلمون أبعاد هذه المشكلة، ويبدأون في تعنيف الطفل أو إهانته في بعض الأحيان، لاعتقادهم أنه أهوج ومهمل دون سبب، خاصة أنه - كما قلنا - غالبا ما يكون ذكاؤه مرتفعا، وقد لا يعرفون أن هذا الأسلوب في التعامل مع الطفل يدمره تماما، في حين أنه إذا لاقى تفهما ومساعدة أصبح من النابغين.

لكن كيف يتم التعامل مع هذا النوع من الأطفال ومساعدتهم؟ تقول د. كريمة

مختار، أستاذة علم النفس السريري (الإكلينيكي) بجامعة عين شمس: إنه لابد من أن تتعامل الأم مع طفلها بحب وتفهم، وأن تلجأ إلى المراكز المتخصصة أو الأطباء المتخصصين ليتم الكشف الطبي على الطفل الذي يشمل الجهاز العصبي والمخ واختبارات الذكاء والتقويم الشامل لحالته، ثم يبدأ بعد ذلك دور الاختصاصي في تحديد ما يحتاج إليه الطفل من علاج من خلال برامج خاصة حديثة تقضي تماما على المشكلة.

إن الحاجة ضرورية وملحة لتوافر ختصاصي صعوبات التعلم في كل مدرسة، خاصة مع تزايد أعداد هؤلاء الأطفال، كما أنه من البديهي أن يتلقى المدرس ضمن مرحلة إعداده دورات تثقيفية وتدريبية للتعامل مع هؤلاء، فلا يصح مثلا أن تسخر المعلمة - أو المعلم - من هذا الطفل الذي يعاني صعوبات التعلم، في الفصل أو تفصله عن باقي زملائه فتجلسه في آخر صف، وما إلى ذلك، لأن مثل هذه التصرفات تقضي على نفسية الطفل الذي يكون في حاجة إلى تنمية ثقته بنفسه قبل أي شيء.

ثم عادت كاتبة هذه السطور وتحدثت عن دور الأم في حل هذه المشكلة، وأكدت أن الأم تلعب دورا مهما في علاج مشكلة صعوبات التعلم عند الطفل، ويجب ألا يتحول إلى مادة للسخرية والتهكم، فالأم مهمتها أساسية في تشجيع الطفل على التقدم وإكسابه ثقة بنفسه وذلك بإحاطته بالحب والحنان والتفهم الكامل.

وإذا وجدت أنه من الصعب عليها مباشرة دروسه أو أنها تفقد أعصابها أمامه بسرعة، فلابد من أن تترك هذه المهمة لشخص متخصص حتى لا تفسد العلاقة بينها وبين الابن بالتوتر والقسوة وهي العلاقة التي يجب بل لابد أن تتصف بالهدوء والإحساس بالأمان.

أما في المدرسة فلابد من توافر مجموعات تقوية خاصة لهؤلاء الأطفال يقوم بالإشراف عليها مدرسون متخصصون متفهمون تماما لحالة هؤلاء الذين يتمتعون بذكاء شديد وغالبا ما يتفوقون في الدراسة والعمل إذا تم التغلب على هذه الصعوبات الخارجة عن إرادتهم.

وحول شكوى بعض الأمهات من عدم مبالاة الأطفال بالدراسة وعدم إحساسهم بالمسؤولية، وعما إذا كان ذلك يدخل ضمن صعوبات التعلم،

تحدثت الدكتورة جيهان القاضي، أستاذة الأطفال وصعوبات التعلم بجامعة ماساشوستس الأمريكية، وهي عربية مصرية الأصل، فقالت: «الحقيقة أن كثيرا من الأطفال يفقدون الإحساس بالمسؤولية من فرط التدليل من الأبوين، وهنا لابد لهما من أن ينتبها إلى تغيير أسلوب التربية وأن يكونا حازمين، فإذا أهمل طفل يجب أن يعاقب وأن يحرم من الأشياء التي يحبها مثل الخروج أو المصروف، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن منح الأطفال مصروفا كبيرا ومبالغا فيه يؤدي حتما إلى إفسادهم، فكل شيء لابد أن يكون بحساب، أما إذا وجدا بعد ذلك استمرار عدم المبالاة عند الطفل واستمرار الإهمال لديه، فإن هذا

يعني أنه في حاجة إلى مساعدة من اختصاصي في هذا المجال».

كما تحدثت خبيرة جامعة ماساشوستس الأمريكية عن الوسيلة المثلى للاستذكار عند الأطفال الذين يعانون صعوبات التعلم وقالت: «إنه يجب أن نعرف أن قدرة الطفل على التركيز تقاس بعدد سنوات عمره + واحد... بمعنى أنه إذا كان الطفل عمره سبع سنوات مثلا تكون قدرته على التركيز التام 8 دقائق بعدها يقل التركيز ويحتاج إلى فترة راحة أو تغيير النشاط لمدة دقائق قليلة يعود بعدها إلى الاستذكار».

أما بالنسبة للطفل الذي يعاني صعوبات التعلم، فقد يعاني أساسا عدم القدرة على التركيز، وبعد تلقي العلاج المناسب، تختفي هذه المشكلة تماما ويتفوق في الدراسة بإذن الله.

من ناحية أخرى، فإننا نرى أن أسلوب معاملة الوالدين لأبنائهما يؤثر كثيرا في مقياس ومستوى ذكاء الابن، فهناك كثير من الأسر تقوم بتقييد حركة الأبناء وذلك بعدم خروجهم إلى النوادي والمكتبات أو الأماكن العامة، ولكن هذا الأسلوب يعد من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الوالدان، والأفضل أن تتم مصاحبة ومصادقة الأبناء والتعرف على أصدقائهم.

إن معاملة الوالدين للأبناء معاملة لا تتناسب مع مستوى فهمهم وإدراكهم تثير فيهم الحيرة مما يدفعهم إلى التحدث والتمرد، ومن الخطأ أن تعترض الأم على كل عمل يقوم بـه الابن حتى لا تولّد فيه روح الاستياء والتذمّر، خاصة في تلك المرحلة السنية التي تظهر فيها روح الاستقلال وشعور الابن بشخصيته.

وعلى النقيض من ذلك، فإن التسامح الزائد على الحد والتساهل المتكرر مع الابن ينمي فيه روح العنف والأنانية وحدّة الطبع، كذلك الآباء الذين يمارسون القسوة ودكتاتورية فرض الرأي على الأبناء، فإن هذا لا يسمح لهم بممارسة الديمقراطية داخل الأسرة ولا يتعودون على مواجهة المواقف، فالبيت أو الأسرة هو المكان الأول الذي نأخذ منه القيم ونعلم منه الكثير من السلوكيات، وهناك أيضا الجانب الديني، فكثير من الأسر لا تعتني بتدريب الأبناء على ممارسة الشعائر الدينية وقد لا تكون هناك القدوة التي تشجعهم على ذلك، بحيث يمكن أن يكون لهذا الجانب دور مهم في تقويم أخلاقيات

الشباب، فقد لوحظ انتشار العادات السيئة والخطيرة مثل التدخين، وأحيانا تعاطي المخدرات، وهذا يستدعي من الأصل مراقبة سلوك الأبناء حتى يمكن أن نكتشف أي تغير في الوقت المناسب وفي المقابل لا نستجيب لإعطاء الأبناء كل ما يرغبون فيه من أموال بسبب التقليد الأعمى للآخرين، لأنه يؤدي إلى عدم الواقعية في التعامل مع الجوانب المادية في حياة الأسرة والتعود على الإنفاق دون مجهود.

ولابد من الانتباه لما يفعله الأبناء وإعطائهم الوقت المناسب للحوار ودراسة مشكلاتهم الواقعية على الطبيعة ومصادقتهم في مراحل كثيرة وانتقاء الأصدقاء حتى نقضي حياة دون مشاكل أو متاعب. ولابد من القول إن العلاقة المباشرة مع الأبناء تترك أثرها الواضح في مستوى ذكائهم. ومن الضروري أن يتفهم الوالدون طبيعة دورهما الحيوي في إنماء ذكاء أبنائهما سواء بالحوار والتغذية المعلوماتية المتفهمة، أو بتقديم أنواع الغذاء المفيد الذي يساعد على تنمية ذكائهم، فقد ثبت أن سوء التغذية يعد أحد العوامل التي تؤدي إلى صعوبة التعلم نتيجة عدم حصول المخ على الكمية اللازمة لـه من الدم المغذي له والمحتوي على عناصره الكاملة.

وسوء التغذية هو - بلا شك - مسؤولية الأبوين، فإن السلوك المتبع في الغذاء واختياره، لهما أثرهما المباشر على ذكاء الابن أو الطفل، فقد أثبتت التجارب العلمية أن التأثير الإيجابي الملحوظ الذي تحققه العناصر الغذائية الطبيعية الموجودة في الطعام تساعد على تحسين قوة الذاكرة والتركيز، حيث قالت الأبحاث إن عنصري «الكولين» و«البانثوتونيك آسـيد»، من العناصر الأساسية التي تحسّن من سرعة استرجاع المعلومات عند الأطفال، ويا حبّذا لو أضفنا الاهتمام بالفيتامينات خاصة فيتامين «ب» المركب و«هاء» و«ج»، التي تعمل جميعها على تحسين أداء الجهاز العصبي وتنمية الذكاء وقوة التركيز وزيادة النشاط الذهني لكل التلاميذ، بل وللكبار أيضا.

أما بالنسبة للأطفال الصغار الذين لم يتعدوا الثالثة من العمر، فكثيرا ما نسمع شكوى دائمة من الأمهات وخصوصا عند سن الثانية من العمر تدور حول أن الأم تعوّدت إطعام طفلها في السنة الأولى، وهو يطلب المزيد دائما إلى حد أنه يبكي موقظا أمه من نومها لتعطيه وجبة غذائية. أما في السنة

الثانية، فإن أكله ينقص كثيرا، حيث يقل عدد الوجبات وتقل الكميات، فتراه يرفض بعض المأكولات التي كان يحبها سابقا، أو أنه يأكل كمية قليلة منها، فيبدأ قلق الأم التي تحاول معه بكل الوسائل.

وفي واقع الأمر فإنه عادة ما يكون نمو الطفل أسرع في السنة الأولى، لذلك فهو يحتاج إلى الغذاء أكثر، فالطفل يولد ووزنه ثلاثة كيلوجرامات تقريبا، ومع نهاية السنة الأولى يكون الوزن تسعة كيلوجرامات (أي إنه يتضاعف ثلاثة مرات)، أما في نهاية السنة الثانية فيصل وزنه إلى 12 أو13 كيلوجراما (بزيادة قدرها 30 في المائة فقط)، لذلك تعتقد بعض الأمهات أن طفلها ينقص وزنه لأنه لا يأكل، ويزداد قلقها.

من هنا لابد من الاعتراف بأن الطفل يفقد شهيته في السنة الثانية من العمر وأن هذا شيء طبيعي وأن احتياجه قد يقل عن السابق، ومن الخطأ أن تقوم الأم بتهديده أو إغرائه بالحلوى لكي يأكل، فهو ذكي جدا ويعرف احتياجاته، فيجب ألا تحاول إكراهه على النوع أو الكم فهو ذوّاق بطبيعته، وهناك طفل يلتهم بيضة كاملة يوميا مع الوجبات الأخرى، وآخر يرفض الحليب كليا، فتلك هي شخصية الطفل وسلوكه في السنة الثانية، فقد يتناول كمية كبيرة من الغذاء في أحد الأيام ويرفضه في آخر، أو يشبع ويرفض الطعام، وإذا لم تكن هناك أسباب مرضية ونقص واضح في الوزن، فيجب عدم التركيز على ذلك.

إن الجهل بأصول التغذية وقواعدها هو من المشاكل التي مازالت تتحدى شعوب العالم المتخلف... فمن المعلوم أن التغذية - منذ ما يزيد على قرن من الزمان - أصبحت علما قائما له أصول وقواعد بعدما اكتشف أكثر من خمسين نوعا من المواد الغذائية، كلها مركبات كيميائية (فيتامينات، أملاح معدنية، سكريات، أحماض دهنية)، خاصة أن كل هذه الأنواع لا توجد مجتمعة في نوع واحد من الأطعمة، وبالقدر المطلوب، لذلك ينصح علماء التغذية بتناول ألوان من الأطعمة المتنوعة لتوفر المواد اللازمة لغذاء متكامل (لحم، سمك - حليب ومشتقاته - خضراوات - غلال - حبوب - زيوت... إلخ...) ويصبح تطبيق هذه التوصيات أمرا مهما إذا عرفنا تأثيرها على أجسام أطفالنا في طور النمو وما توفره لها من عمل متوازن وفاعلية في

تنشيط وتنمية المخ ومن ثم تنمية الذكاء، هذا بالإضافة إلى أن أعضاء الجسم الأخرى وأنسجته وخلاياه تحتاج طيلة الحياة إلى تجديد مستمر وإلى البناء المتجدد، لذلك فهي تحتاج إلى ما يساعدها على القيام بمهامها هذه، وهو ما توفره لها الأطعمة التي يتناولها الإنسان خاصة وهو طفل. فإذا كان الغذاء ناقصا يتعرض الجسم كله إلى خلل في النمو ما يؤدي إلى نقص كفاءة المخ التي ينتج عنها الغباء أو قلة الذكاء.

من ناحية أخرى، فإن الذين يتناولون أكثر من احتياجات أجسامهم يتعرضون هم أيضا بسبب الإفراط في الأكل إلى أمراض خطيرة، أولها وأخطرها مرض السمنة الذي يسبب خللا في الأداء الطبيعي للقلب والأعضاء الأخرى في الجسم، وصدق الله العلي العظيم إذ يقول: ﴿**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ**﴾. وفي الحديث الشريف: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

ويضاف إلى مشكلة الكم مشكلة النوع، فلا يكفي أن نعتني بكمية الطعام وحدها، بل يجب أن نهتم كذلك بنوع الأطعمة التي يتناولها الطفل حتى تكون متكاملة ومستجيبة لحاجات النمو البدني والذهني، ولتقوم كل الأعضاء بكل وظائفها على الوجه الأكمل، وهذا الأمر ليس من الصعب تداركه، ذلك أن بإمكان كل شخص الحصول على غذاء متوازن بأقل التكاليف، فللحصول على هذا الغذاء المتوازن يجب أن يكون محتويا على السكريات والزلاليات والدهنيات والأملاح المعدنية والفيتامينات.

ولنتناول بشيء من التفصيل كل عنصر غذائي من هذه العناصر كي تتضح الصورة أكثر... فالسكريات، توفر نصف احتياجات الجسم من السعرات الحرارية ونجدها في الخبز، البطاطا، المعجنات، الأرز، المواد السكرية (حلوى، مشروبات غازية، إلخ...) ونجدها كذلك في الخضر والغلال التي توفر إضافة إلى ذلك الفيتامينات والأملاح المعدنية.

الدهنيات: هي مصدر كبير للطاقة، إذ توفر ضعف الكمية التي توفرها السكريات من الطاقة (جرام من السكريات يوفر أربعة سعرات حرارية، بينما جرام من الدهنيات يوفر تسعة سعرات حرارية) كما توفر بعض الفيتامينات (VD،VA) وبعض الأحماض الدهنية، وتعطي الدهنيات نكهة لذيذة للأطعمة.

الزلاليات: لها دور مهم جدا في تكوين خلايا الجسم، لذلك يجب توافرها بكمية كبيرة تكفي لتكوين الأنسجة وتحافظ على سلامتها وقدرتها على التجدد. كما تساهم في دفاع البدن ضد التعفن، إذ تمثل المادة الخام الأجسام المضادة كسلاح فعال في هذه المقاومة، وتركيب الزلاليات يتم باتحاد «22» حامضا أمينيا، منها ثمانية أساسية، أي غير مصنوعة من طرف جهاز البدن، ويجب أن تكون متوافرة في الأطعمة، والزلاليات التي تحتوي على الأحماض الأمينية تسمى كاملة، وهي من أصل حيواني، (لحم، دجاج، سمك، بيض، حليب ومشتقاته) أما الأحماض التي هي من أصل نباتي (كالحبوب، والخضر، والغلال)، فتسمى غير كاملة أو ناقصة، وبالتالي فإن اتحاد نوعين من هذه الزلاليات يكون مفيدا جدا (لحم مع بطاطا، عجين مع حليب... وهكذا).

وللحصول على الزلاليات... يمكن إضافة بعض الأطعمة الأخرى إلى الحبوب... وأهم هذه الأطعمة البقول (مثل الحمص، الفول، العدس، الجلبان، اللوبيا) وتحتوي كلها على أحماض أمينية قادرة على تعويض الأحماض الموجودة في الأطعمة الحيوانية.

الفيتامينات: هي عناصر ضرورية تقوم بدور وظيفي فتساعد الجهاز البدني على القيام بمهماته المختلفة، وغياب هذه الفيتامينات أو بعضها في الغذاء يسبب أمراضا مختلفة أهمها الحصاف ومرض الحفر.

فيتامين أ: وهو ضروري للحياة والنمو خاصة بالنسبة للأطفال، وهو يقاوم التعفن ومهم بالنسبة لجلد الطفل، ويوجد فيتامين أ في الحليب والكبد والزبد والجبن وصفار البيض، والخضراوات مثل الجزر، وفقدان هذا الفيتامين يسبب الرؤية الشفقية وتوقف النمو.

فيتامين ب: هو مركب فيتاميني يتكون من تسعة فيتامينات منها ب1، ب 2، ب 3، ب 6، ب12، وBPP، وهذا الأخير فقدانه يسبب مرض الحصاف أو البلاجرا.

فيتامين د: ضروري لنمو العظام، وفقدانه يسبب الشلل، ونستطيع الحصول عليه من أشعة الشمس المتوافرة في بلادنا والحمد لله.

فيتامين ك: هو عامل ضروري لتجلط الدم، ويصنع فيتامين ك في الأمعاء.

فيتامين و: وهو يوجد في الزيوت النباتية وفي الخضر.

فيتامين ج: ضروري للمحافظة على الأسنان وسلامتها، وهو يساهم في تكوين شبكة الأوردة الدموية، ويوجد في الخضر والفاكهة والغلال.

الأملاح المعدنية: ويوجد منها 18 نوعا وهي ضرورية لتنظيم مختلف التطورات الداخلية للجسم وأهمها:

الكالسيوم: ضروري للأسنان، والعظام، والتجلط الدموي، والعمل المنظم للأعصاب، نجده خاصة في الحليب والجبن والخضر.

الحديد: أساسي لصناعة اليحمور أو الهيموجلوبين الذي ينقل الأوكسجين من الرئتين نحو مختلف الأنسجة ومختلف أعضاء الجسم، ونجده في اللحم وفي الكبد خاصة، وفي صفار البيض، والغلال الجافة، وفي البقول، وفي الأوراق الخضراء مثل (المقدونس والسلق والسبانخ).

اليود: نجده في الإنتاج البحري وفي إنتاج الأراضي القريبة من البحر.

الصوديوم: ضروري جدا لاكتمال نمو الجسم ونجده في الملح وفي معظم الأطعمة المصبرة بواسطة التمليح.

البوتاسيوم: ضروري للأعصاب والعضلات ويوجد بكميات ضئيلة في اللحم، وفي السمك، وفي الحليب، وفي القهوة، وبكميات أوفر في الخضر والقوارض والموز والمشمش.

كانت تلك أهم الأملاح المعدنية لكن هناك انواعا أخرى من الأملاح يجب أن تتوافر في الأطعمة في صورة بقايا قليلة مثل النحاس والزنك وهو عنصر حيوي ومهم جدا لتكوين خلايا المخ وقدرته على الاستيعاب وزيادة معدل الذكاء، وكذلك المنجنيز وغيرها، وهذه الأملاح ضرورية للحصول على صحة جيدة ونمو متوازن، ويمكن توفيرها بواسطة نظام غذائي متنوع.

إن بإمكان كل إنسان أن يحدد ويختار الأطعمة التي توفر له غذاء كاملا ومحتويا على ما يلزمه من طاقة حرارية، فإذا عرفنا خواص كل طعام، أمكننا أن نعرف قيمة السعرات الحرارية التي يوفرها لنا، اعتمادا على أن جراما واحدا من السكريات يوفر أربعة سعرات حرارية، وجراما واحدا من الزلاليات يوفر أربعة سعرات حرارية، وجراما واحدا من الدهنيات يوفر تسعة سعرات حرارية، فلو أخذنا - مثلا - 100 جرام من الخبز الأبيض وقمنا بتحليله،

لوجدنا فيه ما يلي:

ثمانية جرامات زلاليات: 4X8=32 سعرا حراريا

جرام دهنيات: 9X1=9 سعرات حرارية

54 جراما سكريات: 216 = 4X45 سعرا حراريا

فيصبح المجموع: = 257 سعرا حراريا

من هنا يجب أن نحرص على أن نعد وجباتنا بشكل متوازن وفق احتياجاتنا الفعلية للسعرات الحرارية التي توفر للجسم ما يحتاج إليه من نمو وطاقة.

على مائدة العلماء

ولأن الطعام هو المدخل الطبيعي الأول لنمو الـذكاء لدى الأطفال، فقد حظيت محتويات الطعام والفيتامينات والعناصر الدقيقة باهتمام أكثر من 100 عالم ومتخصص بالتغذية في ندوة عنوانها (الإتاحة الحيوية للعناصر الدقيقة) وتعني استفادة الجسم بالفيتامينات والتقنية، وتوصلوا إلى أن قوة الجسم تتم بتناول وجبة غذائية متكاملة ومتوازنة تشمل اللحوم والخبز والأرز والخضر والسلطة ومعها الفاكهة وأيضا طبق كشري مع حبة طماطم وخيار وجزر وجرجير وبيض مع قطعة جبن وخبز أسمر مع عسل أسود.

إن الجسم يحتاج بجانب الفيتامينات المعروفة إلى عناصر دقيقة تشمل الصوديوم والبوتاسيوم والكلوريد والكبريت وأخرى دقيقة هي اليود والزنك والمنجنيز والنحاس، وهذه العناصر يمكن تصنيفهـا إلى ثلاث مجموعات هي:

الأولى وتشمل الأوكسجين والنيتروجين والهيدروجين ويحصل عليها الإنسان من الماء.

الثانية: ويحتاج منها الجسم إلى 100 ملليجرام في اليوم الواحد وتوجد في الألبان والبيض والجبن والأسـماك البحرية والخميرة واللحوم والكبد والفول السوداني والخضراوات الورقية كالفجل والجرجير والسبانخ والملوخية والمقدونس.

الثالثة: وتشتمل على اليود والزنك والنحاس والمنجنيز ويحتاج الجسم منها إلى تركيزات منخفضة وهي توجد في المصادر السابقة أيضا.

وعلى الرغم من احتياج الجسم إلى هذه العناصر بكميات قليلة فإن نقصها

يسبب مشاكل كثيرة، فنقص الحديد يسبب الأنيميا، ونقص البوتاسيوم يسبب ضعف العضلات وسرعة نبضات القلب وقصورا في وظائفه، كما يسبب نقص الصوديوم الإسهال وتشنج العضلات والغثيان، أما نقص الماغنيسيوم فيسبب رعشة وحركات لاإرادية بصورة متكررة، وضعف القدرة على التفكير، ويرجع الإرهاق والإعياء مع آلام العظام إلى نقص الفوسفور.

ويجب التحذير الشديد هنا من تفاعلات الأطعمة مع بعضها البعض عند تناولها، إذ إن هناك أطعمة تقلل من امتصاص عناصر أطعمة أخرى إذا تم تناولها معا، فالأطعمة التي تحتوي على ألياف مثل الردة والبطيخ والخيار وغيرها تقلل من امتصاص الحديد إذا زادت نسبتها على الحد المسموح به، ولذا ينصح بتناول عصير ليمون أو برتقال مع أي طعام، وعلى العكس تماما فإن الخضراوات والليمون والبرتقال التي تحتوي على فيتامين ج عند تناولها مع مصادر تحتوي على حديد مثل الكبد واللحوم والعسل الأسود والبيض والخضراوات الورقية ترفع امتصاص الحديد وتجعله أكثر فائدة.

كما يجب الإشارة هنا إلى نصيحة مهمة أعلنها المجتمعون في تلك الندوة التي عقدت بجامعة قناة السويس في مصر، وهي ضرورة أن يكون الخبز مختمرا جيدا، ويبدو ذلك في خفة وزنه، لأن الخبز المختمر يساعد على امتصاص المعادن الموجودة به، وأيضا نقع الحبوب قبل تناولها سواء مطهوة كالفول أو طازجة كالحلبة والبليلة والترمس يجعلها سهلة الهضم، وأيضا نقع البقوليات الجافة كاللوبيا والفاصوليا والبسلة، لأن ذلك يخلصها من مضادات الغذاء التي تمنع الاستفادة منها.

إن سوء التغذية هو أسباب ضعف القدرة على التركيز والتذكر وبالتالي هو أحد الأسباب الرئيسة في وقوع الطفل تحت وطأة صعوبات التعلم، ومن ثم تأخر نمو الذكاء عند الطفل، المرتبط بضعف البنية، حيث إن ضعف البنية لدى الطفل وعدم اكتمال عناصر الطاقة في بدنه، إضافة إلى عدم الاهتمام باحتياجات كل مرحلة سنية بالغذاء السليم، هي محور مهم في خلق صعوبة التعلم لدى الطفل وعدم تركيزه وتذكره واستيعابه، فالأمر إذن لا ينصب فقط على حشو المقررات الدراسية أو طول المناهج وقصر العام الدراسي، وإنما هي عدة عناصر في هذه القضية الشائكة.

المحتويات

المقدمة 4

• ولادة بنت المستكفي غادة قرطبة... 6

د. بنت الشاطئ

• المرأة بين تولستوي وتشيكوف 16

د. سهير القلماوي

• الصحافة النسائية العربية 24

فجرها: من عام 1890 إلى عام 1920 ×

خالدة سعيد

• عاشقة في معبد 30

سنية قراعة

• مع الكاتب الروسي الشهير بُشكين 34

د. حياة شرارة

• الجويني ورأيه في المعرفة 50

د. فوقية حسين محمود

• الثوب الكويتي عمره نصف قرن 62

لولوة القطامي

• حرب العصابات تنتقل إلى المدن 64

ليلى خليل

• بودلير شاعر المرأة 84

د. ماري فرنسيس

• مسرحيات الحياة 90

د. مكارم أحمد الغمري

• دفاع عن الغزل الجاهلي 102

نجمة إدريس

• سيمون دي بوفوار والجنس الآخر 112

د. سامية أحمد أسعد

• الجاحظ والكتابة للعامة 122

د. وديعة طه نجم

المحتويات

• سلين... الأديب الفرنسي وربع قرن على رحيله 130
د. زينب عبدالعزيز
• لغة الحوار في المسرح العربي مشكلة بلا حلّ! 138
د. حياة جاسم محمد
• شيء من الماضي 146
أمينة شفيق
• رائحة أخيرة 148
هناء أحمد عطية
• نساء عالمات في الأندلس 150
سلمى الحفار الكزبري
• رسالة لم تُرسل 156
ملك حاج عبيد
• ابن بطوطة يصوم رمضان 158
ابتهال سيد علي
• ما بين الحلم والواقع 164
فاطمة حسين
• تحرر المرأة العربية... ذلك اللحن الذي لم يتم 168
فريدة النقاش
• الحرمة (أجلّك الله) 178
فاطمة يوسف العلي
• غموض البدايات وأسئلة الحاضر وآفاق المستقبل 180
سعدية مفرح
• عودة الباشا الميت 196
إقبال بركة
• أولادنا وصعوبات التعلّم 202
سناء الترزي

إصدارات كتاب العربي

١- الحرية	د. أحمد زكي «يناير ١٩٨٤»
٢- العلم في حياة الإنسان	د. عبد الحليم منتصر «أبريل ١٩٨٤»
٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٤»
٤- العروبة والإسلام وأوربا	د. محمود السمرة «أكتوبر ١٩٨٤»
٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع:الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي	مجموعة كتاب «نوفمبر ١٩٨٤»
٦- طبائع البشر	د. فاخر عاقل «يناير ١٩٨٥»
٧- حوار.. لامواجهة..	د. أحمد كمال أبو المجد «أبريل ١٩٨٥»
٨- آراء ودراسات في الفكر القومي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٥»
٩- أضواء على لغتنا السمحة	محمد خليفة التونسي «أكتوبر ١٩٨٥»
١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٦»
١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر	د. حازم الببلاوي «أبريل ١٩٨٦»
١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال	د. فخري الدباغ «يوليو ١٩٨٦»
١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٦»
١٤- المسلمون والعصر	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٧»
١٥- من أسرار الحياة والكون	د. عبد المحسن صالح «أبريل ١٩٨٧»
١٦- دراسات حول الطب الوقائي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٧»
١٧- خطاب إلى العقل العربي	د. فؤاد زكريا «أكتوبر ١٩٨٧»
١٨- المسرح العربي بين النقل والتأصيل	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٨»
١٩- الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٨»

٢٠- أندلسيات	محمد عبد الله عنان «يوليو ١٩٨٨»
٢١- ماذا في العلم والطب من جديد؟	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٨»
٢٢- الإسلام والعروبة في عالم متغير	د. عبد العزيز كامل «يناير ١٩٨٩»
٢٣- الطفل العربي والمستقبل!	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٩»
٢٤- القصة العربية أجيال وآفاق	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٩»
٢٥- تاريخنا... وبقايا صور	د. شاكر مصطفى «أكتوبر ١٩٨٩»
٢٦- الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟	مجموعة كتاب «يناير ١٩٩٠»
٢٧- نافذة على فلسفة العصر	د. زكي نجيب محمود «أبريل ١٩٩٠»
٢٨- نظرات في الأدب والنقد	عبد الرزاق البصير «يوليو ١٩٩٠»
٢٩- الإسلام وضرورة التغيير	د. محمد عمارة «يوليو ١٩٩٧»
٣٠- الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين	مجموعة كتاب « أكتوبر ١٩٩٧»
٣١ - القصة العربية.	مجموعة من الكتاب «يناير١٩٩٨»
٣٢ - أرقام تصنع العالم	محمود المراغي « أبريل ١٩٩٨ »
٣٣ - على جناح طائر	د. شاكر مصطفى « يوليو ١٩٩٨ »
٣٤ - المسلمون من آسيا إلى أوربا	مجموعة من الكتاب « أكتوبر ١٩٩٨»
٣٥ - إسبانيا.. أصوات وأصداء عربية	مجموعة من الكتّاب « يناير ١٩٩٩»
٣٦ - ثورات في الطب والعلوم	مجموعة من الكتاب «أبريل ١٩٩٩»
٣٧ - نبش الغراب في واحة العربي	محمد مستجاب «يوليو ١٩٩٩»
٣٨ - المثقفون والسلطة في عالمنا العربي	أحمد بهاء الدين «أكتوبر ١٩٩٩»

٣٩ - التعبير بالألوان	مجموعة من الكتّاب «يناير ٢٠٠٠»
٤٠ - حضارة الحاسوب والإنترنت	مجموعة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٠»
٤١ - شهرزاد تبوح بشجونها	مجموعة من الكاتبات «يوليو ٢٠٠٠»
٤٢ - قوافي الحب والشجن	نخبة من الشعراء «أكتوبر ٢٠٠٠»
٤٣ - الطب البديل	د. محمد المخزنجي «يناير ٢٠٠١»
٤٤ - منمنمات تاريخية	سليمان مظهر «أبريل ٢٠٠١»
٤٥ - الإسلام والتطرف	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠١»
٤٦ - الطريق إلى المعرفة	د. أحمد أبو زيد «أكتوبر ٢٠٠١»
٤٧ - إيقاع على أوتار الزمن	د. نقولا زيادة «يناير ٢٠٠٢»
٤٨ - دمار البيئة... دمار الإنسان	مجموعة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٢»
٤٩ - الإسلام والغرب	مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٢»
٥٠- ثقافة الطفل العربي	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٢»
٥١- الثقافة الكويتية أصداء وآفاق	د. سليمان العسكري وآخرون «يناير ٢٠٠٣»
٥٢- جمال العربية	فاروق شوشة «أبريل ٢٠٠٣»
٥٣- كلمات من طمي الفرات	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٣»
٥٤- مرفأ الذاكرة	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٣»
٥٥- مستقبل الثورة الرقمية	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٤»
٥٦- فلسطين روح العرب الممزق	نخبة من الكتاب «إبريل ٢٠٠٤»
٥٧- مراجعات في الفكر القومي	د.محمد جابر الأنصاري «يوليو ٢٠٠٤»
٥٨- الأندلس صفحات مشرقة	نخبة من الكتاب «اكتوبر ٢٠٠٥»

٥٩- الغرب بعيون عربية (الجزء الأول)	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٥»
٦٠- الغرب بعيون عربية (الجزء الثاني)	نخبة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٥»
٦١ - المعرفة وصناعة المستقبل	د. أحمد أبوزيد«يوليو ٢٠٠٥»
٦٢- غواية التراث	د. جابر عصفور«أكتوبر ٢٠٠٥»
٦٣ - نبش الغراب «المجموعة الثانية»	محمد مستجاب «يناير ٢٠٠٦»
٦٤- دائرة معارف العرب	جار النبي الحلو وعلي سيد علي «أبريل ٢٠٠٦»
٦٥- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الأول»	مجموعة من الكتاب «يوليو ٢٠٠٦»
٦٦- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الثاني»	مجموعة من الكتاب «أكتوبر ٢٠٠٦»
٦٧ - الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي	مجموعة من الكتاب «يناير٢٠٠٧»
٦٨ - عن الدهشة والألم ٥٠ قصة بأقلام عربية	مجموعة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٧»
٦٩ - المجلات الثقافية مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة (الجزء ١)	مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٧»
٧٠ - المجلات الثقافية مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة (الجزء ٢)	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٧»
٧١ - البحث عن آفاق أرحب مختارات من القصة الكويتية	إعداد: د. مرسل العجمي «يناير ٢٠٠٨»
٧٢ - «العربي» نصف قرن من المعرفة والاستنارة الجزء الاول	نخبة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٨»
٧٣ - «العربي» نصف قرن من المعرفة والاستنارة الجزء الثاني	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٨»

٧٤ - نبش الغراب «المجموعة الثالثة»	تأليف: محمد مستجاب «أكتوبر ٢٠٠٨»
٧٥ - نساء في التاريخ العربي	تأليف سنية قراعة «يناير ٢٠٠٩»
٧٦- قصص على الهواء بأقلام شابة	مجموعة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٩»
٧٧-تجارب في الإبداع العربي	نخبة من الكتاب «يوليو ٢٠٠٩»
٧٨ - إعادة قراءة التاريخ	د. قاسم عبده قاسم «أكتوبر ٢٠٠٩»
٧٩ - وجع الذاكرة	سعدية مفرح .. «يناير ٢٠١٠»
٨٠ - مستقبليات	د. أحمد أبو زيد «أبريل ٢٠١٠»
٨١ - الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة (الجزء ١)	مجموعة من الباحثين «يوليو ٢٠١٠»
٨٢ - الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة (الجزء ٢)	مجموعة من الباحثين «أكتوبر ٢٠١٠»
٨٣ - حوارات العربي (الجزء ١)	مجموعة من الكتاب «يناير ٢٠١١»
٨٤- معرض العربي	عبود طلعت عطية «أبريل ٢٠١١»
٨٥ - العرب يتجهون شرقا (الجزء ١)	مجموعة من الباحثين «يوليو ٢٠١١»
٨٦ - العرب يتجهون شرقا (الجزء ٢)	مجموعة من الباحثين «أكتوبر ٢٠١١»
٨٧ - المسرح العربي .. مسيرة تتجدد	مجموعة من الكتاب «يناير ٢٠١٢»
٨٨- عوالم شعرية معاصرة	د.جابر عصفور «أبريل ٢١٠٢»
٨٩- شمس الليل	أمين الباشا «يوليو ٢٠١٢»
٩٠ - الثقافة العربية في المهجر (الجزء ١)	مجموعة من الباحثين «أكتوبر ٢٠١٢»
٩١ - الثقافة العربية في المهجر (الجزء ٢)	مجموعة من الباحثين «يناير ٢٠١٣»

٩٢ - ويسهر الخلق .. سير ومختارات من الشعراء العرب	(المجموعة ١) سعدية مفرح «ابريل ٢٠١٣»
٩٣ - قضايا السينما العربية	(مجموعة من الكتاب) «يوليو ٢٠١٣»
٩٤ - الجزيرة والخليج العربي	(مجموعة من الكتاب) «أكتوبر ٢٠١٣»
٩٥ - الجزيرة والخليج العربي - (الجزء ٢)	(مجموعة من الكتاب) «يناير ٢٠١٤»
٩٦- يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى	تقديم: شريف صالح «أبريل ٢٠١٤»
٩٧- «الثقافة العربية على طريق الحرير»	(مجموعة من الكتاب) «يوليو ٢٠١٤»
٩٨ - نافذة على فلسفة العصر (الجزء الثاني)	أ.د. زكي نجيب محمود
٩٩ - الإعلام بأعلام الإسلام	الشيخ محمد أبوزهرة - يناير ٢٠١٥
١٠٠- نافذة على قصائد الشعراء في «العربي»	مجموعة من الشعراء العرب في - ابريل ٢٠١٥
١٠١- نهر على سفر	أشرف أبو اليزيد - يوليو ٢٠١٥
١٠٢- فن الكاريكاتير رسوم مختارة من مجلة العربي	مجموعة من الفنانين - أكتوبر ٢٠١٥
١٠٣- كاتبات «العربي» (الجزء الأول)	مقالات لنخبة من كاتبات مجلة العربي

ISBN: 978 - 99906 - 38 - 71 - 4

هذا الكتاب

أقلامٌ نسائية موهوبة ، وإن كنا لا نحبذ هذا التفريق الشائع في الجنس كوصف للقلم ، فالقلم موحّد الجنس في تطلّعه للفكر والأدب والفنون . لكننا جرياً على السائد ، حشدنا في هذا الكتاب بجزئيه كتابات مختارة لكاتبات عربيات مرموقات ، ساهمن منذ وقت طويل في رفد مجلة العربي بعطائهن الأدبي والفكري والنقدي ، وتجوال عقولهن في مناحي التاريخ وهموم المجتمع وقضاياه الإنسانية والتربوية والعلمية .

وهكذا حصدت «العربي» مما زرعته المرأة العربية في بساتين العطاء ثمرات أدبية ناضجات حلوة المذاق ، وسنابل فكرية زاهيات بأشعة الشمس، وزهرات فنية عابقات بشذى الروائح وسحر الألوان ، وإذا بهذا الكتاب الذي بين أيديكم ، حديقة بديعة منسقة ، سينعم القارئ في فيء ظلال أشجارها الوارفات بالظل والندى .

صفحات تكشف بجلاء ووضوح ، كم هي المرأة العربية ضالعة وشريكة ومؤسِّسة ومسؤولة في الحركة الثقافية في عالمنا العربي ، وكم هي إنسان معطاء وجاد ورصين، وأنها ينبوع آمال لا ينضب ، وضوء أحلام لا ينطفئ ، وخميرة رغيف مستقبلي طيّبٍ وشهي .

كتاب العربي ١٠٣
ALARABI BOOK

كاتبات «العربي»

مقالات لنخبة من كاتبات مجلة العربي

وزارة الإعلام - مطبعة حكومة الكويت